روايات الهلال

جمال الغيطانى

روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

سلسلة
شهرية
لنشر
القصص
العالمى

تصدر عن
مؤسسة دار الهلال
الإصدار الأول:
يناير ١٩٤٩

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة
عبدالحميد حمروش
رئيس التحرير
مصطفى نبيل
سكرتير التحرير
محمود قاسم

ثمن النسخة

سوريا ٢٠٠ ليرة ـ لبنان ١٢٠٠٠ ليرة ـ الأردن ٤٥٠٠ فلس ـ الكويت ٢٥٠٠ فلس ـ السعودية ١٥ ريالا ـ البحرين ١,٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ دبي/ أبوظبي ١٥ درهما ـ سلطنة عمان ١,٥ ريال.

العدد ٥٨٥

سبتمبر ١٩٩٧ ● جمادى الأولى ١٤١٨هـ

No-585-SEP-1997

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٥٥ جنيها داخل ج . م . ع تسدد مقدما نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية ـ البلاد العربية ٣٥ دولارا ـ امريكا واروبا واسيا وافريقيا ٥٠ دولارا ـ باقى دول العالم ٦٠ دولار . القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال ـ ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

للاشتراك فى الكويت : السيد عبدالعال بسيونى زغلول : الصفا ص . ب ٢١٨٣٣ (13079) ت : ٤٧٤١١٦٤

الادارة : القاهرة ـ ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات : ص . ب : ٦١ العتبة ـ القاهرة ـ الرقم البريدى ١١٥١١ ـ تلغرافيا : المصور ـ القاهرة ج . م . ع .

تلكس : TELEX 92703 hilal u n

فاكس : FAX 3625469

سِفْرُ البُنْيان

بقلم

جمال الغيطانى

دار الهلال

اهداءات ٢٠٠٤

أسرة المخرج / إبراهيم الصحن

القاهرة

الغلاف والرسوم الداخلية
للفنان جودة خليفة

"لتمام الظهور .. لابد من غياب"

تعم الأراجيف، تهتز الثوابت، يذوى ما ظنه البعض أبدياً لا يتبدل، لا يتغير، انعزلت الطرق التى ظلت دهوراً سالكة، يقطعها الإنسان بمفرده آمنا ، إن بالليل أو النهار، لا يدرى المرء ماذا يمكن أن يقع صباح غد ، نواحى عديدة يتعذر الوصول إليها الآن بعد أن ظلت مطروقة آلاف السنين.

مقابر أبناء الآلهة نُهبت ، محتوياتها تنقل إلى جهات شتى، الأسماء المحفورة فوق الجدران والصخور تمحى، هكذا يذوى ذكر أصحابها إلى الأبد، حتى الأهرام الموصدة نفذوا إليها وعبثوا بما تضمه الحجرات الظاهرة. كافة ما وصل إلى الكهنة مهدد الآن، تراتيلهم المتضمنة للحقائق القديمة، واشاراتهم الدالة على الطرق المؤدية، غير المرئية، تلك التى يصعب وصفها باللفظ، أو رؤيتها بالنظر.

إنهم الآن فى حاجة إلى ما يمكن أن يجمع النقيضين، ما يؤدى ولا يؤدى، ما يمكن رؤيته ولكنه خفى، ما يلمح ولا يصرح ، ما يومىء لكنه لا يفصح، ما يظهر ويختفى فى الوقت عينه.

الأمر صعب، ومع كل سعى للنهر المعبود من الجنوب إلى الشمال تتغير الأشياء وتُمحى العلامات، أيام وعرة، وقلقلة سارية، ومخاطر محدقة .

أصعب ما يواجه الإنسان فى وجوده المحدود، المؤطر بقدر، رؤيته اهتزاز كل ما نشأ عليه، هكذا تسرى الغربة، تكتمل الفجوة بين المرء وما يحيطه، ما يتحرك فيه، ما يتنفسه من هواء، ما يطالعه من وجوه تغيب عنه ملامحها مع أنه ظل يطالعها عمره كله، ما يصله بالآخرين يهن، يضعف، حتى يصل إلى لحظة بعينها يتمنى عندها المفارقة، بل ويسعى إلى اكتمالها، فبتغير الأماكن، وزوال المعالم، وافتقاد الصحبة، وضياع العلامات، وتداخل الاشارات، يصبح ما يدل على الغرب جواز مرور إلى الشرق، وما جاء متماسكا يستمر مجزأ، غير قادر على التواصل ، إنه اغتراب الغربة ذاتها.

ويدققوا، ويتطلعوا، ويفتشوا ما سيطالعونه فى أفئدتهم، حتى يظهروه فى سائر المبانى الدنيوية أو الأخروية، بيت أو مقبرة، معبد أو قصر، حتى فى القوارب الكبرى التى تسبح فى النيل، أو تفرد أشرعتها عبر البحار قاصدة بلاد العاج. والبخور، أو الموانىء الجالبة لخشب الأرز والصندل والعنبر واللبان والزهور النادرة التى تنبت من الرمال القصية، وتلك الطالعة فى الثلوج القطبية.

لا يعرف أحد الوضع الذى اتخذه قبل أن يكشف عن ملامح ما توصلت إليه الأفئدة، ما جسد رغبة الحفظة، البررة، خلال زمن الاضطراب، وتبدل الأحوال وانقلاب كافة المعايير.

لا يعرف إنسان مهما أوتى من ثقابة البحث، ودقة النفاذ، النقطة التى سدد إليها البصر، أو الترتيل الذى تمتمه أو علا به صوته قبل أن يفضى إليهم بنتاج البحث، وثمرة الكد، ومستودع الحقائق، ومثوى المعانى والرموز، والعلامات كافة، لن يطلع مخلوق على وصف لملامح شهود المعنى، إلى تلك المساحة المحددة شخصوا ذاهلين، متعجبين، وانتقلت دهشتهم عبر هذه اللحظة من جيل إلى آخر، ومن عصر إلى عصر ، وتخللت حقب تبدلت فيها الملامح، وأقام الغرباء فى الوادى، وتمكن بدو الصحراء الرحل من بلاد الخضرة والماء الوفير والظلال المتوارثة، لكن ما أشار إليه كبير الكهنة، ما كشف عنه الستار فى ذلك الزمن القصى، المندثر، ذاع وانتشر واتخذ أشكالا عديدة وهيئات مختلفة.

قال إن الأزمنة أودعت الخلاصة هنا، وأن واحدا فقط، لو أدرك إنسان ما السر، الكلمة العظمى، القصوى، فيمكنه النفاذ بمفرده أو يتبعه قومه والعبور من كون إلى آخر، من وجود إلى وجود.

قال كبير الكهنة إن كثيرين لم يولدوا بعد، سيمثلون أمام الباب الوهمى، ويتساءلون، ويجتهدون، ويبذلون الطاقة، وربما يشرف بعضهم

على المعنى الكامن، تماما كما ستجىء لحظة يمكن للأحفاد أن يدركوا القصد الحقيقى للأهرام، والمسافات التى قطعتها أصداء النقوش فى آفاق الكون المنظور، لكن هذا الباب الوهمى، الماثل، الخفى، الظاهر، الممحو ، الحاض، الصاد، الداعى، الناهى، المشجع، المحبط، السهل ، المستعصى، الواقع الماموس، والاشارة المحوية، الحاوية .

الباب الوهمى..

إنه ذروة التفتق، ومجمع المعانى، عين الوصول، لن يدرك ويفهم ويستوعب، بدونه لا يمكن لأى إنسان فهم ولو قبسا يسيرا من الخبيئة العظمى، السارية ، المخفاة فى الأكوان كافة، والظاهرة الجلية لمن يدرك ويستوعب.

حكاية

خبيئة

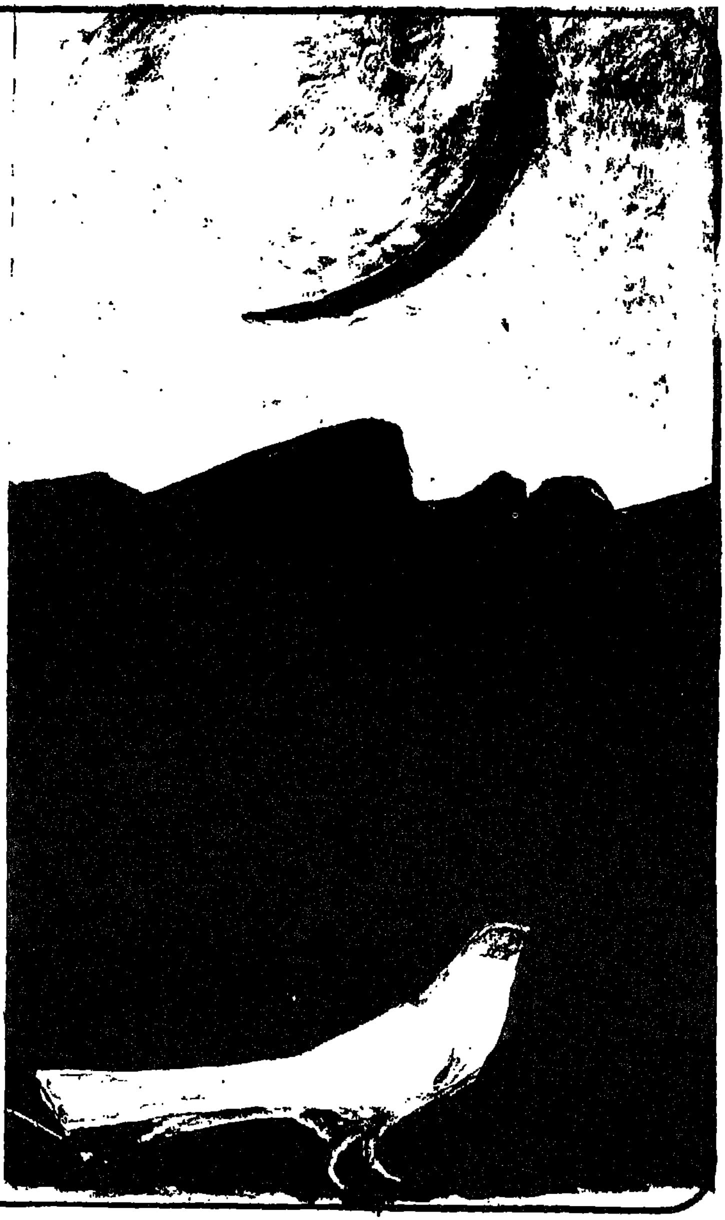

أربعون يوما استغرقها الاحتفال بتمام الشأن وانقضاء الأمر ، من مسيرة سبعة أيام يمكن للساعين ، القاصدين رؤية التضوى المتلألىء ، بل وقراءة الحروف التى يعكسها نور الشمس وضوء القمر وخفقات النجوم، لا تغيب عن الناظر قط ، يمكن لكل حصيف أن يقرأها كما يريد، أن يأتيها من كل جهة يحدث بها قلبه ، هذا من أسرار الأهرام الكبرى ، وما يتعلق بتلك الكتابة التى تكسوه من الجهات الأربع ، وتحوى ما تحوى ، بعد تمام الغروب بذهاب «رع» إلى بيت الأبدية بدأ ابن الشمس، خنوم خوف ، رحلة عودته إلى مقر إقامته والذى يمكن فى أى موضع منه رؤية الهرم ، بدأ التحرك محمولا على المحفة المقدسة ، مستقرة فوق أكتاف اثنى عشر من مشاهدى المعانى والحقائق يتقدمهم حراس القصر، صممت بحيث تستدير تلقائيا صوب البناء الأعظم ، يعقد يديه أمام صدره، إحداهما تمسك بعصا تنتهى بالصل ، والأخرى بالنحلة الذهبية . تتوالى عليه قراءات القوم فى الأزمنة التالية ، ما يتخيله يراه ، قليله مُرض وكثيره ممض.

الحروف تصعد فى الفراغ ، تمتزج بأنفاسه ، بصور ذاكرته ..

نقطة بيضاء مترجرجة .

إنها العلامة .

يغمض عينيه مضطراً ، الحروف حوله ، فوقه تحته ، محومة ، غير متكئة إلى بنيان ، تتراقص عبرها تلك النقطة التى يعرف معناها، ويدرك مغزى مجيئها، يلوح غثيان يصحبها دائما، تظهر نقطة أخرى، ثالثة، رابعة، بعد لحيظات تتلاحم ، تتصل، تختفى المرئيات، تتقلص المساحات ليبدأ الصداع العنيف، الموجع، يطبق على رأسه، يخلو إلى نفسه فى غرفة الليل، لا ينفذ إليها شعاع ضوء، هذا ما أوصى به كبير الكهنة، والعالم بمداواة الآلام.

لا يمكنه ذلك الآن، ليس أمامه إلا التماسك، والجلد، كل خطوة منه مرصودة، مراقبة، مصانة فى عيون الآخرين، إنه يوم التمام، ذروة الفيض والفرح العام والخاص، ما سيبقى لمن يجىء بعد أن يفنى، كل من عرف المشاهدة الختامية

مجرد اشارات، علامات دالة، تماما كحروف الكتابة المنفصلة عن بعضها، كل د
علامة حاوية فى حد ذاتها لكنها غير كافية، كل حضور يبدأ باشارات كذا ين
عبر بوارق خاطفة.

ما يبدو جليا، ساطعاً الآن، سيلوح يوما غامضاً، مدينا للأحاجى منتسبا
الألغاز المحيرة، غير أن الشأن تحقق.

لا يمكنه اغماض عينيه، تتسع الرجرجات البيضاء، ابن الشمس مضطر
ابقاء عينيه شاخصتين، كافة ما يصدر عنه مرصود الآن، غدا يشيع فى الواد
فى أماكن تناول المياه الطاهرة.

حقا .. مهما اكتملت المعرفة سيظل باستمرار ما يصعب ادراكه، رغم كل
تم فضه من أسرار بين الروح – الجسد – فى تلك الدنيا، يبقى ما يستعصى :
الفهم ولن يدرك إلا لمن يبلغ المدينة هناك عند الغرب، أطباؤه مطلعون على مسار
الدماء فى شرايينه، مقاديرها، فى كل لحظة، يعرفون الفرق بين الدقة والدقة، ي
الجهلاء أن كل دفقة من القلب تشبه ما سبقها أو ما يلحقها، لكن جوهر الحق
مغاير، مختلف، إنهم مطلعون على اتصال الأنفاس وترددها منذ بدء النبض
الرحم الأصغر، وحتى تمام الصمت المصاحب للخروج من الرحم الأكبر، لكنهم
يقدروا بعد على إنبائه بحلول تلك النوبات.

باستمرار، سيكون ما يستعصى على الإدراك، وأوله .. تلك الأهرام، بته
ظهورها يكون الاختفاء، بدء السعى إلى بلوغ الحقائق، المكان القصى، والز
المستحيل، درءاً لحماقة الأحفاد، وجهل القادمين، الذين سيسعون بغير علم.

لو يخلو إلى نفسه الآن، يفتح عينيه أو يغمضهما لا فرق مع اكتمال العت
لا يمكنه الجهر، لو أقدم سيُعد ذلك نذير شؤم، ويقترن ذلك بالغرض من البني
وعندئذ لا يعلم أحد ما تصير إليه الأمور، ربما يتصدع مجمع الأسرار، وتتوة
الخبيئة عن السعى فى فضاء الكون، يبطل التذرى، ستبدو الحروف فى سه
المدينة عند الغرب، لن يبلغها أى إنسان.. ليحتمل، ليحتفظ بوضعه حتى مع بل

ما يشمخ الآن قائما، محاطا بأفواج قدمت من كل فج، ما يبدو الآن جليا، صريحاً، سيبدو لغزاً، معظم من يحتفلون الآن، أو من سيجيئون بعد أزمنة نائية، أو يفدون من عوالم شتى، لن يدركوا الجوهر، إلا إذا وقفوا على الأسرار المبثوثة، ولن يتم ذلك إلا بعلم طائل، وجهد عسير، الأمر جلل، وما تم تحصيله لابد من حفظه مصوناً لمن يدركه وإلا جرى محو لما أمكن تجميعه عبر أزمنة صارت إلى فناء.

من حقه أن يزهو، أن يشب، وما بداية النوبة إلا علامة على تصاعد موجه، يعرف ذلك عبر أيامه، دائما تعقب نوبات فرحه أو شجنه الغامض، أو اجتهاده العام، ما تم أمره الليلة عصى على الأجداد من قبل وسائر الأحفاد من بعد، الفكرة قديمة، لاكتمالها أوان، عمل اجتهد فى اتمامه، عندما أطلعه سيد الحكماء على النبوءة القديمة هاله ما أصغى إليه، من يتصور اكتمال الغربة يوماً، وتيه الآلهة وضياع الحقائق، امتداد الأيدى الجاهلة بآلات الهدم إلى ما يركع أمامه القوم الآن، الانتهاك، السخرية من المعارف المستقرة، لكل ما توصل إليه خدام الشمس، وسدنة الضوء، فزع من تدنى الأحفاد فى عصور لاحقة، عرضهم الأجساد المقدسة أمام الغرباء، هكذا نذر جهده وأوقف كل طاقة لإتمام مجمع الأسرار، وصيانتها وإطلاقها فى رحم الكون، كما جرى التمويه على الأحفاد الفسقة، والغرباء الفجرة، الجهلاء العمى، المقيمين منهم أو العابرين، كل ما سيرونه ويقفون عليه ويتباهون به مجرد بدائل لبنايات وفنون وعلوم جرى اخفاؤها بحكمة حكيمة فى تلك الحروف، لن يدركها إلا من يبلغ المدينة أو يعبرها، سيعثر السذج، الغُفَل على الممرات والسراديب التى لا تؤدى إلى شىء، وتلك الموصلة إلى الحلى، وقلائد الذهب، والتماثيل والأوانى، والمعادن، وحبات الفيروز، ونفائس الدر، والأدوات، ولفائف البردى، يبيعون ما يصل إليهم بثمن بخس مهما غلا، ويستبيح الصعاليك ما يستقر بين أيديهم، سيضعون المؤلفات، والشروح والتفسيرات، ولن تنجلى الغشاوة عنهم أبدا، وهل يدرك الطفل الغرير أن اللعبة التى يمنحها انهماكه كله ما هى إلا وهم؟ أما الأسرار الجمة، والحقائق المفضية، فقد جرى حفظها

وتمويهها وترميزها واطلاقها ليتم تشبع الفضاءات المتوالجة بعد ألف ألف دورة يكتمل عندها القمر، إذا بلغ القوم مدينة الغرب، أولئك السعداء، الكُمل الذين سيمضون طويلاً وربما ينتظرون أوقاتاً بطيئة أو سريعة فى النزل حتى عبورهم النهر العميق، حتى اجتيازهم القنطرة، أولئك المحظوظون البررة يمكنهم فك الرسائل السارية والتى لن يكف الأهرام عن بثها حتى تختفى سائر الحروف منه، من مجمع الجهات الأربع والجهات الأربع، ألا يستحق ذلك زهواً رغم قسوة النوبة.

اضطراب فى الأمعاء يسير، لن يقدر مشاهدو المعانى على ابطاله أو التخفيف منه، يتماسك مبقياً على وضعه، تمضى المحفة تماما كما خطط مدبرو الحفل ومنظمو الشعائر، يؤلمه بقاء عينيه مفتوحتين، لكن لابد له من دوام التحديق صوب مجمع الأسرار، هرم الحقيقة، البيت الأكبر لكل جلوة، لابد من استمرار النظر حتى مع اكتمال الغشاوة الناصعة، تحجب عنه مجمع الأسرار، بدأ الليل صعود الكتابة، بعد حين مقدر تظهر أولى الحروف في سماء مدينة الغرب، عند تمام الاندماج يبدأ التشظى، عند ذروة الوضوح تمحى الحروف لكن يبدأ صون المعانى.

يشخص محتفظاً بالجهة، متشبثا بالاتجاه مع انحسار كافة المرئيات، يعرف أن كل عمارة مهما بلغت من الاتقان فثمة نقط ضعف كامنة، غير بادية، لكن هذا البناء ليس عمارة، إنه توق، إنه تذكرة، إنه مسعى الحروف التى ستبقى بعد فناء كل شىء عند بلوغ تلك الذروة، هناك حيث يمكن إدراك مدينة الغرب.

حكاية

رياح

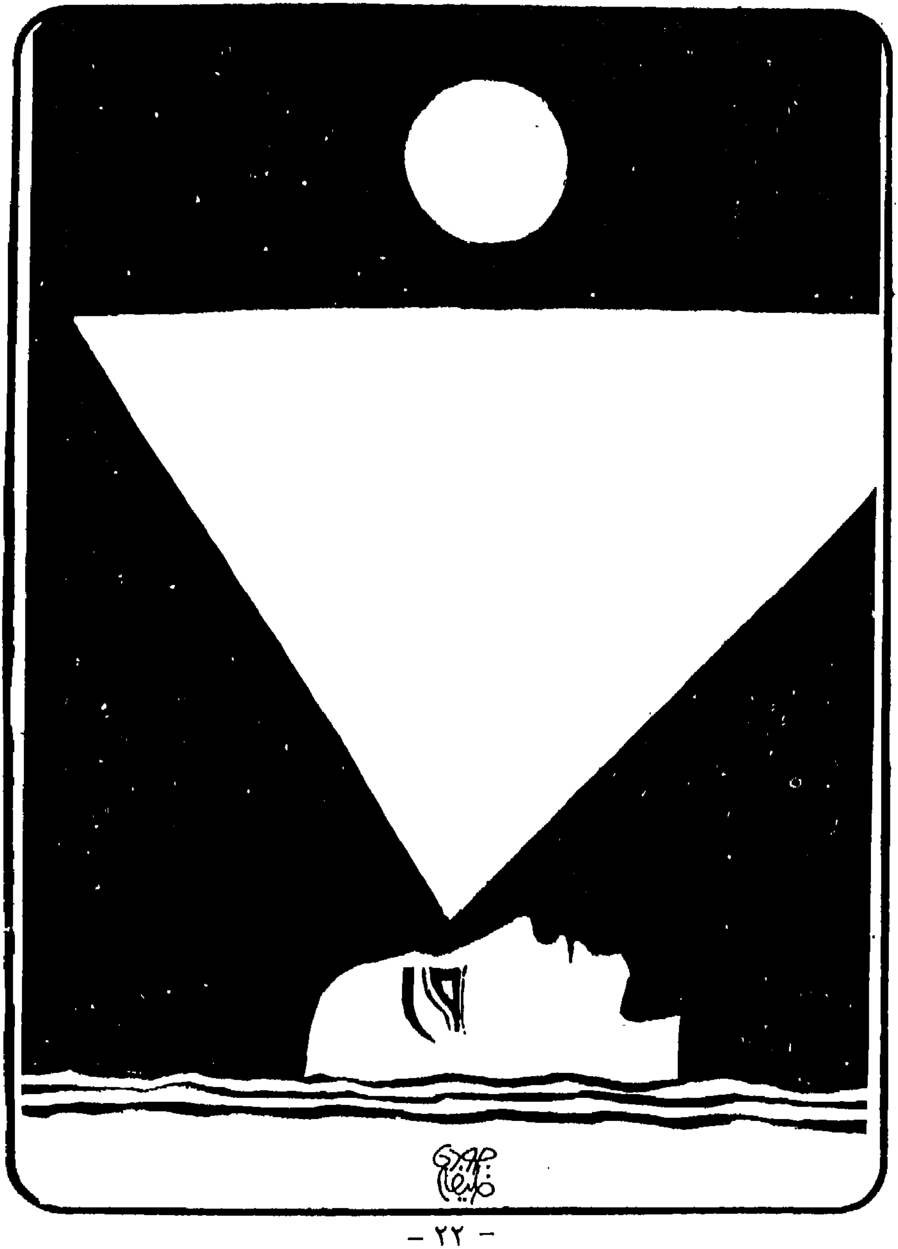

لم يتعسف الفرعون المتسائل - كما عُرف فى العصور المتأخرة - ولم يظهر سطوة، أو قدرة غشومة، عند طرح استفساراته وافتراءاته ورؤاه على كهنة آمون، حفظة العلوم القديمة وما يستجد منها.

هو أول من طمأنهم وهدأ خواطرهم، عندما بدأ يطرح أسئلته، ويسفر عما يشغله، هو أول من قال إن السؤال معرفة، يكفى النطق به، فذلك يعنى الاستدلال على الموضع المستعصى، وبداية الحل، أول خطوة نحو اتخاذ موقع ثانى اثنين، وتمام عبور البرزخ الفاصل، غير أنه كان معنياً بالإجابة، لكنه قال وأمر بنقش ذلك على جدران غرفة رقاده الأبدى، حيث يكتمل غيابه هناك، ليظهر فى أفق الأبدية، تماما مثل العمارة المتقنة، فما نراه منها يستند إلى مخفى غائب، وقد فصلنا ذلك فى الحديث عن الأساس وهذا مصطلح وعر يصعب التحقق من سائر جوانبه، والنفاذ إلى كافة أغواره، إنما أوردنا منه ما قدرنا عليه، ولكن بالتمعن ربما يبلغ من يسعى بعض الأسباب، وهذا ما كان يردده الفرعون المتسائل حور محب القديم، هو القائل إن الحياة أساسها غياب، ولو اطلع البصر على الجنين فسيفنى، وبعد الميلاد يصبح شرط الحياة فى الغياب نقيضاً لتمام الظهور واستمرار التوالى حتى يتم الرحيل الأبدى، وما بين اختفاء ندرك بعضه حيث يستقر الجنين وغياب نجهله يكون له التجهيز يجرى السعى، تماما مثل العمارة، فكل بناء إلى اختفاء مهما طال ظهوره.

فى ليلة من ليالى الشهر الأول لفيضان النيل من السنة السابعة تساءل والمجلس منعقد، مكتمل، وهذا مجلس أمره ذائع وظل معروفاً بما يجرى فيه حتى العصر الرومانى، وأخذ فلاسفة اليونان الكثير مما تردد داخله عندما كانوا يجيئون إلى معابد أون ومنف وأبيدوس وطيبة ويقعدون أمام الكهنة القدامى صامتين، متلقين لا غير، كثير منهم حفظ بعض ما قيل فى تلك الليالى المنطوية،

الغائبة، صعب استعادة ما فيها، لكن بانطوائها ظهر ما نوقش فيها واكتملت خطى من المعرفة.

قال الفرعون المتسائل – حور محب – : من أين تجيء الرياح؟

فلما تطلعوا إليه صامتين ، حائرين ، مضى موضحاً : هذه النسيمة التى مستنا الآن، أين نقطة بدايتها، وأين نهايتها؟

من أين تبدأ حركتها، وإلى أى مدى ستمضى حتى تكف تماماً؟

قال كبير الكهنة : أفصح ، فسر ، زادك آمون حكمة ودعة.

قال الفرعون المتسائل – حور محب – : هل يمكنكم إقامة عمارة للريح؟، إنما أريد بناء تسكنه ريح الجنوب، وآخر تأوى إليه رياح الشمال، وثالثا نمسك فيه بالخماسين، ورابعا وخامسا وسادسا وسابعا يمكننا أن نستضيف فيه النسمات النهارية، والهبوبات الليلية ، ونستحضر ما يجيء ملامساً موج البحر مصحوبة بزرقته.

قال كبير كهنة آمون ، مسموع اللفظ ، عمدة التحقيق وبداية التمام.

«وكم تمهلنا لبلوغ تلك العمارة يا ابن حورس المحلق أبدا».

قال الفرعون المتسائل – حور محب – :

«بقدر اجتهادكم ...».

كم مضى على تلك الليلة من ليالى الشهر الأول لفيضان النيل من السنة السابعة لتولى الفرعون المتسائل – حور محب – موضع الرائى ، المجتهد؟

مصطلح

حامل ومحمول

كل بناء من حامل ومحمول ، ليستمر التركيب ويتصل ، لابد من تحميل شيء على آخر ، حجر على حجر ، خشب مقطوع بحسبان يتعامد أو يتصل بآخر ، نحت يفضى إلى نحت ، وربما يقع انقطاع يتم بعده استئناف ورحيل ، فما دام الأمر احتوى على حامل لمحمول فلابد من حركة ، لابد من انتقال ، لابد من سفر ، فالتحميل لايكون إلا عند الرحيل . من هنا فإن كل حامل ومحمول تأهب لمغادرة ، وكل بناء يبدو للأحداق العوابر ثابتا ، جامداً ، إنما هو فى حركة ، طالما أن جزءا منه محمول على آخر ، نرى العمارات الشاهقة ثابتة ، راسخة ، غير أنها ماضية ، من سفل إلى علو ، ومن لحظة إلى أخرى ، ومع حركة الكوكب حول جرم الشمس فما كان عنده صباح اليوم لايكون هو نفسه لحظة غروبها ولهذا تفصيل آخر وأسفار مغايرة ، لكن ما نؤكد عليه أن الحامل إذا أفضى إلى المحمول فلابد أن تصير حركة حتى وإن لم تبد ، لكن نتائجها ربما تلوح عند لحظة ما ، لايمكن تعيينها ، لحظة تحميل الحامل على المحمول . وان كان التنبؤ بها ممكناً إذا رصدت الشواهد وفحصت الأسباب .

لايمكن للحامل أن يظل حاملاً إلى الأبد ، ولايمكن للمحمول أن يستقر ممتثلاً لوضعه ، هذا من ناحية ، من جهة أخرى فإن الأمر نسبى ، ما نراه حاملاً ، ربما كان محمولا فى نفس اللحظة ، لننظر إلى العمد الشواهق ، مختلفة التيجان ، فى الكرنك ومعبد الأقصر وأبيدوس وسائر البرابى الباقيات وأعمدة المساجد والكنائس والمبانى الشواهق ، إنما تبدو حاملة للأسقف أو القباب ، أو الطوابق المتوالية ، كل عمود وحيد ، كل عمود منفرد ، منغرس فى الأرض فهو من هذه الناحية محمول ، رغم

أن كافة الشواهد تقول إنه حامل لما فوقه ، وما فوق ينوء بثقل آخر ، ما من بناء الا ويفضى إلى آخر ، لذلك تتأكد الحركة ويستمر الانتقال ، من جدار إلى سقف، من مدخل إلى ممر إلى فناء ، من مربع مستقر إلى قبة دائرية ، شاهقة ، أمرها جلل ، تلخص مهابة أروع القباب، المنتقلة دائما ، الزرقاء المرصعة بالغمام ، وبالنجوم السوامق ليلا ، التى تؤكد لنا أن الأمر دائرى ، وما كان دائريا يعنى أن أى نقطة فيه بداية وأيضا نهاية ، لأن النقطة إذا لم تتصل بالنقطة فلن تكتمل الدائرة أبدا ، ولن تظهر ، البداية نهاية ، والأمر بضده ، لذلك كان الحامل محمولا فى الوقت عينه .

ومن الأمور الصعبة اختلاف الحامل عن المحمول ، فإذا كانت الجدران مربعة والقبة دائرية ، كيف يلتقيان ، كيف يولد المستدير من المربع ؟.

لاشىء يستعصى إذا قصدنا الرحيل ، لا شىء يحول إذا بدأ الانتقال، لذلك كان التدرج البطىء مرغوباً ، وفيه حل . وقد رأيت حلولاً شتى ، منها مقابر البجوات حيث يجرى الانتقال عبر الميل المحسوب ، وربما استوحى المعمارى ذلك من فراغات الصحراء الشاسعة التى لايحدها حد وتبدو حاملة للسماء ، والسماء حاملة للنجوم ، والحقيقة أن ما تدركه الحواس ليس كما يلوح للمعاين، الظاهر ، وفى تيجان الأعمدة اللوتسية، والمستوحاة من دلال النخيل حلول شتى أدت إلى ما يعرفه القوم بالمقرنص ، حنيات متداخلة ، متصلة متراكمة فوق بعضها، منتظمة كخلايا النحل، تبدأ بواحدة ، ثم ترحل لتصبح ثلاثة فخمسة فسبعة، ومع كل انتقال يجرى ميل إلى أن تنطلق القبة صوب المركز القائم على فراغ، وهذا من أبلغ الحلول وأبسطها .

هذا كله متعلق بالحامل والمحمول الظاهر للمعاين، المتفحص ، المتابع، سواء اتصل أمره بالبناء مباشرة أو انفصل ، أما أصعب ما كان فما لايبدو، ما كان مستعصياً على الظهور ، سواء فى بناء أفقى أو رأسى، لكن فى كل الأحوال يمكن التمييز بين هذا وذاك . بحيث يصح التعيين، هذا حامل وذلك محمول ، عدا الإنسان فى سعيه ، إنه الحامل المحمول ، تدركه الحواس صامتاً أو ناطقا أو ضاحكا أو شجياً ، فيخيل إليها أنه ماثل ، إما حامل أو محمول ، فى الظاهر ، لكنه كلاهما معاً ، وإذا اكتمل الحامل والمحمول وتعاشقا مندمجين فإنهما منفصلان حتماً ، مهما دام الحفظ وتمكن الصون.

حكاية

عاقبة

فى السنة الألف بعد بناء مجمع الأسرار الذى صار معروفا للقاصى والدانى ومزاراً لكل عابر ، غريب ، جرى احتفال مهيب تليت فيه التراتيل العتيقة.

وجرى النطق بالحروف الحامية، ومشت الأرتال تترى وسجد الكهنة ومشاهدو المعانى.

بعد إمعان وطول تقصى ، أيقن ابن الشمس ، ربيب النجوم ، والملم بالأفق، حور محب، الفرعون الأعظم المتسائل ، أن كل بنيان مهما بلغت متانته، وبراعته ، صائر إلى محو، إلى اندثار . أن كافة ما يقوم حوله، ما يتحرك خلاله، ما يحتجب خلفه ، ما يحيره، ما يظهر من خلاله ، كل ما يقع عليه البصر لا بقاء له . وعند لحظة معينة سيتوارى كل شيء ، طال انتظارها أو قصر .

ألم يتنافس من سبقوه فى ترميم ما تصدع ، ما تقشر ، ما بهت، ما تساقط من أحجار أو طلاء ، ليس من واجهات المعابد ، والساحات المقدسة ، إنما من الاهرامات ذاتها . من حروف الكتابة المقدسة التى خطها الأجداد لتحمى البر وتحوش غضب النهر ، وأخطاره ، وكل مكروه . لكنها لم تمنع عن مداد أجسادها الذبول .

مايرتبط بالبنيان من حكايات صغيرة ، ورواية أحداث ، أبقى وأشمل من رص الأحجار وضبط الزوايا ، والحد من حرية الميل ، وصون القدرة على الارتفاع !

رغم قناعاته التى لم يفصح عنها ، ولم يشرع فى تقليبها ، وتفحصها إلا أثناء أسفاره فى البرارى ، خاصة إلى الواحات الغربية، حيث يدنو المرء من حافة الأبدية ، كذلك عند ركونه إلى الراحة خلال رحلات الصبر ، لاشيء يخفى على الكهنة والمرتلين فى المعابد المقدسة . والمقاصير ، وعقب الحفلات الطقوسية. كذلك مشاهدو المعانى.

الجهر بها عنده تجديف لايدرى عاقبته . ولا يمكن لمؤمن حق أن يخطر احتماله بذهنه ، فليحذر ، مكانته لاتقى، وكل أفق له حد . ما استقر داخله رغبته فى بقاء ذكره، تماما كأسلافه المقدسين ، كأى عابر بهذا الكون، فما ثمة إقامة ، ترديد الاسم يعنى بقاء صاحبه ، لكن .. إلى متى؟، إنه يود استمرار نطق الألسنة به، البناء قد يمحى يوما اسم بانيه، أو يكتب مجهول - لم يبذل جهداً فى تشييده - ألقابه عليه، ما يعنيه التفاصيل المتعلقة بالبنيان، وليس العمارة ذاتها ، أما مدينة الغرب فلم يرد منها خبر يقينى .

ما الباقى؟ إنها الحكاية ، لو انتقلت من عصر إلى عصر ، من ناحية إلى أخرى ، يمكن بلوغها الأقاصى مع الرحالة والتجار والصيادين والباحثين عن مواضع لم يبلغها بشر بعد ، كيف ؟

أمعن وتفحص وخلا بذاته كثيرا . لم يفكر على الاطلاق فى محاكاة مجمع الأسرار ، فلم يشيده الأجداد لتخليد الذكر إنما للاطلاع على الحقائق ، وها هى ذى الفضاءات العليا مستمرة فى احتوائها إلى حين مقدر .

ما يريده مغاير ، مجانب للطرائق ، للقواعد المعمول بها ، لما يعكف عليه الطلبة ليالى متوالية . وبدورات عدة من فيضان إلى فيضان إلى فيضان، استدعى كبير المهندسين ، سيد البنائين، أول من يخط التفاصيل الأولى فى القاعات، ويحدد المداخل والبوابات وأشكال الأعمدة قبل مفارقة مراقدها فى المحاجر الجنوبية المطلة على النهر الأبدى .

«ما أريده عمارة لم تخطر على ذهن ولم يحدث بها بشر .. ليس مهما الحجم ، لايعنينى كبرها أو صغرها ، المهم فرادتها ، أن تكون موضعاً للأحاديث بشتى الألسنة.. »

له أفق الطلب ولمن يواجهه حدود الإجابة ، لكم تساءل ولكم أصغى إلى ما قالوه، وحتى الآن يبدو السؤال الناتج من معاناة وحيرة أصدق وأدل من كل جواب.

بعد إطراقة ذات أصداء ، تماما كلحظات صمت الطبيب قبل إفضائه بالنتيجة للمريض المتلهف ، قال سيد البنائين إن ما يطلبه أمر العالم ، ليس باستطاعته، إنما يحتاج الخيال إلى انطلاقة حية، وهذا يقتضى استعانة بالغض ، الأخضر ، الذى يتبقى أمامه أكثر مما مضى وراءه ، مع وفرة الامكانية ، وازدهار التطلع.

نظرة دالة ، يرتجف منها كل من يواجه حافظ دروب النجوم، العارف بمسارات الضوء الخفية إلى المركز ، ألوان الطيف المؤدية إلى النزل فالقنطرة فمدينة الغرب.

«أمهلنى ثلاثة أيام ...»

إنها المدة اللازمة لإرسال الحمام بالبطائق إلى الجنوب ، بالتحديد أبيدوس ، لم يخل المعمارى الهرم إلى نفسه طويلاً ، إنما كان يعرف من يحتاج إليه هكذا أنبأت خطواته التى يرصدها سيد الأفقين ورفيق رحلة رع الظاهرة نهاراً ، الخفية ليلا، ثلاثة نهارات ، وثلاث ليال ، تلك التى تمثل الحد الأدنى للوصول إلى منف .

بدا الشاب دون العشرين دورة ، متوقد النظر ، يفيض بتطلع صوب الجهات المعنية . والآفاق غير المرئية . قادرا على ترميم ما فسد رغم بداياته ، وتحقيق ما جرى العمل به، وقاد الحضور ، مألوفا للكافة ، غير هياب عند انتقاله من موضع إلى آخر فى القصر ، كأنه وفد على الدنيا هنا .

« كيف تخطط وتشيد المدن ؟ »

لم يجرؤ إنسان غيره من قبل على توجيه مثل هذا السؤال ، غير أن لهجته فريدة ، تقرب ولاتنفر ، تطلع إليه سيد الأفقين محفزاً ، مشجعاً ، عندئذ استأنف:

«كلها ممتدة أفقياً .. سأقيم لك مدينة رأسية..»

لم يخف اندهاشه وإن لم يبده كاملاً ، ليس للمطلع على أسم رع السرى ، المسك بحروفه . الملم بظلاله أن يعجب من أى مظهر أو جوهر.كانت الإيماءة المقتصرة تعنى الإشارة ، ولم يستغرق الأمر وقتاً ، بعد أربعين رحلة ظاهرة وأربعين خفية لرع المعبود ، عرض الأبيدوسى البناء - كما صار يعرف فى القصر وسائر الدواوين - النموذج الذى سيعلو فى الفراغ إلى حد يتجاوز فيه الغيوم التى تأتى بالمطر فى أول الأيام الشتوية .

أثنى سيد الأرضين على ما رآه ، وقال إنه لم يسمع بمثل ذلك ، وأن أمر هذه المدينة سينتشر وتستقر بين العجائب التى يصعب محاكاتها ، لكنه يأمر الأبيدوسى بالتنفيذ من الذاكرة ، هذا النموذج يجب اتخاذ التدابير لإخفائه عن الأبصار ، إنه مختلف حتى عن كافة الرؤى والأوصاف المتخيلة للنُزل المؤدى إلى الغرب. فيما بعد استعاد كبير كهنة آمون تلك اللحظات وتفحصها على مهل ، وتوقف طويلا أمام رد فعل الأبيدوسى الشاب ، بلا شك فوجىء ، لكنه لم يرتبك، انحنى متمهلا ، قبل الأرض مشهراً الطاعة والنية على تمام الأداء حتى اللحظة الفارقة . أمر ممسك رموز الرياح الموسمية باتخاذ اجراءات أدق من تلك المتبعة مع اخفاء ثمين الخبايا، لايعرف إنسان حتى الآن ما تم بالضبط لاخفاء النموذج الدقيق ، العجيب ، الذى لم يسمع بمثله فى مشرق أو مغرب ، ما لم تخبر لفائف البردى بوجود شبيه له ، لا فى أعلى النهر أو أسفله ، لا فى أول البحر ولا آخره إن أدركوا له بداية أو نهاية .

الدهشة كلها فى تجسيد الفكرة والخطة من خلال هذا النموذج، فيه يكمن السر ، ومنه تشع نطفة الخيال ، لم يكتف فقط بتوضيح الخطوط الحاكمة ، أو الأعمدة الواصلة والأسقف العازلة ، والشوارع المفضية من هناك إلى هنا، والمبانى التى تبدو متراكمة وكأنها كتلة متواصلة ، متراصة . لكن يلوح كل منها أيضا وكأنه البداية والنهاية ، لايوجد غيره. لكن عند حد معين من الطريق أو الدرب

المؤدى أو جدار البيت ينفتح فراغ مؤد إلى أعلى ، هكذا تقوم المدينة، كل مرتكزاتها خفية . عصية على الإدراك ، حتى أنها حيرت العالم بمصدر الموجة الأولى لكنه لم يستفسر ، فالسؤال لايصدر إلا عن جاهل وإن كان مشروعا للكافة عداه فى مرحلته تلك ، لم يفض الأبيدوسى ، ولم يوضح ، فقط .. أبدى الهمة.

لم يبهره امتلاء طرقات النموذج بصغار البشر ، بسعيهم وحركتهم، وكل ما يبدون وعند حد معين من التدقيق يمكن تحديد الملامح ، رغم دهشة الكهنة، ودروع السدنة ، وعجب رجال القصر وابتهالات مشاهدى المعانى واهتزاز أصوات المرتلين، إلا أن ما قلقله النقاط غير المحددة التى تمسك هذا البناء الصاعد فى الفراغ.

تردد مرات لاحصر لها أثناء التشييد ، حتى بلغه قلق كبير كهنة رع من صعوده المتكرر إلى الجبل الشرقى وقلة احتجابه ، وتردده المستمر على الحافة المطلة جهة الغرب حيث اختار الأبيدوسى نقطة البداية، مجرد مرتكز صخرى لايتسع لمؤخرة اثنين إذا تجاورا متساندين . من تلك المساحة الضيقة ينطلق الصرح المتين إلى أعلى متحديا كل فراغ، متجاوزا كافة القوانين السارية ، شارع يعلو آخر ، وبيوت متراصة كأحجار مجمع الأسرار فوق هضبة الجيزة. أحيانا تبدو جذوع الأشجار معلقة مؤدية. النهايات تتماس بالبدايات ، بل يجرى التبادل اليسير، فالمفتتح ينقلب إلى مختتم ، وهكذا تصير الأمور على غير ما ألف القوم، وما تسمح به الرؤى.

من بعيد من مسيرة عدة ساعات تبدو المدينة معلقة فى الفراغ ، كأنها تستند إلى فكرة يصعب تحديدها ، وليس إلى أساس ممتد فى الصخور العظمى ، موثق متين مهما بدا من نحوله ، وصعوبة اكتشافه أحيانا.

سريان البنيان فى الفراغ عجيب، وتجاوزه حد الغيوم المطرة اول الشتاء أعجب . أما الاكتمال فمربك لكل من ادعى أو تظاهر ، جاس سيد الكون فى

المدينة على مهل رغم إحاطته بها، ومعرفته بأقسامها ومستوياتها خلال البناء ، استقر معجبا تياها ، بما أنجز فى أيامه ، بيته لامثيل له ، لأول مرة تتلى الأدعية والتراتيل على هذا القرب من مسار الاله رع. لم تكن إقامته لاعجابه فقط بالعمارة الفريدة، إنما لدفع القوم إلى سكناها والسعى فى أسواقها، والتناسل فى دورها، غير أن ما أقلقه ذلك الأبيدوسى الشاب ، ليس لما يبلغه عن إعجاب الكهنة والسدنة والمرتلين وأرباب الفنون وأفراد الحرف المختلفة به ، من الطبيعى أن يسرى اسمه عبر الآفاق الأربعة، وأن يتردد فى الأزمنة التى لن يسعى فيها بجسده ، إنما بناتج مخيلته ، وما جسده ، كم مثله لحقهم هذا الفهم النادر لعمارة الكون ؟

لايضايقه ذلك ، لايقلقه هذا ، إنما يزعجه ما يتوقعه القوم منه، الأبيدوسى مازال شابا ، فتيا ، وما ينبسط أمامه عديد ، أكثر مما انقضى وما يرقد فى مخيلته بلاحصر ، أجنة مدن لم يسمع بمثلها مقيم، ولم يرها راكب مرتحل ، ماذا لو اختطفه غرباء ؟

ماذا لو أرسل أعداء البلاد من يغريه بالهدايا والإناث؟

لم يعرف عينين متوهجتين مثل حدقتيه ، خطاه تفيض ابداعا وخططا ومبادرات تنبئ بكل جديد ، إن وجوده بالقرب منه مقلق ، واستمراره مزعج ، من يشيد معماراً كهذا لايحتاج إلى آخر ليتردد اسمه بعد رحيله إلى الأفق الغربى.

ما أثار خشيته، أنه كلما نظر إلى الأبيدوسى يكاد يوقن أن هذا الشاب الجنوبى يفهم ويقف على كافة ما يمر به ويفكر فيه .

هل يحتاج إليه بعد أن قامت المدينة التى لم يسمع بمثلها أحد . ألم تتخذ سبيلها فى الزمان عجبا وأعجوبة .

ألم ينجز ما صمم؟

ألم يجسد ما تخيله ؟

اتخذ سيد الأفقين قراره . ولم يكن بحاجة إلى النطق به ، أو تدوينه على لفافة بردى سردية ، فمن يسعون بين يديه يدركون رغباته قبل النطق بها . ويتعقبون اتجاه نظراته ليفسروا ويفهموا ويقفوا على ما خطط له .

آمر الرياح لايصرح إنما يومىء ، يلمح ، هكذا تجرى الأمور من قديم وستظل.

عندما بدأ ظهور الأعراض أدرك الأبيدوسى سريان السم البطىء إلى خزانة روحه، لم يرقد ، رغم إدراكه أن البحث عن ترياق عبث ، إلا أنه آثر الخروج إلى الغرب بذاته ، بنفسه، بخطاه ، لعله يبلغ المدينة المرجوة ، التى تتجلى لمن يطلبها، ربما يدركها بعد خطى معدودات ، ربما تواتيه الفرصة ليصمم ما يمكنه إضافة شىء ما قبل الفوات ، لكنه يجب أيضا أن يبلغ رسالته الأخيرة إلى ابن الشمس ، سلم رسالة البردى إلى مُشاهدى المعنى ، هكذا تليت على آمر الصل وهادى الظلال ومحرك النسيمات ، ورغم خطورة ما جاء بها إلا أن ملامحه ظلت ثابتة شاخصة، متطلعا بنظره الثاقب إلى الأفق الغربى .

حكاية

بستان الخضر

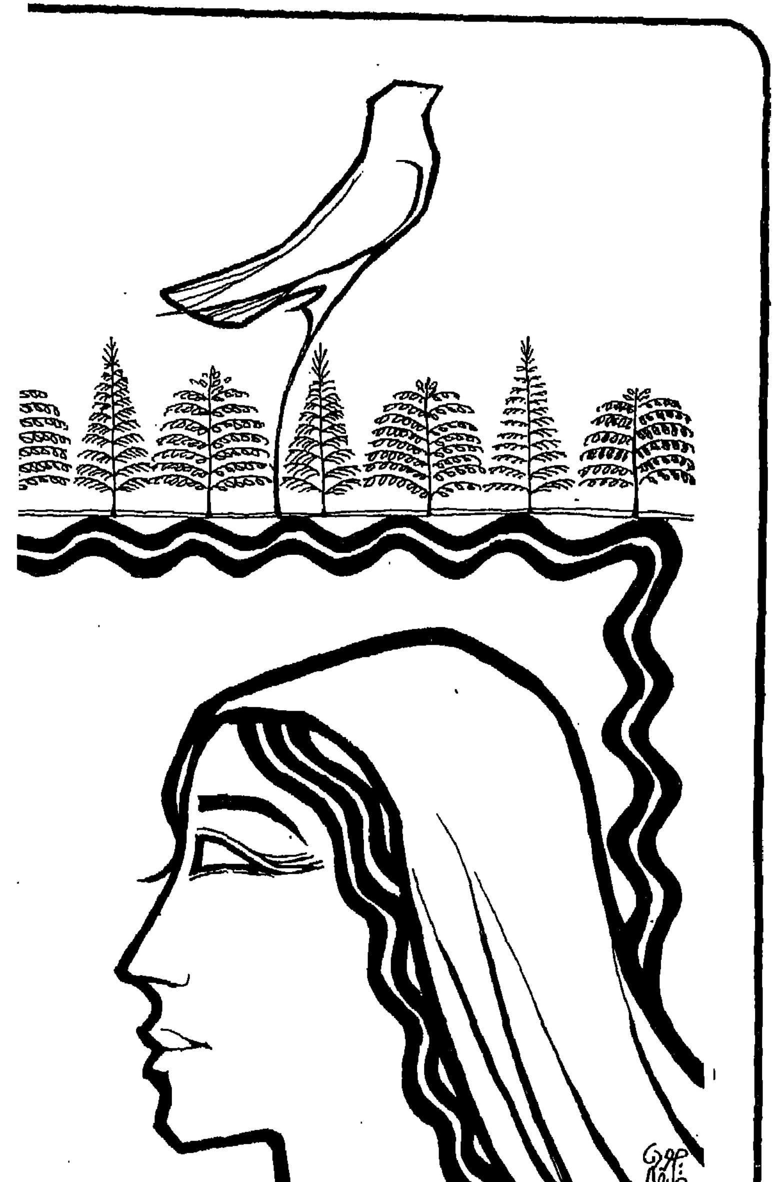

لا تنفد الدهشة مهما استمر الطـواف وطالت الإقامة بالكون المعمور، تأتيه الأوقـات بما لا يتـوقعـه، لذلك تعـجب عندما وصـل هذه الأرض التى لم يطـأها من قبل، يسر بالاكتشـاف مقدار بهجته بما يعانيه ويراه، ذلك أن توقعه للمغاير نادر بعد طوافه وتردده مرات على النواحى والجهات.

توقف ، يعـرف تلك اللحـيطات التى تسـبق دخـوله المدن أو القـرى، منـاطق ومواضع إقامة البشر، ما خططوا له، ما أقاموه، مطلع، ملم على أسماء لا حصر لها من لغات اندثرت وأخرى سارية الآن، تتصل كلها بالمكان، عدا النزل المؤدى إلى مدينة الغرب، لو بلغها لن يطوف أبداً! مقاربة المدن مماثلة لاستشراف خبايا الإناث، حيث لواح الوعود الغامضة، والامكانيات التى يصعب تعيينها، إنه منبهر رغم ما رآه . لم يعرف مثيلا لذلك .

أبدا .. لم ير ما يمكن القياس عليه.

ليست المدينة إلا بناية واحدة ، وحيدة، غير ممتدة، إنما صاعدة إلى أعلى، يمكن رؤيتها على مسيرة سبعين يوماً، لا تبدو للأنظار والأحداق على هيئة واحدة، انما تتغير من مرحلة إلى أخرى، ومن موضع إلى موضع، ومن إنسان إلى آخر، لن ينسى أبدا الأضواء المعلقة، الطالعة، المتوزعة على الفراغ، اشارات لكنها دالة، نهاراً، تبـدو للراكب أو المترجل مستندة إلى اليابسة، إلى صخور المرتفعات المشرفة، وأحيانا كأنها تضرب بجذورها فى فراغ، وعند اجتياز بوابتها الرئيسية فلا ينبىء أى شىء بما ينتظر القادم، الغريب، كأنه يلج بناية محدودة، وحيدة، فى البدء ظن أنه مقدم على دخول بيت أو مسكن.

واجهة البوابة منبسطة ، مائلة، بوابة مؤدية إلى فناء محدود، تطل عليه ثلاثة أبواب تعد بالمرور، لكن عند الدنو يجدها مصمتة، حجرية ، لا تؤدى إلى شىء، غير أن ممراً قصيراً ، منزوياً ، يبدو عليه واعداً مؤدياً .

تقوم البيوت فوق بعضها ، يمكن رؤيتها تفصيلاً ، ويستحيل جملة إلا من موضع واحد لا يدركه أحد ، يكمن فى بقايا قصر ابن الشمس ، الذى يؤكد الجميع أنه مركز المدينة التى يتجاوز ارتفاعها سحب يناير ، حقاً .. إن من يعش ير ، ومن امتد حضوره عبر الأيام مثله ؟ من تقلب على الأزمنة مثله ؟

لولا أنه توصل إلى صيغة ألزم نفسه بها لتحول ما خص به ، ما حصل عليه صدفة وتفرد به دون الخلق كلهم إلى نقمة وليس إلى نعمة! يثق أن البلى يبدأ من الداخل ، ما من مخلوق معصوم ، محصن ، مهما طال به العمر . انهيار المعمار يبدأ من النخر فى الأساس المستتر . غير البادى للنظر . أما تداعى المرئى فآخر المراحل ، لا يعلم إلا الخالق، ذلك المدى الذى يجب أن يقطعه قدماً فى الزمان .

لم يعلن عن هويته قط لمن التقى بهم هنا ، تماما كما جرى فى البلاد والأصقاع الأخرى ، مهما امتدت به الإقامة ، كل الأوقات إلى انقضاء . تقمص مهنا شتى ، وأتقن علوما صعبة . أحب تجارة الحرير من الصين إلى ديار الغرب، عرف كل الطرق العتيقة المؤدية ، وعمل طويلا فى حفظ أجساد الموتى على ضفتى النيل ، وحمل الرسائل المطوية من رجال بالمشرق إلى آخرين بأقصى أنحاء المغرب، وتنقل مع حجاج يسعون عبر المسافات إلى أمكنة بعينها لإرضاء حاجات خفية وظاهرة معا ! ، بلغ كل جهة ، عدا النُزُل المفضى إلى المدينة ، مدينة المدن كافة ، لم يكشف قط عن هويته ، حتى لمن اقترن بهن وأنجب منهن ، ولا أبناؤه الذين أقام معهم ، رآهم عند ولادتهم وشيعهم ، لا يمكنه الآن تذكر أسمائهم وألقابهم ، لو أقدم لكلّ وملّ وضاقت القراطيس. يعرف أن أمره شائع ، وأن بعضهم وضع عنه عدة مؤلفات تتداولها الأيدى ، وأن التفاصيل بلا حصر ، فى كل ناحية ينسب إليه البعض اسما مغايراً ، أعجبه « الخضر » ربما لإتقانه درجات اللون الأخضر ، وراحته عند التمدد فوق الحشائش وفى ظل جذوع النخيل والأشجار ، حقا .. إن من يعش ير !

كلما صعد فى هذه المدينة الرأسية ردد تلك الجملة التى سمعها من معمر مصرى فى جنوب الوادى منذ ثلاثة آلاف عام . سعى قبل بناء مجمع الأسرار ، والهياكل العظمى ، والطرق المؤدية . نطقها بلغة مندثرة الآن . لم يتبق منها إلا بعض حروف فى كهوف عميقة أعلى الصخور الشرقية ، يجهلها أحفاد من حفروها ، وكتبوا بها على اللفائف ، والعظام ، وقرون الوعول ، والواجهات الواقية. هو نفسه لا يذكر مع أنه أمضى دورات عديدة على ضفتى النهر ، وتتبع مساراته ، وتحولات فروعه ، أشقى ما عاناه فى بقائه الديمومى تبدل اللغات وإتقان الفروق بين اللهجات . لكم اجتهد فى المقارنة عند الخلو وتمام الانفراد .

صعد مع البيوت ، وأماكن الراحة العامة ، والعقود المتينة المحنية ، الموصلة ، والجسور المتقنة ، والشرفات العلوية القائمة . كلما انتهى إلى بناء ظنه الأخير يكتشف اتصاله بآخر أعلى ، لم تتغير إجابة كل من سأله عن البيت التالى ، أو الطريق الآخر ، دائما تشير الأيدى إلى أعلى.

من كل بيت يتفرع طريق صاعد . دائما إلى الأسطح . يتم الوصول إليها من الخارج ، لماذا ؟

« لا نعرف .. »

لسكان المدينة خصائص وسمات يندر رؤية مثلها ، إنهم نحاف ، رجالهم طوال القامة ، أشداء البصر ، أما نساؤهم فلا مثيل لهن فى الطراوة ، ولين الأجساد وتنوع القدرة على إثارة الضجيع ، وملوك الوادى لا يتزوجون إلا منهن ، لا يتجاوزهن إلا نساء مدينة المدن ، هناك فى مجمع الجهات كلها . هنا الغرباء ينزلون أماكن محددة ، موزعة على ارتفاعات متقاربة ، لهم المأوى ، والطعام ، والكرم . لكن لا يسمح لأى منهم بالمرور فى أى طريق إلا مرة واحدة ، ولا يقيم إلا ثلاثة أيام ، كل بيوت الإقامة العابرة لا تؤدى إلى منازل أخرى ، محاصرة بشكل ما ، رغم دماثة المقابلة ، وحنو اللفظ ، إلا أن حذرا مخيما على الكافة ،

حتى الصغار ، تصعب الإجابات على الأسئلة ، خاصة ما يتصل بتخطيط المدينة ، ومقر مهندسها الأبدى الذى لم يتوصل إليه أحد ..

« لا نعرف .. هذا ما وجدناه .. »

لكن ، من وضع الأساس الأول فى المخيلة قبل أن يجسده خطوطا ثم حجارة ونقوشاً .

« كل الأبنية ، وجدت هكذا .. »

« منذ متى ؟ »

« من زمن الفرعون المتسائل .. »

« ما اسمه ؟ »

«لا نعرف .. لكنه قديم» .

أى قدم يعنون ؟ كم مقداره ؟ متى بدأ ؟ جال فى الحدائق المعلقة والجسور العابرة لندف الغمام ، التزم بكل ما أبلغ به من محاذير للغريب عندهم حرمة طالما لم يبد المخالفة . غير أن فضوله شب بما لم يتصوره، وما لم يعهده طوال القرون الأولى ، أقام على مقربة من المدينة العجيبة ، وسمع من أهالى القرى والمحلات المحيطة ومن أفراد البريد القادمين من الجهات الأربع مالا يجرؤ أحد على ترديده داخل المدينة الفريدة ، التى تلوح متينة ، ركينة الأوتاد ، ثمة ما يؤكده مكان الخيام فى الصحارى القريبة عن مقبرة المؤسس وما تحوى من كنوز يكل إنسان واحد عن احصائها ، غير أن أصحاب النخيل ورعاته فى الوادى يؤكدون أن الفرعون العظيم لم يدفن فيها . إنما شيدت مقبرته فى الفراغ المنطلق ، مايلى ذروة المدينة، وأنه أوصى بتذرية رماد جثمانه لحظات هبوب الرياح الموسمية حتى يسافر مندمجاً إلى جهات الكون ، لكن الكهنة حالوا دون ذلك واعتبروا تنفيذ هذا كفرا بكل ما ورثه الأبناء عن الآباء ، عن الأحفاد ، وسمع أيضا ما يتردد عن

اختفاء المهندس الشاب الذى صمم المدينة وأشرف على تنفيذها ، كل مقاطعة تنسبه اليها وتؤكد ما يجعله مولوداً بها . متعلما فى معابدها . والخلاف حول هذا الأمر حاد ، غير أن كثيرين ممن يعتد برأيهم يؤكدون أن الشاب لم يدفن جثمانه ، إنما اختفى فى موضع ما من المدينة . ذلك أن الفرعون العظيم قلق بعد افتتاح المدينة ، وانتقاله للسكنى فيها تشجيعا لرجال دولته وأسرهم . هابها القوم فى البداية ثم تنافسوا على الإقامة بها ، خشى أن يتفتق ذهنه عن بناء أروع ، أن يتجه صوب جهة ما ويجسد أعجوبة أخرى ، لكن فى ظل سلطان غريب . حقاً .. إذاكان قد توصل إلى تصميم هذه المدينة وهو بعد فى العقد الثانى . ما البال اذن بعد استواء الخبرة ، وبلوغ المخيلة آفاقا أبعد ؟

لهذه الأسباب وأخرى غيرها دس له السم البطىء ، ويبدو أن المعمارى الحصيف كان حكيما أيضا . نافذ البصيرة ، متوقعاً ذلك ، عندما وهن العظم منه لم يلزم الرقاد إنما شرع فى الرحيل .أرسل لفافة بردى أوصى ألا يفتحها انسان عدا سيد الأفقين ، أكد احتواءها على سر، تؤكد المرويات المتوارثة أن جلالته بمجرد فراغه من الاطلاع عليها نزل عليه غم ، ولم يمكث طويلاً ، لايعرف أحد ماذا تضمنت الرسالة بالضبط، لكن أشهرها يقول إنها حوت نبأ ممضا ، مقلقا حتى الآن ، هذا المعمار الذى يضم فى ثناياه مرتكزات تحميه من الزلزلة أيا كان عنفها، وكل تقلبات المناخ ، وبث فيه مسارب الأمطار المؤدية إلى خزانات بعينها ، هذا التكوين الهائل، العجيب ، يحوى موضعاً صغيراً ، إذا داسه انسان بقدميه ثلاث مرات تنهار البنية كافة .

هذه المدينة الأعجوبة ، التى تخلق ظلالها من داخلها ، وتضىء الليالى بوسائلها ، وتتقى تقلبات المناخ بزوايا مواجهتها للرياح الأربع، ولا تدع قطرة ماء تتسرب خارج خزاناتها . هذه البيوت المتضامة ، المتساندة تعصف بها صدفة، وتنهيهاخطى ثلاث غير مسددة .

تتنوع المرويات وتتعدد الحكايات بين كافة القريبين منها ، المحيطين بها ، المترددين عليها ، غير أن أهلها المقيمين ، ينكرون ما يصل إلى أسماعهم ، ويؤكدون أن المدينة قديمة ، وأن أجدادهم جاءوا من بعيد ، صمموا ونفذوا ، وأقلعوا عائدين إلى سكناهم فى المدينة الجامعة بأقصى الغرب .

كان يصغى إليهم هادئاً . مترسخاً عنده استحالة رد الأمور إلى أصولها، وربط المسارات ببداياتها . عند حد معين كان عليه أن يرحل، أن يفارق ، خاصة مع صعوبة المكث ، واستحالة مخالطة القوم ، والنفاذ إلى اشاراتهم أوعر ، لم يطق صبرا فانطلق !

يم

يهدى من ذاكرته أولا وموضع النجم البراق ثانيا ويقينه الخفى ثالثاً. اهتدى إلى الموضع بعد خمسة عشر قرناً بالحساب الحديث لدورات الفلك، كأن هذا الركن من العالم مصدر دائم ، متجدد للدهشة عنده ، لا أثر للمدينة ، للأرض الممتدة حولها. بقايا الصخور التى أتقن تحديدها وتعيينها مطلة على بحر ممتد تغرب الشمس عند أفقه ، غير أن فطنته ودرايته مكنته من تحديد مسارات الرياح، تأكد أنها لم تتغير .

استغرقه اليم ، تدرجات الزرقة والتقاؤها بالبنى المخصب ، رغم بساطة العناصر إلا أن أسباب الحنو والرقرقة ضافية . مياه وصخور وسماء ضامة، حاوية ، لا غير .

مرة أخرى أنتظر حلول الليل ، عندما أشرق النجم أعاد حساباته وأوضاعه، أيقن أنه الموضع الصحيح . يوقن من حلول لحظة تغرب فيها الشمس ولا تشرق مرة أخرى، يطول ليل بنجوم مغايرة ، يختفى ما يظنه أهل الفلك علامات ثابتة ، ما يهتدى به البحارة وأصحاب الريادة فى دروب الصحارى الغميقة. شهد فى

سماء البحار الجنوبية الممتدة ، ميلاد نجم لامع ، متوهج ، بدا فى أحد الليالى فرداً ، وافداً ، مفاجئاً كان حضوره مباغتاً ،.. ومنذ أن طالعه أيقن رحيله مهما أقام ، للنجم العابر ، غير المقيم مظهر يعرفه . ما يجىء فجأة يذهب بغتة ، وبقدر معاناة الظهور تكون مدة البقاء . جوهر أتقنه خلال بقائه الممتد عبر رحلته القصوى ، وخروجه عن الناموس الانسانى عقب ارتوائه من عين الحياة التى لا يعرف موضعها ، ولا يذكره ، فكم من جرعات ارتشفها خلال رحلاته الأولى . رغم ذلك يوقن بزواله رغم امتداد العمر به ، لا شىء يبقى ، الثوابت زائلة أيضا ، لكن .. إلى متى إقامته هو؟، فى لحظة معينة سيجد نفسه فى النُزُل ، ولن يكون أمامه إلا الانتظـــار .. إلى متى ؟ هذا مالا يمكنه الاجابة عليه ، لا يقدر إلا على السؤل ، وأكثر ما يؤلم الانسان اليأس من الجواب ، يهز رأسه عندما ينفرد ، وتصدر عنه إشارات ، وتتعاقب على ملامحه التعبيرات، لا يحاور نفسه إلا عند عبوره البوادى ، ومكثه فى الفيافى . وقطعه المسافات الفاصلة، لم يسترسل هنا ، كان على حذر . ذلك أنه اكتسب حاسة فريدة تتعلق بادراكه طبيعة الأماكن التى يطرقها وخصائصها ، الأخطار لا تعد، وأخشى ما يرهبه طول البقاء مع العجز، هذا فظيع ، لذلك يتمنى موته واقفاً ، تماماً كما ترحل الأشجار النادرة ، المعمرة، تجف رويدا، رويدا، حتى تهوى بلمسة ريح ، أو استناد شخص عابر مثله إلى جذع يبدو عتيداً متيناً لكنه ينهار عند أول لمسة .

ربما يبدو انشغاله الدائم بالغناء غريبا رغم أمره الشائع ، المعروف عند كثيرين ، المذكور فى كتب الأقدمين ، يتوارثون أخباره وأحواله من موضع إلى آخر ، ومن لغة إلى لغة ، يصغى إلى القصاصين والوعاظ إلى الكهنة ، إلى المنفردين ، العزل، أمره معروف وإن اختلفت صيغ المشرق عن المغرب ، هنا .. له اسم ، وهناك آخر مغاير ، ما تردد حوله جعل موقعه مقدساً بين أديان متنافرة شكلاً، متفقة مضموناً ، يقين خفى لديه أن الأصول كامنة فى تلك المدينة التى

خالفت ما عداها. لكن أبوابها أوصدت فى وجهه ، لكم تمنى لقاء هذا الشاب الجنوبى إذا تعذرت المعرفة فليتبع الأصول الأولى ، لكنه يصل إلى المكان فلا يجد أثراً ، وما كان يابسة أصبح يماً طاماً ، ممتداً ، لمن يروى مشاهداته الأولى ، من يصدقه ؟

إنه مضطر إلى إخفاء هويته، إلى تمويه كُناه، ألا يصرح بحقيقة حتى لأبنائه وأحفاد أحفاده الذين يتوهون عنه ويضلون، ويحيد عنهم ، لو أدرك بعض أصحاب السلطان قبساً من أمره لأذاقوه الويل كله ، ظنا منهم أنه مستحوذ على سر البقاء ، ومغالبة الفناء ، والترحال من زمن إلى زمن ، لهذا كله هو مختف . متوار رغم ظهوره ، بعيد رغم قربه، مهدد بالوصول إلى النُزُل رغم أمنه مما يخشاه البشر ، من خلال الصخور وأمواج البحر وعناصر خفية يوقن بوجود ظلال ما للمدينة المندثرة ، إنها قائمة مثله ، حاضرة فى الفراغ رغم فنائها وتغير معالم الطبيعة ، لكن ثوابت النجوم دالة . عبر لحيظات تقع بين النوم واليقظة أدرك أن ثمة من ينظر إليه . قام بغتة.

رجل يصعب تحديد عمره ، لكنه فى العنفوان ، هادىء ، مرتكز إلى ركبته يشير إليه مطمئنا ، ينطق ألفاظا يصغى إليها للمرة الأولى، مر به ذلك كثيراً ، حروفها متشابهة ، إيقاعاتها متقاربة .

يمد يده ملامسا الكتف الأيمن .

علامة ما ، يمد يده بدوره ملامساً الكتف الأيسر .

تعود الابتسامة إلى ملامحه ، يقف ، يستدير داعياً له أن يتبعه، هكذا بدأت الصحبة ،عبرا صخوراً متصلة ، لايشذ ارتفاع بعضها إلا قليلا ، تتدرج صاعدة نحو واجهة عريضة حمراء اللون تتخللها فجوات، فتحات مؤدية إلى كهوف تختلف اتساعاتها ، كلها مطلة على البحر مشرفة عليه ، بعضها متجاور ، مداخل فسيحة، مرتفعة ، وأخرى لا يمكن عبورها إلا زحفاً .

. جاء القوم ، تجمعوا حوله . شـابات مشرعات النهود ، عجائز يسددون البصر تجاه حضوره ، مقطبين ، متأملين ، لا يجمعهم أى شبه بأهالى المدينة الأولى .

بعد اكتمال القمر بدراً سبع مرات، نطق بالألفاظ الممكنة ، لم يكن هناك معلم أو لغة مقاربة ، لكن.. الفضل يعود إلى هذه البنية ، العفية، الشابة ، اختارته ، عندما تحلقوا حوله وطال وقوفهم تعجب وخشى ، فيما بعد أدرك أنهم كانوا يتفحصونه ، ينتظرون إعجاب احداهن به . الرجل هنا يجب ألا ينام بمفرده ، خاصة إذا كان ضيفاً غريباً حل بهم ، أو أسيراً ، أو سجيناً ، يوازى ذلك عندهم الكفر، إذ يعنى مبيت القادر، البالغ بمفرده إهدارا لفرصة اثراء الحياة بمخلوق يجب ألا يحول أى شيء دون مجيئه إلى الكون .

ماذا يربط أهالى هذه الصخور ، تلك المغارات ، بسكان المدينة الأولى ؟ كان سكانها مشغولين بالموت ، حتى ليذكر بدهشة حزن الوالدين وفرحهما فى نفس الوقت لوفادة مولودهما ، الفرح لاكتمال ظهوره ، والحزن لبدء النقصان ، لبدء العد التنازلى صوب تلك النقطة التى لم يرجع منها أحد حتى الآن. وعندما يكتمل أجل المرء يصحب معه كافة ما يمت إليه من أشياء .

هؤلاء القوم يعيشون على صيد البحر ، يمتلكون أربعين قارباً مختلفة الأحجام، يتوارثونها ، يبذلون من أجلها الجهد والصيانة .

«منذ متى أنتم هنا ؟ »

قالت الصبية، الدافئة ، المزهوة.

«منذ ظهور الشمس والقمر ..»

ثم قالت وأناملها تودع أثرا لم يمح من حواسه لأزمنة متعاقبة .

«من قديم .. لا نعرف أرضا أخرى أو شاطئا آخر لهذا البحر ..»

يصغى متدغدغا بالود ، بالنشوة ، ممتننا لها لأنها اختارته ،عندما تقدمت نحوه ومدت يدها إليه بمحارة صغيرة ، علامتهم المتفق عليها ، منذ اشارتها صارت له ومضى إليها ، لو رفض .. عليه مفارقة الموضع كله ، لا تحل له إقامة أو صحبة ، الأنثى هنا لا ترد ، قولها فصل ، إليها ينسب الأطفال .

الحق .. أنه لم يعرف فى رحلاته مثل تلك الصبية ، قوية الطلع ، ناعمة مطواعة ، رغم أنه أزال بكارتها إلا أنها حوت ميراث إناث الكون كلهن ، كأنها امتداد لرغباته ،تجسد ما يهوى قبل نطقه به أو إعرابه عنه ، لم يعرف رياً ورضا وسكينة وقدرة على الإصغاء كما عرفه هنا فى ذلك الكهف الصغير ، المشرف ، المطل على أليم.

«من سواها هكذا ؟ »

«الرياح والنجوم ...» .

«أحقا ؟ »

هل يمكن للطبيعة أن تبلغ هذه الدقة ؟ ، اكتمل القمر ستين مرة وصحبتهما مكتملة ، لم يعرف الضيق ، ولم ينل منه الضجر ، وظن أن اكتمالهما باق ابدا ، هو الموقن من فراق كل حى !

لم يكف عن تنسم ما تبقى من المدينة الرأسية ، كانت تحفظ حكايات عديدة ، وعندها قدرة على وصف ملامح الوجوه لحظات مواجهتها للبحر، مرة توقف وحاول جاهداً اقتفاء مالا يمكن إدراكه بالحواس ، عندما قصت عليه نبأ النابغة الذى شيد داخل هذه الصخور مغارة لا مثيل لها ، ليست من صياغة النسمات ونخر الموج وايقاعات الزلازل ، لكنها من نتاج تفتق عقله وعشقه للحجر ، بعد أن فرغ أدرك شيخ الناحية أنه يمتلك شيئا لا مثيل له . وأن المخيلة التى نتج عنها هذا التكوين يجب أن تصمت إلى الأبد ، ويقال إنه أوقفه ليلا ، وألقاه فى البحر ، وأن

صرخاته تسمع فى ليالى المحاق رغم بلوغه النُزُل وعبوره إلى المدينة التى لم يرجع أحد منها لينبىء عن قبس مما تحوى .

بستان

أولج فى الزرع قبل بلوغه المدينة التى سمع بوجودها على مسيرة أسبوعين . أشجار كثيفة ونخيل باسق ، وزهور ، ألوان منغمة ، وعبق ليمون ، أطياف نعناع ، وظلال تين عسلى ورسوخ نخيل ، وتربة سوداء غنية ، قديمة ، طبقات متداخلة ، تنبىء بعتاقتها ، ودموع أحبة غامضة ولحظات مولية ، جد نائية ، عبير النهر القريب سارى، مضوع ، حشائش كثيفة ، ناعمة كالقطيفة الصينية ، يطأ مهادها، يتجاوزها فتشرئب من جديد وكأنها لم تنثن قط .

جذوع الأشجار تحتوى الأزمنة ، والأوقات تحيطها . تلك التشققات، اللحاءات الخارجية ، الفروق فى الألوان ، ما بين فاتح وغامق وداكن امتص حرارة الشمس، منبىء بالرسوخ ، ما بين الجذور والأغصان القصية يتنقل بصره ، كم من باسقات عاينها وأغفى تحتها واستظل بنعومتها . عرف أسماء البعض من القوم ، ما لم يعرفه منحه أسماء وعلامات لم ينسها قط . حتى إذا رأى نبتة فى أقصى المغرب وصادف مثلها فى نهاية المشرق يجرى المقارنة على الفور .

هذا البستان الشاسع ضمده ، وهدهده ، وأتاه بكل جميل، أسماء وعلامات وخطى مشاها وضمات ارتقت إلى توحد نشوى بديع . هنا سعى وأقام . المرة الأولى فى المدينة الرأسية ، والثانية فى مدينة الماء والصخر . ما أعجب وأغرب ، حوالى خمسة عشر ألف عام مما يعدون . كأنها سويعات ، أو لحيظات استغرقها

توارى ظل علامة على استمرار دورة الفلك ، كل ما مضى يتساوى، وكذلك ما تبقى!

عندما سمع بخبر انبستان فى ديار قصية ، وأدرك من دقة الوصف عين المكان، استفسر عمن خطط له ونثر بذوره ، وتعهد بالرعاية ثمار أشجاره ، قيل له إنه قديم ، لا يعرف أحد من أنشأه بالضبط ، لكن تقول بعض حكايات الرحالة والمسافرين لأغراض شتى أنه لم يتبق منه إلا مستوى واحد . ذلك أن النبات والزهور والأشجار كانت صاعدة إلى أعلى تتجاوز السحاب ، وأن الغرس كان يتم فى الغمام ، كيف ؟؟ .

لا أحد يدرى ، من شيد تلك البساتين المعلقة اختفى ، قيل إنه جاء من كوكب بعيد ، أمضى زمنا مع صحب له . أنهوا مدتهم ومضوا بعد أن تركوا علامات . أشهرها هذه الجنائن التى لم تجد من يهن بها ، وقالوا إنه مهندس ذو بصيرة ونفاذ ، كان يمكن أن يملأ الدنيا شواهد باقية ، ومدنا محفورة فى الصخور ، وطرقا وبنايات فوق السحاب ، غير أن من كلفه بإنشاء تلك الحديقة الصاعدة بغير عمد قتله لسبب ما . أمر بإلقائه من آخر نقطة مرتفعة وصل إليها البستان .

لماذا ؟

لا أحد يدرى .

لا أحد يقطع ، غير أن ما يراه ، ما يجول فيه مجرد بقايا ، عدة أيام يمشى متمهلا ، مسرعاً ، متأملا ، لم يلتق بأحد ، ولم تلح نهاية أو نقطة يمكنه بلوغ النهاية عندها .

يتوقف عند أشجار الصبار ، أنواع لم تجتمع فى مكان واحد ، يعرفها من خلال طوافه الطويل ، منها المستطيل كالعصا ، والأوراق الصغيرة ، المتفرقة ،

كرات متماسة ، كأنها تتوالد فى لحظات متعاقبة ، رأى كلا منها فى موضع ينأى عن الآخر مسيرة أعوام ، كيف تجاورت هنا ؟

لابد أن أيدى خبيرة . حاذقة رتبت الأوضاع هنا .

متى ؟

لا يمكنه سماع الاجابة ، حتى لو التقى بالعديد من البشر . يتوقف أمام أنواع شتى من الزهور ، من الأشجار ، يقترب مبتسما لتلك الأغصان النحيلة ، الحاملة لأوراق خضراء . رقيقة كالحرير . لم يطالعها-إلا فى مكانين متباعدين ، الأول جزيرة فى بحر الصين الجنوبى ، واحدة من الجزر التى تشرق عليها الشمس أولا . والثانية جزيرة أكبر مساحة فى البحر القريب ، يتوسطها بركان شهير ينفث جمرا سائلا كل خمسين سنة . نبات له خاصية غريبة ، إذا توقف أمامه مخلوق ما يبدأ انكماشه وتراجعه ، إذا لمسه أحد تنطوى الأوراق حتى لتصبح خيوطا رفيعة ، يستمر فى التلملم ، فى الانكماش حتى يتحول الغصن بأوراقه إلى نقطة صغيرة تدرك بصعوبة ويتردد أنه يوجد بكثافة فى مدينة الغرب. للأشجار حواس ، وللزهور لغات ، وما يعرفه البشر الساعون ، الواعون ، تدركه تلك الاغصان ، وهذه الجذوع . والجذور الضاربة ، عرف بشرا أقاموا ومضوا ، تخاطبوا وعلموا أبناءهم واحفادهم لغاتهم ، غير أن ألفاظ المخاطبة اندثرت ، كأنها لم تنطق قط ، لكن لهجات الرياح ولغات النبات لم تتبدل .

لكم تابع مظاهر التحول والتغير ، وأن يسمع المرء بالتقلب شىء وأن يعايشه أو يمر به أمر آخر تماما ، ما من علامة توقف عندها مثل رسوخ الأشجار ، خاصة النخيل ، بل إنه ارتبط بعدد منها فى أماكن متفرقة من الأرض ، يحرص فى طوافه على الوقوف أمامهم ، وتذوق ثمارهم إن أمكن ، رغم إدراكه أن ما يراه من

أشجار مغاير لما رآه من قبل آلاف السنين . ما من أجل ممتد ، لكل شيء من ناطق أو صامت مطلع وحد ، يقين راسخ عنده ، رغم سريانه آلا أنه موقن بلحظة ما تخصه ، بعدها يلج العدم ! ، رغم يقينه إلا أن النخيل يمثل عنده الأبدية ، الثبات فى مواجهة القوى الطاوية والرمال الكاسية ، كأنها شربت من عين الحياة مثله ، غير أنها باقية ما ظلت الدنيا ، وهو محدود بوصوله فى طوافه إلى مدينة الغرب ، لا يعرف متى يمكن أن يقع ذلك ، ربما بعد خطوات معدودات ، أو بعد مرور قرون تتغير فيها العالم وتتبدل القسمات . رغم حذره فإنه تواق لبلوغ هذه المدينة العجيبة التى تتناقض أخبارها وما يروى أحوالها ، إلى حد أن كل عنصر ينفى الآخر .

يتمدد .

تحيطه ، تحنو عليه الأغصان الكثيفة ، أصدق وأشف الصور ما يرد خلال رقدة فى ظل دوحة عتيقة أو أرزة راسخة ، توحى بالأزلية ، وتحتوى الحيوات كلها فى عناصرها المكنونة .

يرهف السمع إلى الحفيف ، إلى الهسيس ، إلى الزئير ، العواء والهمس والجهر ، يثق من قدرته على التقصى الطـــويل ودقة الامعان كم لغة بدت فى المفتتح عصية ، لكنه مع الإقدام والتغلغل ، والتقصى نفد وبرع وتفنن .

كيف لم يشرع من قبل فى اتقان لغات النبات؟، يعرف الآن أحاديث بعض الطيور ، يفهم حالات أساها وتوقها وفرحها ، لقنه أسرارها قوم من أهل المغرب الأقصى ، تخصصوا فى تعلم ألسنة الطيور ، واستقبالها كل سنة عند مجيئها من البرد إلى الدفء ، وتلقى أسرار جمة عنها ، خاصة ما يتصل بالنُزُل المؤدى ومدينة الغرب .

راحته فى ادراكه أمورا لم يعرفها بعد ، يقينه ببقاء ما يجهله يصغى، يغمض عينيه ، أرض وثيرة بطرحها الوفير من الحشائش القطيفية، المكان عينه ، لكنه ليس هو ، يتوق إلى من يحدثه عن المدينة التى رآها وجال بها زمناً ، وإلى خطو تلك البنية الفارهة ، رقدا هنا ، عند موضع ما من الناحية التى كانت موزعة ما بين اليابسة والبحر .

أين ولت ضمتها ؟

أين وثارتها ، وحنوها عليه ، أين ؟

أين تمليسها عليه؟ ، ما يفتقده فى كل بنات جنسها ، سائر من عرفهن بعدها ، أغداق اللطف من أصابعها ، فرشها نظراتها ليرقد ويتمدد ويفض أحماله الثقيلة .

لا تتوهج نصاعة التذكر إلا من خلال أنثى ، إذ تلمسه يتشبث بها ، ذات عصر امتزجا ، تعلق كل منهما بالآخر خلال إبحارهما صوب لحظة التذرى والأوج ، تعاونهما على رشقة الحياة التى يعقبها همود ، البقاء والفناء معاً ، دفعت بصدرها نحوه ، نفذت إليه بكلها ، ارتداها وتلفحت به ، وحتى الآن لم تنأ عنه ..

مصطلحات

فنـــاء

كل فناء خلاء ، حتى إن حده سور أو أحاطت به عمارة أو أحدق به بنيان ، لا يقوم خلاء بدون امتلاء صب أصم، الأمر هنا قديم ، فالشيء لا يبرز إلى الوجود إلا بضده .

الأصل فى الكون خلاء ، وهذا له شروح مفصلة فى كتاب البوابات المنقوش على جدران مقابر وادى الملوك ، والبوابات المعنية مقصود بها ساعات الليل والنهار . كل ساعة مفضية إلى أخرى ، وهذا عبور دائم من نقطة إلى أخرى ، ومن لحظة إلى لحظة كل باب مؤد وإلا انتفت صفته أصلاً ، سواء كان اجتيازه إلى داخل مصون ، أو إلى خارج مستباح .

كل باب مفض إلى خلاء ، محدودا كان أو مطلقا ، وكل خلاء محصور مهما بلغ مداه ، لأن بلوغه يعنى الوقوف عند نقطة بداية وماله بداية لابد له من نهاية .

كل خلاء نعرفه ، نجتازه ، نقطعه ، إنما يعد استحضاراً للخلاء الأعظم، اللانهائى ، للكون غير المدرك كله ، فما نعرفه منه بالإحاطة أو العلم مجرد هشاشة .

الأمر قديم ، سابق على تشييد مستودع الأسرار المعروف بالأهرام ، وقبل التوصل إلى الأبواب التى لا تؤدى إلى شيء وتتصل بكل شيء ! ، بل يمكن القول إن القوم توصلوا إلى الأمر ثم جرى تفسيره ، أو بتعبير أكثر دقة ، فهمه ، وكثير من الأمور تبقى دلالاتها كامنة ، خبيئة ، حتى يجيء من يكشف ويفسر فيشرح الأمر ويتم تيسيره ، هل أضرب لكم مثالاً؟ لكى تقام غرفة لابد من جدران وسقف، سواء كانت مربعة أو دائرية أو مستطيلة ، ليست الجدران إلا مقابلا للجهات الأربع الأصلية ، ولما كان الانسان فى بداية سعيه وتمام إقامته على جانبى النهر الذى حفر مجراه وأتم دربه عبر قرون لا يمكن احصاؤها بدقة ، كان يتطلع

إلى أركان الأفق ، ويرى السماء المنبسطة ، المحمولة على الجهات غير المرئيـة ، وعندما أراد الكنة ، الإقـامـة ، تدرج الأمر من السـعى عبـر الفراغ الكبير إلى الفضاء المحدد ، المقدر ، لذلك كان لابد من استحضار صورة الكون ورموزه ، هذا أمر لم يتوصل إليه القوم بين ليلة أو أخرى أو بين سنة والثانية ، تقول البرديات القديمة إن أمنحتب هندس البناء ، وصمم المصطبة فوق الأخرى ، ورسم حدود المدخل ، والممر ، والفناء ، لكن أمنحتب الذى كان عالماً وطبيباً وجراحاً ماهرا ومهندساً وفلكياً ، لم يكن بداية ، إنما هو ثمرة لما قبله ، وربما لم يوجد قط، ولم يسمع رغم الإشارات غير المتناهية إليه ، وتحوله من بشر عادى فى الدولة القديمة إلى اله معبود فى الحديثة ، قرب تمام نهاية الزمن الفرعونى المرئى قبل بدء تحول رموزه وتغليف دلالاته واستمرارها تسعى حتى يومنا هذا ، سواء كان أمنحتب حقيقياً أم رمزاً ، اسمه يشير إلى أسماء كثيرة ، وخبرات مجهولين متراكمة ، المهم أنها أدت إلى نتائج محددة ، تتجسد حولنا وفوقنا ، فى نواظرنا وأحلامنا ، ماذا يعنى أمنحتب ؟ صحيح أن للاسم قوة ، لكنه يشير أحيانا إلى معنى ، إلى جهد ، إلى حكمة ، إلى خبرة ، ليس من الضرورى ارتباطها بصاحب الاسم ، انما الأمر كله متبدد ، وهنا أمر دقيق يتصل بمعان أخرى ليس هنا مجال شرحها ، ما يعنينا أن أمنحتب أدرك معنى الفناء ، لم يوجده ، إذ كان ماثلا قبله ، لكنه أحاط بمعناه .

كل بناء يتضمن محاكاة ، والنموذج الأصلى ، الأعم ، ذلك الكون الفسيح الذى لا تقطعه الأسفار ولا تطويه المسافات ، ولا تحيط به الأفهام ، وثمة قائل يزعم أن هذا الكون كله ربما لا يكون إلا مجرد عتبة مؤدية إلى أكوان أخرى ، أى أن ما نظنه فناء ليس إلا عتبة موصلة ، مؤدية إلى أكوان أخرى لا نعلم عنها شيئا ولا ندرك من صفاتها أمراً ، ربما يتخللنا بعضها ، يتجاور معنا ولا ندرى . أى أن ما

نظنه فناء ليس إلا عتبة موصلة إذا كان كل بناء استحضارا وتمثيلا لأصل غائب ، فالجدران للجهات الأربع ، والسقف للسماء مسطحاً كان أو قبة ، اذن .. إلى أى شيء يرمز الفناء ؟ .

باختصار دال ، يمكن القول إنه يشير إلى الفراغات الكونية وما الوجود السحيق ، الساحق إلا فراغات هائلة تتخللها حجرات أو نجوم أو كويكبات أو مذنبات حائمة أو أجسام ضالة ، وما هذه الأجرام كلها دقت أو تعاظمت حجماً إلا نثار .

الأصل هو الفراغ ، والمنتهى أيضاً ، إنه الهو اللامتناهى ، ولما كان الانسان يحن إلى البداية دائماً ، لذلك دأب على استحضار ما كان أو تمثله ، ولنضرب مثلاً لعل الأمر يتضح .

ألا يبدأ التكوين فى الرحم ؟ مجرد بذرة يظن الناظر اليها أنها هامدة ، جامدة ، لكنها تموج بحياة وحركة تتضمن كل ما كان وسيكون ، ينمو الجنين فى وضع يتلاءم مع الحيز المحيط به ، منحنيا على بعضه ، ويلزم هذا الوضع أثناء نومه حتى يرقد الضجعة النهائية ، وقديماً كانوا يهيئون الجسد فى رقدة مشابهة عندما يأوى إلى الرحم الأشمل ، إلى الأرض ، جرى ذلك لآلاف السنين قبل أن يقع تطور مجهول المصدر عندما تحولت الرقدة الأبدية إلى الاستقامة التى تكفلها اللفائف الموميائية ، يحرص المرء على اتخاذ موضعه فى حيز محدد لكنه يحوى فراغاً حتى إذ كفت ركضات القلب عن التتابع ، وتوقفت الأنفاس ، أحيط بما يلغى الفراغ ، لكنه هو ذاته يبدأ اندماجه النهائى فى ذلك اللانهائى ، غير المحدود .

ليس الفناء إلا استحضارا لهذا الفراغ المرئى ، أو غير المدرك . يقوم البناء فى شتى العصور منتظما حول فراغ محدد ، وفى العصور القديمة ، على ضفتى النيل ، وفى المدن الوليدة فى الصحارى الشاسعة ،

قامت الصلة المباشرة بين الفراغ والامتلاء ، ينتظم البناء معبداً كان أو قصراً للفرعون ، أو بيتاً لفلاح فقير حول فناء ما . تختلف مساحته أو شكله ما بين تربيع وتدوير أو استطالة ، لكنها تحفظ الصلة وتقيمها ما بين الأرض والسماء ، ما بين محدودية الإقامة وشسوع المدى المرغوب اجتيازه ، ما بين الثرى المبثوث والنجوم العالقة والهسهسات الحائمة . مهما بلغ جمال الداخل لابد من احتياج إلى الخارج .

تنتظم الدروب ، وتنثنى العطفات ، وتقوم الأقبية ، وتفضى الأزقة إلى الشوارع ، وتصب كلها فى الميادين ، إنها أفنية المدن ، كل ميدان فناء ، تنتهى عنده طرق وتبدأ عنده أخرى .

تكتمل المدن لحاجات فى نفوس المقيمين بها ، أو الساعين إليها ، أو أغراض أملت على أصحاب الريادة انشاءها ، تبدأ المدينة من نقطة وتنتهى عند نقطة ، من بوابة إلى بوابة ، وكل بوابة اجتياز حتى لو كانت وهمية . تنأى المدن عن بعضها ، وما بينها أفنية ، كل مسافة فاصلة بين مدينة وأخرى فناء ، ترصف الطرق وتسوى الوعورات ولا يمثل هذا الجهد إلا قطع فناء مفض ، كل خلاء فناء ، اذن كل فناء أصل .

وفى لحيظات استغراق عميق ، عتيق ، استحضرت صوتاً لأنثى شاكية ، بنية دقيقة ، هائمة الروح ، كان لوالدها بيت على هيئة مربع ، بابه ضئيل المساحة ، لكن عبوره ينقل إلى عالم مؤطر بالحنية والقدرة على قطع الأيام بهدوء الحال ، والأمتنان ، واقصاء الخوف بأشكاله كافة ، غرف البيت تنتظم حول الفناء المرصوف ببلاطات ملونة ، تتوسطه نافورة تبث الماء فى سلاسة ، لم يكن هذا الفناء إلا مرتكزها ومنطلقها إلى النجوم السارية والتى حفظت مواقعها وطلاتها منذ طفولتها ، وأتقنت تعيين حركتها ليلاً ، إلى أن حان أوان زواجها ومفارقتها بيت والدها .

وعندما وصلت بيت زوجها الثانى وقعت بصدرها عكمة ، كان قوم زوجها يقطنون جبالا مرتفعة يحفرون بيوتهم داخلها ، أو يتخذون من الكهوف القديمة مأوى بعد تنميقها وتنسيقها ، وجرى عندها حنين إلى النجوم ، وصارت تشكو ، لكن دموعها لاحت غريبة ، مستعصية على الفهم ، وفى ليلة تسللت إلى الفراغ ، تطلعت إلى النجوم الثلاثة الماثلة ، الممتدة على خط مستقيم ، من خلال حركتهما كانت تعرف الوقت وتعينه ، تلقت ذلك عن جدتها . طال تحديقها ، وطال مكثها . وطال البحث عنها ، وكان توحدها ، بفناء الكون فسيحاً ونهائياً وكان والداها إذ يتطلعان من فنائهما المحدود يثقان أنها ترقبهما من موضع ما .. هناك !

حكاية

غمامة

إنها شرفة الأرض المعمورة على حدود السماء المجهولة ، المرفوعة بغير عمد ، المنبسطة إلى أبد .

هكذا رأى عقبة بن نافع هذا الموضع الذى اختاره لبناء المدينة الجديدة مدينة حملوها داخلهم . حلموا بشوارعها ونواصيها وأسواقها عبر دروب البادية التى قطعوها بعد خروجهم من مصر قاصدين الغرب . لم يلجأ إلى الطريق المحاذى إلى البحر . ما أسهله ، لكن .. ما أخطره أيضا ، سفن الأعداء تجوبُ البحر ، وتهدد الشاطىء ، لذلك كان ولوج الصحراء ، الاقتراب من بعيد .

لايعرف قيمة اللون الأخضر إلا من فاض بنقيضه ، وحشة الرمال ، وثقل الكثبان ، ولا نهائية الأصداء المرسلة ، أحراش ؟ ، نعم .. لكنها متواصلة ، رطبة ، تمهيدها ممكن وتسويتها سهلة مهما كانت المشاق ، لم يقع اختياره على الموضع إلا بعد أن جاس واطلع ، توقف وأمعن ، ثم انثنى إلى هذا الموضع ، قيل له إنه مسكون بالأفاعى والعقارب والهوام ، عندئذ تقدم صحبه منفرداً ، صاح مخاطباً من لايفهم لسانه ، صاح :

«أيتها الحشرات والسباع ، نحن أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فارحلوا عنا فإنا نازلون فمن وجدناه بعد قتلناه ..» .

تناقل الناس والرواة فيما بعد ماجرى ، عندما فوجىء القوم باندفاع الحيات ، والضباع والثعالب والعقارب وسائر أنواع الوحش والحشرات ، بهر بها ، لكن بعض رواة الأخبار وكتاب التراجم يصفون اندفاعة عقبة التى أعقبت صيحته ودعاءه ، لم يكن هياباً ، أو متردداً ، كان يخطو دائما باتجاه موضع مغيب الشمس ، غازياً ، مجاهداً ، ناشراً العقيدة ، قال لصحبه إن الدين الجديد لن يثبت إلا بعمارة النفوس والبنيان فى تلك الأصقاع النائية ، هكذا نصب خيمته على حافة الأحراش التى صار ينزلها نهاراً ، ويعمل بنفسه فى تمهيدها وتسويتها .

وجد فى المكان مالم يجده فى غيره ، ذلك الانبساط ، وتلك اللانهائية ، وحضور الحافة ، زرقة السماء صافية ، تجعلها دانية ، وغماماتها تهدهد الذوات ، أما بعده عن البحر فضرورى للسكينة وعكوف أهل العلم والتحرى .

ثلاثة شهور قمرية لم يفارق فيها الموضع ، وبعد أن جرى تمهيد رقعة تماثل مساحة فسطاط عمرو ، استدعى بناء مصريا وميقاتيا جهنيا، قال لهما إنه سيقيم مسجداً فى القلب كما جرت عادة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنه يريد بناءً بسيطا ، متيناً ، تمر عليه الدهور ويمر عليها ، فالموضع هنا حافة ، شرفة على الصحراء ، وبوابة مؤدية إلى الأزمنة المنقضية والتالية ، إنه مكان ، وسط . وقد جاء من صحراء مكة ماشياً على قدميه فلم ير موضعا تقترب فيه السماء من الأرض كهذه الناحية ، وهذا اعتبار جلى ، غير خفى ، متضمن فى الاختيار .

ثلاثة أيام أمضاها كل من السكندرى والجهنى ، يخططان ، يرسمان ، يشرعان ، كل منهما بمفرده ، بمنأى عن الآخر ، غير أنهما عندما اتجها إلى خيمة عقبة ومثلا بين يديه واحداً اثر الآخر ، البناء فى البداية والميقاتى بعده ، قال كل منهما عين المضمون رغم أنهما لم يتفقا مسبقاً، ولم يلتقيا ، ليس لأن مهمة كل منهما مغايرة تماماً ،إنما لأن عقبة أراد ذلك . لهذا تعجب عندما أفضيا إليه بعزمهما على أن يتضمن المسجد مالا يوجد فى أى بناء آخر ، قال السكندرى إنه أعد نموذجاً من الجلد المتقن ، سيعرضه غداً بعد شروق الشمس مباشرة ، وقال الميقاتى إنه انتهى بالفعل من تحديد دقيق لاتجاه القبلة كذا مواعيد الصلاة يوما بيوم على مدار السنة القمرية ، آخذا فى الاعتبار حركة الأفلاك وأى تغيير يطرأ عليها بدءاً من اليوم ولمدة ألف ألف سنة مالم تقع حوادث مفاجئة ليست فى حسبان بشر ، وعندما استفسر عقبة عن المعنى الكامن وراء ذلك ، قال الجهنى إن ذلك بتقدير العزيز العليم .

أطرق عقبة ، أصغى إلى الجهنى ، وعده أن يعلن ما سيتفرد به المسجد بمجرد رؤية النموذج صباح الغد ، هكذا اجتمع القوم ، عقبة وأركانه ، قعدوا على شكل دائرة مفتوحة تتيح للقادم أن يدخل إلى مركزها . هكذا وقف السكندرى وخارج الدائرة الجهنى ، كشف عن اللوح الخشبى المنبسط ، فوقه مصغر المسجد ، سور وفناء مكشوف ، وآخر مغطى ، وصومعة لم ير عقبة مثلها ، مغايرة لتلك القائمة فى ركن مسجد عمرو بالفسطاط ، فيما بعد قال أحد مساعديه من أبناء الناحية وكان قد تردد على مصر كثيراً ، ومدخله إليها مدينة الإسكندرية ، إن الرجل إنما اقتدى المنارة الكبرى التى بناها ذو القرنين ، وتعد من عجائب الدنيا السبع غير أن ما أعلنه السكندرى من إضافة متفردة جعلت الصومعة متميزة بخاصية لاتوجد إلا فيها ، استوحاها مما سمعه يتردد عن مدينة الغرب المتنقلة . ذلك أنها عكس كل بنيان فى المعمور ، كلما ابتعد عنها الإنسان ونأى كلما رآها البصر أطول وأسمق، يستوى الأمر بالنسبة للقادم من بعد قصى ، أو الخارج من المدينة ، المولى بعيداً عنها . وسيظل تعيين ارتفاعها صعباً ، غير مدرك بالدقة ، بحيث تبدو لكل متطلع فى حجم مغاير ، لمئات السنين المقبلة ستظل أعلى نقطة فى البر المحيط والبحر الواقع على مسيرة يوم وليلة ، ما من منارة كهذه إلا فى مدينة الغرب !

بمجرد أن أبدى السكندرى خطته ، وجلا أمره ، جاهر الجهنى بما أضمره ، أو بما قرره عند رؤية النموذج ، قال إنه يقترح تعديل وضع الصومعة من الركن الأيمن إلى منتصف السور ، فإذا وافقه صاحبه السكندرى على ذلك ، ستظللها غمامة بيضاء خفيفة ، حريرية الطلع ، طوال أيام السنة ، صيفا قائظاً أو شتاءً زمهريرا ، ربيعا ناعماً أو خريفا تعصف بأيامه رياح الشمال العاتية ، لايمكن لبصر متطلع إليها إلا أن يرى ندف الغمام الأبيض وخلفها زرقة السماء الصافية، هكذا تتفرد بما لايوجد حتى فى مدينة الغرب .

رغم أن عقبة حافظ على جدية ملامحه وجمودها طوال تحديقه فى النموذج المصغر ، والذى يمكن من خلاله عد أحجار المسجد الذى لم يقم بعد ، حتى أنه لمح مع التدقيق كتابة بالقلم الغريب ، عندما سأل ، قال السكندرى ، هذه حجارة من بقايا مبانى كانت هناك يوماً ، قال عقبة متسائلا :

وكيف تقرأ هذه الكتابة ؟

أجابه السكندرى :

«عكس لساننا .. من اليسار إلى اليمين» .

قال عقبة :

«أقلبوا الأحجار أذن ، حتى يكون شكل لاغير ..» .

ثم أفضى بالاستفسارات والحيرة تطوى ملامحه :

«هل يمكنكما اخبارى بالمسافة الفاصلة بين مدينتنا الجديدة ومدينة الغرب التى حدث عنها الثقاة ..» .

«هل باستطاعتكما إطلاعى على مدة تعلق الغمامة وملازمتها الصومعة؟» .

ثم قال :

«إلى متى يبقى هذا المسجد ؟ » .

تطلع إليه المصرى ، وأطرق الجهنى ، خلا وجه كليهما من أى تعبير، وعلى مهل ، فى لحظة واحدة اتجها على مهل إلى الفضاء الفسيح ، عند نقطة فى الفراغ علقت غمامة بيضاء ، دانية قصية ، ظلها رجراج، مائع على الأرض .

حكاية

هـــودج

أقضه أمرها وقلقل شأنه، شهران انقضيا منذ وصولها وعقده عليها، لكنه لم يمسها ، لم يقربها، رغم أنها رهن إشارته، وطوع بنانه، إذا أومأ تجيبه، وإذا تطلع تنثنى إليه ملبية، وإذا أطرق فى حضورها تفهم عنه، لكنها بعيدة ماتزال، جد قصية رغم أنها فى المتناول، غير أنه لا يريدها مطوية، مغلقة الشفرات، صادة، دافعة وإن بدا منها غير ذلك.

الأمر دقيق. لكنه ماض ، لا يثنيه ما يلقاه منها والصبر يكون جميلاً محتملا إذا اقترن بالسعى، والرغبة فى الوصول. يسأله المقربون، من تتيح لهم درجات اقترابهم منه عما يشغله، عما يجمد نظرته لحظة اتجاهه إلى نقطة ما، أو استماعه إلى شخص بعينه، لكنه لا يفضى، لا يلمح، الأمر نزال يصعب البوح به، هو الآمر بأحكام الله، من تطيعه الجموع، ومن ينتظر الكافة رفة رمشه، وظلال التعابير على وجهه ، هو السارى، النافذ ما بين الثرى والثريا، ما بين الظل وأصله، هو من هو تضعضع أمره تلك البدوية..

تلك ؟

أهكذا يقترن الاستفهام الممتزج باستنكار خفى، رصين ، عند ورود فكره عليها، عند طوافه بصورتها؟. إنها الملتقى، مجمع نساء الأرض، خلاصتهن، وفوحهن الأقصى . عليه أن يلزم حتى إذا خطرت له عند انفراده، عند انقطاعه عن الكافة واستحضارها بالمخيلة، بين المحيطين به، المهتمين بشئونه وتدبير ما يتعلق به، نفر لهم حضور قديم فى القصر، يقفون على مقربة إذا التقى بواحد من أركان الدولة. أو قاصد لملك أجنبى أو وافد عليه من هنا أو هناك أو طالب حاجة أو متول شأنا، هؤلاء مدربون منذ بدء يفاعتهم على الإحساس به، مراقبة انفعالاته، ورفرفات ملامحه، حتى إذا بدا ضيق سارعوا، وإذا لاح وهن تدخلوا، وإذا بدر ملال من الإصغاء إلى متحدث أوقفوه، وإذا تجاوز أحدهم الحد ولو مقدار شعرة سارعوا.

أيهما الآخر، ولم يعد له من الأمر شىء ، فلا تفك أسره إلا بإذنها، وبعد ترطيبه بالماء الزلال، الحلال.

لم يعرف مثل ذلك فى غيرها ، ومنذ تلك الليلة يبحث عنها فى كل من التقى بهن، جركسية كانت أو سودانية ، صقلية أو هندية، مصرية أو من بنات الترك، اختفت ولم تظهر ، حتى قيل إن أحد الخصوم دسها عليه ليعتاد ما لا يمكن الإحاطة به، ليهوى النادر، صعب الشبيه، صحيح أنه أدرك منذ بداية مراحله أن لكل أنثى أريجها. وأن الملمح لا يتكرر، لكن لو اقترنت بالإقامة لتغير حاله، وتبدل أمره ، ذلك أنه منذ أن عرفها ، واحتوته الجذوة الموقدة ، صار إلى بحث دءوب فى البوادى، أطلق عيونه، وتتبع المصادر، من صحراء مصر الشرقية ، إلى الغربية، إلى مفازة سيناء وحتى جبل الطور والحجاز وغرباً إلى طبرق وصحارى تونس وامتدادات بلاد الغرب، حتى جاءت الأدلة بخبرها، عجوز من الرحل المتنقلين المعروفين بالغجر أو النور ولهم فى بلاد الصعيد سرحات وجولات. خلال إحداها مروا بسوق يقام فى مكان معلوم قرب منازل جهينة الكائنة عند آخر الحد المزروع جهة الغرب، يليها الصحراء الممتدة إلى أفق سحيق ، لا يقصدها أحد ولا يجىء منها أحد، وإذا تاه فيها الجمل أو شرد لا يتعقبه أحد. لم تدل الغجرية بأوصاف محددة، لكنها قالت ما قدر على صوغه لسانها، إنها ليس مثلها مثل، ولا يمكن الإحاطة بمكنونها، ما خفى عنه وما ظهر ، وفيما بعد فهم الأمر ما تعنيه المرأة، وعلم أنها لم تر من البدوية إلا عينيها وقوامها.

عندما دخل عليها بعد وصولها بيوم واحد كانت قاعدة. كأنها واقفة. مسومقة، غصينية، لها توثب ومنها نبع، كانت ترتدى خمار البدويات الأتم، محبوك، مزموم حول فمها وأنفها، نغم يسرى من الفراغ الأشم الذى يوجده تقدم أنفها المنمق، عصابتها لا تتجاوز العينين الشاهدتين على روعة الكون ومعجزة امتداده ليطل عليه بصرها الحاوى.

عينان لم يعـرف مثلهمـا ، سيظل تطلعهمـا إليه علامـة فارقة فى مسـيرته الدنيـوية، ومنهمـا سيتلقى اشـاراتها الداخليـة، فيسـعـد أو يشقى أو يتـوهم أو يتأكد.

ظهـورهمـا أوجز مـا لا يبدو منها، بروزهمـا لا يمكن اعتباره جحـوظاً، إنما تجسد وتعيين فكأنهمـا النموذج الأول الذى انحدرت منه سائر العيون والرؤى، ما بينهمـا تلميح إلى بشرتها، درجة من البياض الشاهق، الضرعى، حليبى، بياضـها مـجمع، فـإذا شـاء رأى فيـه سمـرة، أو شقـرة ، أو صـهبة، أو حمـرة أو صـفـرة وترددات علوية فيها أصداء فيروزية، وضعية طلتها تشى بموسيقية عنقها السارح، الغصنى، السيسبانى.

لم يدم مكثه بحـضرتهـا إلا وقتـا معلومـا، رسـائلها غزيرة، حـاوية، أرتد إلى موضعه المطل على أفق العباد ومحل سعيهم ليستعيد على مهل ما رأى وما أصغى إليه رغم أن ما تبادلاه مجرد ايماءات، كانت ماثلة أمامه ، مصغية، متأهبة للتلبية، فلو شـاء لقطف، ولو تقدم لجنى، لكن ثمة مـا لا يمكن تعيينه أو تحـديده حاشـه عن ذلك، أحيانا يكون تمام تأجيل المتعة أجمل من النيل، من تحققها، حكى له أمير من بلاد الغرب عن سجنه مدة في زنزانة لا يمكنه التحرك فيـها إلا نصف خطوة إلى الإمـام ومـثلهـا إلى الخلف ، تداخل عليـه الليل والنهار حتى ضـاعت الفـروق بين الضدين، وحرموه أنواع الطعام التى اعتـادها ، فلم يملأ معدته إلا بما جهله، حتى أتاه الحـارس يومـاً بتفاحـة ، مستديرة، صـفرتها مغيبية، صـلابتـها فى ليونتـها، تناولها، شمها، تنسمها، لجلج فيما ينبعث منها، لكنه لم يقضمها، أبقاها، لو أكلها سيفقدهـا، لن ينسى ذلك أبداً، إيقاع صوت الأمير وهو يقول بامتناعه ولم يسـأله ليتم معرفته، هل ألتهمها فيما بعد أم احتفظ بها؟ الأمر مغاير بالنسبة للبدوية التى حلت به. فى اللـحيظات الأولى التى تلت قطفة المشـاهدة الأولى سعـى إلى الانفراد ليمكنه الاستـيـعاب ، رغم تعدد مـا رأى، ومـا عـاين، فكأنه يطالع اللبنة الأولى، النطفة الأولى التى انحدر منها سائر الخفق.

عينان غازيتان ، نغميتان، شروقيتان وغروبيتان معاً، فيهما الامتنان والعتاب متجاوران ، بقدر ما تضجان بالفرح المكنون تومئان فى الوقت عينه بأسى شفيف باعث للحيوية، مستنفر للقدرة، غير محبط، تتخلله أحزان شهبية، لم يغضب ولم يتعجل، إنها الأويقات المطالع، صعوبة البداية، صحيح أنها المعززة، المدللة، المرغوبة فى قصر الخليفة الآن. لها التسيد والمكنة، غير أن تبديل الأحوال وعر، فما البال إذا اتصل الأمر بمفارقة الأهل، والانتقال من زمان إلى زمان ومن مكان إلى آخر، غير أن حدسه حاد، وتقديره اختل.

ما بدر منها عند لقائهما التالى شحذه وأجج اهتمامه، عندما اكتمل انفرادها وقعد فى مواجهتها وسبح باسم الله، خالق هذا الجمال، ومبدع تكوينها الفرد، استسلم للحظات الكشف تلك، أروع ما تحويه الصلة، عندما يسعى كل طرف باتجاه الآخر، يتبينه، يحاول إدراك خصائصه ، يستوعب أبجديته.

كلاهما معاً ، لا هو خليفة متول على الخلق، متصرف فيهم، مدبر لأمورهم. ولا هى بدوية . غريبة. ما يريده إقامة صلة وليس إشباع رغبة، فات زمن التهدئة باحتواء الجسد ، التمكن الأتم، المرضى، لا يكون إلا بامتزاج ما لا يرى. لا يذكر عدد الأبكار اللواتى افتضهن، تتداخل الملامح عنده، عندما اكتشف منذ سنوات ما يقمن به القيان المدربات. الخبيرات أبطلهن عن ذلك، كان ذلك عرفاً مستقراً منذ عهود الأجداد المطهرين، بعد أن تستقر الجارية فى القصر. يجرى إعدادها وتجهيزها . تمريرها عبر بخار العطور العنبرية أو المسكية، ما يفضله ولى الأمر، تجرى الأمور كلها طبقاً لما يحبه ويهواه ، تحكى إحداهن عن عمه الذى غضب عندما وجد الجارية القبرصية منتوفة، ملساء ، كان يحب بقاء الشعر وتحسسه ويصف حلقه أو اقتلاعه بأنه شبيه بالسلخ، أما جده الواثق فاعتاد أن يفتض بكرا مساء كل خميس، كان يبث العيون يستدل على كل ذات أسنان فلجاء وشفتين رنويتين يرسل ليخطبها أو يشتريها، تصل قبل الخميس إلى القصر، يجرى

دعكها وتطييبها، وفى الليلة المعينة تجلس معها القيمة ذات الخبرة، تنصحها بوضع معين، ألا تقاوم ، أن تكون طوعه تماما. فإذا شاء أتاها من أمام أو من خلف، تصحبها إلى حجرة الملابس. تشرف على ارتدائها الثوب الموصلى الشفاف، لا شىء تحته ، رغم أنه يلمح أكثر مما يصرح إلا أنه يبرز ولا يخفى. كان رحمه الله يدخل إلى الغرفة صامتاً. يقبل على من أتته طوعاً أو غصباً فلا ينطق كلمة. ولا يتبادل جملة. لا يبدى رسماً أو إشارة . وبمجرد إفراغه ينصرف إلى الحمام المجاور ، وتبقى المفتضة ساعة على الأقل بمفردها تماماً، فى غرفة لا نوافذ لها ولا مخارج بادية. تدخل القيمة لتبدى الترفق والعناية، ولتسألها عما إذا كانت راغبة فى الإقامة بالقصر، أو العودة إلى أهلها على أن يصرف لها فى تلك الحالة مقدار معلوم يكفل أمرها وشئون مولودها حتى يشب ويسعى. تعتبر مطلقة الخليفة، لكن.. لا يحق لها الزواج أبداً، أيهما تقبل ؟ لا بد من حسم أمرها تلك الليلة.

عندما ألم بما كان يجرى أبطل ذلك. لم يبق إلا على عيونه التى تسعى فى البادية، وما تلك البدوية إلا ثمار سعيهم. ليته توصل إليها بنفسه، ولكنه يعرف تماما أن الإنسان لا يمكن أن يلم بكافة ما يرغبه، ها هى ماثلة أمامه، مصغية، فليبدأ طريقه صوبها، يعلم أنه لو أقدم على تجريدها الآن لما قاومت، لما .. واستدارت وساعدت ، لكنه أحجم، لو أنها أمامه منذ عشر سنوات لاختلف أمره، وما نأى كثيرا عن تصرف جده الواثق، لكنه الآن يفضل أن يصغى، وأن يرى، أن يتلمس ، أن ينفذ على مهل إلى أدق خبايا الروح.

مالك ؟

ياه ، أى شكاية صامتة؟ تماما مثل حضورها الذى لم يعرف مثله، يبدو اللوم فى عينيها والأسى ، يلمس ذقنها مداعبا .

ما بك ؟

تهز رأسها، تميل إلى الأمام مطرقة، لم يقدر على منع نظراته من التجوال، متلمساً مشارف قوامها، لم يألف مثل ذلك من قبل. لم تكن أنثى. إنما دولة قائمة

بذاتها ، حصن لا يسفر عما بداخله، باسقة، متعددة الثمار ، غير أنها قصية، أمامه ونائية عنه، هذا ما أدركه تلك الليلة وما انتبه إليه، إنها بعيدة بالروح أضعاف قربها بالحس، عندما خلا إلى نفسه وانفرد ، يؤثر النوم بمفرده، يتحرر تماما فى هذا الحيز غير الفسيح ، يتمدد فوق فراش به بعض صلابة هذا ما نصح به طبيبه القبطى، اليبوسة أفضل، الجدران محكمة لاتنفذ منها الأصوات ، والستائر مسدلة لا تسمح بمرور الأضواء إذا شاء وأطل على الحديقة التالية، فى لحيظات ما قبل نعاسه، تراءت له فأدرك أنه يرغبها، وأنه فى تعلق متين..

خاب سعيه وحادت الجهود عن مساراتها، كل ما دبره من الدخول فى أوقات معلومة ، وبسط الأنواع النادرة من الكهرمان النادر الذى عرف تفضيلها له وإيثارها حباته حول جيدها ومعصميها.. مما عرف عنها طول تأملها لحباته وتعريضها للضوء، خاصة إذا امتزجت بالشوائب الأزلية المتدرجة فى ألوانها لكنها محتواة فى الصفرة الخصبة العذبة، أرسل إلى أخميم، أفضل ما أتمته أنوالها من نسيج الحرير الذى يربى من أجل استخلاصه دود القز فى البرابى المهجورة التى تحرسها أرصاد الجن. وخاطب ولاة الغرب، أفريقية وتلمسان وفاس. لإمداده بفيض من بلح كهرمانى الطلع، شفاف كأنه صيغ من أنقى أنواع عسل النحل الجبلى، لا تطرحه إلا شجيرات نخل نادرة فى الواحات القصية، كانت تفطر بالتمر وحليب النوق، كما جاءه أهل ظفار وحضرموت بالعطور المستخلصة من الورد الجبلى والمسك البحرى وعنبر الحيتان النفاثة، لكنها لم تأبه بالدر الفارسى ، ولا بالزجاج الصقلى.

صحيح أنها كانت تبدى المنة، وتطلق آهة اعجابها، لكنها سرعان ما تعود إلى صمتها، إلى بعدها السحيق فى قربها منه، وتظل منحنية متخذة وضع التلبية، معلنة قابليتها لكل ما يريده منه، لكنه لا يقدم، يطيل النظر إليها. يتنسمها، يخفض ذاته تجاهها، غير أنها بقيت مستعصية . شرع أكثر من مرة فى الفعل المباغت، الجذب والإحاطة، لكنه أحجم باذلاً الطاقة للكبح وليس لإطلاق الخلق.

أحياناً تتألق عيناها بوسن العرفان، وانبعاثات الرقرقة، لكنها إشارات غير كافية، يأمن عندما يتأملها ، تتبعه خفقات قلبه إذ تتجوهر مكامن الحسن للبصر المحدق.

لم يدخل عليها إلا منبئاً بقدومه ، لم يباغتها كما كان يفعل مع بعض جواريه خاصة صغار السن ، لم يرقبها خفية كما اعتاد فترة ماضية، لم تكن صموتاً عن جهل أو قلة معرفة، استوثق حفظها أشعاراً كثيرة، وقدرتها على الغناء. لكنه لم يطلب منها الإصغاء. كان يرغب فى نزوع منها إليه حتى فى الأشياء الصغيرة، بل إن دقائق الأمور تلك هى المحور والمرتكز. لم يدر إلى متى استمرار هذا الحال الذى لم تلح أى بادرة تنبىء بوهنه وبدء تبدله ، غير أن الأيام التى لا تبقى على حال بدأت عملها ولكن إلى حيث لا يرغب، إذ رصد صفرة الجدب فى عينيها، ونحولا بدأ وانكسارا ممتزجا بلوم . أقضه ذلك واعشوشب فراغه الأثير فجافاه الرقاد، عند حد معين لابد من البوح، هكذا أفضى إلى طبيبه ابن أسحق، طلب منه أن يتفحصها، أن يجس نبضها، أن يصغى إلى زفيرها، إلى شهيقها، لعله يحقق أمراً، بعد خلوة دقق خلالها ابن أسحق واستطلع . أوصى بشجر النعناع الجاف المسحوق المغلى فى ماء النيل، هذا ما أعلنه أمام القينة والوصيفات ، لكنه عندما خلا إلى الآمر أفضى إليه بأمر وأخفى آخر أما ما صرح به فسوء إقامتها، كافة ما يحيط بها من وثارة لا يريحها، إنما يقضقض رقدتها. ويقلقل دخائلها . أمضت عمرها كله فى البادية، تسرح الطرف فى خلاء لم يوضع له حد ، تستنشق هواء قادما من المنبع رأساً. إن الجدران قاسية عليها مهما كانت كسوتها. رخام رومى أو حرير اخميمى، أطباق الفضة المطلية بالذهب. المنقوشة، الممهورة بشعار الخلافة تبطل شهيتها، إنها فى حاجة إلى الخلاء ، أن تقيم الصلة مع السماء بدون وسيط، حجرا كان أو بشرا، أن تدرك الأفق بتذارها عند كل طلة، أن تتهودج، هذا دواء ناجع، وبيان لا يقدر أدق القوم عن إدراكه، لابد من الامتثال، ليس من أجل بلوغ المرام، لكن لصون المحبوب، وإقصاء عوامل الهلاك .

للتدبير رجال، يعملون أفكارهم، يدركون المرام من كافة الجهات، تفحصوا الأنحاء وعاد شادى المعمار المعلم بن المحسنى الرشيدى ليبسط بين يدى الخليفة ما انتهى إليه ، ليس بالقول ، إنما بالرسم والتجسيم .

لن يخرج إلى بعيد، هناك فى جزيرة الروضة، عند طرفها الجنوبى، حيث النيل فى أعرض حالاته ، ما بين بر الجيزة وبر الفسطاط، إلى الشرق فرعه وإلى الغرب مجراه السارى، يليه الشاطئ المنطلق عبر بر الجيزة حتى بلوغ الأفق، لا يقوم فى المواجهة إلا الأهرام وإذا دقق مليح البصر سيرى صنم أبو الهول الذى يواجهه شبيهه الجاثم قرب المقطم، إذا مد بينهما خيطا لم تحد استقامته مقدار شعرة.

الخلاء المنجم بالأهرام القديمة، العلامة فى طرف الجزيرة سيقوم البناء ، هودج معلق ، تكوينه يسمح بالاشراف على الخلاء، بل إن النظر منه يضاعف المساحات ويطلق البصر إلى مداه. إذا استقرت فى أى جزء منه فإن اهتزازات تعبرها، تهدهدها، كأنها تقيم فوق ظهر بعير، وإذا شاءت فكأنها معلقة، لا يكون الفراغ أمامها فقط، إنما تحتها وفوقها منه وله تهب رياح تخصه، تصفر وتأتى بذرات الرمال. وعلى امتداد الرقعة المحيطة تتوهج حرارة الشمس بما تبذله فى خضم الصحارى التى يعبرها البدر ولا يقدرون على الإقامة بها. بل إن تدبيرا تم عمله لتوفير الروائح والنفحات التى اعتادتها وهذا غير معهود ، لم يتفق لأحد من قبل، ولم يقدم على مثله. أمران اقتضيا جهداً، توفير كل ما ألفته من أريج وعطر. والثانى رعاية فسائل النخيل التى أرسلوا فى إحضارها من بلاد الغرب، لرؤيتها التمر المفضل متدلياً من سوباطاته. أعمل المحسنى تدبيره وأظهر الهمة فى الإطلاع على ما تناقلته المخطوطات القديمة. والمرويات السائرة عن غرائب البنيان، ألم بكافة ما قيل عن الأهرام والحدائق المعلقة وبستان الخضر ومدن الليل وعمارات النهار. وأقسم بإضافة أعجوبة لا مثيل لها، إذا فنيت بقيت بذكرها. وإذا بادت أو اندثرت احتوتها الأمثال المتناقلة، أطلع الآمر على كافة ما شرع فيه وما أضمره، كان يخط رسالتين بما يجرى ويتم. الأولى فى مطلع اليوم والثانية مع

انحلال آخر ضوء، فى كل لقاء لم يكن عسيراً عليه ملاحظة الأمر المتعاظم واستغراق الخليفة فى يمها رغم قدرته الهائلة على إقصاء ما يعتمل داخله عن ملامح وجهه، لكن نبرات الصوت كاشفة، واتجاه النظرات دال، وتصاعد المطالب والسعى إلى التفرد، وبالرغم من قصده ذلك ، إلا أن ما طلبه الآمر أدهشه وحيره!

الحجارة من المكان الذى وفدت فيه إلى الكون المنظور، فى ذلك اليوم المعلوم، المقدر، كانت قبيلتها ناحية الغرب، فى موضع يمكن منه رؤية البحر، يبدو فيه الموج كالفيروز المصهور، المتدافع ، المصدود عن الشاطىء، الرمال اللازمة جاءوا بها من هذا الموضع، لم يكن ثمة محجر قريب، أقرب مصدر يقع في جبل الطير، الطريق إليه غير ممهد، أرسلوا إليه من رتبه واقتطع ما يكفى ضعفى البنيان، حجر أيض أملس لا مثيل له، لم تعرفه سائر المدن المصرية والدور المبنية. وكأن ذلك لا يكفى فوجىء المحسنى بالآمر يطلب منه أن يعجن الملاط اللاصق للأحجار، الواصل بينها باللبن الفائر، وأن تخلط مواد الطلا، بعسل النحل الطازج، وأن تستحضر الألوان من الفواكه النضرة ذات العلاقة، والأعشاب النادرة المتوحدة فى البرية، أراد لها أن تتابع البناء، أن تشهد ظهوره خطوة خطوة ولحظة إثر لحظة، كان معنياً برصد أى إشارة دالة، انتقل إليه سرورها. استبشر خيراً بتعاقب انفعالاتها، وسرحاتها فى الجزيرة، غير أن تحديد معالم البنيان لم يكن سهلاً أو ميسوراً، العناصر متداخلة والمواد متشابكة . الشغل عمال والقوافل وافدة، وكان العالمون بأمور الهندسة يمرون قرب الجزيرة ويتطلعون إلى ما يجرى ولا يمكن لأعتاهم خبرة أن يستنتج ما سيكون. رغم توثبها وإظهارها الدهشة الطفولية، خاصة عندما وقفت على عطر البلح الذى استخلص من التمر لتعطير الفراغ به وهذا ما لم يعهد مثله أو يسمع به أحد، غير أن اللحظة الموجودة لم تلح بعد، يعرف تماماً انبهار الأنثى بما يصدر عمن تهواه وتهيم به، وما تظهره عند تلقى علامات المحبة من هدايا ثمينة، أو أفعال غير مطروقة. أو أشعار منظومة ، أو

سطور منثورة، كلهن يؤثرن الدلائل والعلامات حتى لو كن غير متعلقات أو خلواً من الرغبة. وهى رغم تفردها الضاج اللاقط، إلا أنها ليست استثناء، أظهرت سروراً لكنه عابر، وأبدت دهشتها الطفولية، رآها فى أقصى درجاتها، توثبت حتى كاد يخرج عن وقار الخلافة، لكنه أرجأ هذا كله إلى الحين الذى يدرك ويوقن من إحاطته بها، وإدراكه لعميمها، حتى الشروع فى البناء، واتصال العمل فيه لم يبلغ منها ما يهدئه ما يسعى إليه، وحتى ذلك الحين تحمل بمفرده تبعات نزوعه، ولم يبح بما يثقله لأقرب خاصة، رغم سعى بعضهم إلى التخفيف، لكنه حاد عن الإطار وأبدى الجفوة لمن أقدم على استحياء حذر، لم يبح، لم ينطق مع علمه الأتم أن العاشق يلزم له الإسرار إلى من يثق به. فى ذلك تخفيف وتلطيف، لم يعرف طوال عمره وتقلبه عبر أحوال شتى وحدة كتلك التى أحاطته وغمرته، لم يخفف منها ذلك الجمع القريب، البعيد. وهذه الجهود المستنفرة لتلبية كافة ما يرغب ويطلب، كان يتابع تنفيذ الهودج ويبدى أقصى العناية، يوميا يركب إلى الجزيرة على الأقل مرة، وربما فاجأ العاملين ليلاً، يتفقد ويتمعن على أنوار المشاعل، يمكن القول إن شغله كله صار محوره وبؤرته، كان موقنا أنه عند لحظة معينة سوف يحيط بها، يمتزج بها تماماً، وأن شرودها هذا سينتهى عند حد معين، لن تستمر بعيدة فى قربها منه، غريب أمرها حقاً، فلماذا لم يتفق هذا لغيرها من قبل؟ ظهورها جالب لحين موجع، آسر، يستولى عليه، ويرقق سائر الموجودات، ألف نظراتها وعد فى حد ذاته، بقدر سعيه نحوه ينأى عنه، عند لحظة محددة اختلط عليه الأمر، حتى أنه لا يجد إجابة شافية إذا واجه نفسه بالسؤال، لماذا سعى إلى تشييد الهودج؟ لماذا أقدم على استحضار مفردات عالمها بمكانه وزمانه رغم أنه غير قادر على استعادة قبس من لحظة مولية من أيامه هو؟. لم تطلب ولم تبد أى رغبة، إنما سعى إلى إرضائها، هل أراد الفرار من مستحيل يصعب بلوغه إلى مستحيل لا يمكن إدراكه؟

لا إجابة شافية مع أن البنيان على وشك.

طلب المحسنى شاد العمائر إيقاف مرور الإنسان والدواب وسائر ما يسعى ويتحرك عدا الطير فى الهواء، والأسماك فى النهر، إبطال المشى فى كافة الطرق القريبة التى يمكن منها رؤية ما يجرى ولو من بعيد، كما صدرت أوامر إلى القوارب التى تسهل عبور النيل، وأبطل صعود المؤذنين إلى المنائر، وأصحاب أبراج الحمام المتابعين لحركة أسرابهم، الملوحين بأعلامهم. منع تسلق الأهرام من القادرين عليه أو الزائرين من بعيد، كذلك طلوع النخيل المشرف. أو بلوغ ذرى الأشجار.

فى اللحظة المحددة بعناية المنجمين المهرة طارت أسراب الحمام بالبطائق الحاوية للرسائل إلى الشام والجزيرة وبلاد الغرب، مخبرة باكتمال الهودج. بظهور عجيبة ثامنة لا يمكن تجاهل سريانها ومثولها. من مقر الإقامة خرج بصحبتها يتقدمه الحرس المقرب. الملازم له فى اللحظات الحميمية، وعدد قليل من الوصيفات، والقائمين على الخدمة الضرورية، كان الصباح الحال بالكون مبشراً ومشيراً ، مس من برودة، لكنها منعشة مبرزة للمطلع، للبدء الكونى، أول أمس دخل عليه الوزير المختص بالدقائق وهذا منصب لا مثيل له فى سائر الدول والممالك . حيث يقع الاختيار على رجل كبير السن. حاضر الذهن، وافر العزم، يمكنه الدخول على الخليفة فى أى وقت ليلاً أو نهاراً، وإذا كان ما لديه حرج يحق له ايقاظه من السبات أو انهاء خلوته مع من يهوى ، إنه الوحيد فى الدولة الذى يمكنه إبلاغ الخليفة بأخطر الأمور وأدقها وأرهفها، ما لا يجرؤ البعض على مجرد التفوه به سراً إلى ذويهم وآلهم .

جاءه طالباً الخلوة فأمر بها. مال عليه لينبئه أن العيون والأرصاد تمكنوا من تحديد الشخص الذى تهواه البدوية.

من ؟

ابن عم لها

اسمه ؟

المياح

صفاته ؟

يماثلها عمراً، مشهور عنه قدرته على تلقيح النخيل فى زمن السفاد، له إحاطة بكافة ما يتعلق بالنخيل ، يرسلون فى طلبه لمداواتها إذا ظهر عطب، أو حل داء خفى.

أين الآن ؟

طافش، هائم على وجهه ، ربما فى الواحات القصية، أو لاجئ مستجير بأهل النوبة، وربما يجوس بالقرب من القصر، لا مكان يعرف له، اختفى منذ خروجها تلبية للرغبة العلوية التى لا يمكن ردها أو منعها، أدرك أنه مطلوب يوماً ما .

لم تكن مهمة المبلغ مقصورة على الافضاء بما عنده فقط، أحياناً يبدى المشورة، ولأنه أول من تحدث فى الشأن أصغى الآمر إليه وباح بقليل من كثير عنه، لم يعرف الوحدة والعزلة فى حياته كما كابدها منذ أن وصلت تلك البدوية الفارهة، إنه محاط بالخدم والحرس وأركان الدولة والندماء على أهبة للتلبية، لكنه بعيد، وأصعب الوحدة ما كان بين القوم، يراهم البصر والخواطر تحول وبعض الإنسان يعوق بعضه، العاشق لابد له من الحديث، خاصة إذا لم يقع التوحد بالمحبوب، لاحت الفرصة فلم يضيعها، تطلع إلى المبلّغ بوهن مستفسراً عن المكن، خاصة أن الهودج أوشك على التمام وبعد الزيارة الأولى لاحظ فتورها واستئنافها الرحيل غير المرئى، واستحالتها .

قال المبلّغ إن ملكا من ملوك الهند استعصت عليه جارية لتعلقها بعاشق يقيم فى مدينتها، أرسل فى طلبه، وأتاح لهما الخلوة، غير أنه دس السم البطىء للحبيب المتيم، المرغوب، شيئا فشيئا فشا المرض فى ظاهره وباطنه، راح ينطفىء على مرأى منها ومسمع ، إلى أن استحال إلى عبء ثقيل بعد أن كان جسراً متيناً

وربوة زاهية. وعندما نوى تماما كان التعلق قد تقلقل، والمحبة رغم الحزن تهن شيئا فشيئا، وفى اللحظة المواتية نفذ الملك بلفظه وجميل عنايته فتمكن وأرسى.

قال المبلغ إن أميرا من رجال الصين ، كان متوليا على ناحية شاسعة استعصت عليه مغنية ، ضاربة للدف ، عازفة على الجنك ، ولما أدرك تعلقها بمغن من ناحية أخرى ، أطلق الأعوان فى أثره ، رصد الجائزة المغرية للايقاع به ، وبعد أربعة عشر شهرا أوقعوا به ، وأرسلوه اليه محبوسا فى قفص من حديد ، لكن البنية الهيفاء ناحت عليه ولم ينفع معها جهد أو سعى .

قال المبلغ إن ملكا فارسياً قديماً، تأكد من عشق امرأته المحبوبة، المقربة لغيره، خلا بها فى مكان قصى، وأجهز عليها وهو يرثيها ثم قال فيما تلى ذلك إن امتلاك الشىء يكون أحيانا فى فقده !

ليس لها أن تبدى عذراً

تعرف الأخبار الأولى والوقائع المتينة وغرائب ما جرى فى الأزمنة القديمة، ما شيده الآمر من أجلها مؤثر، جليل وعجيب ، من أجلها هذا الهودج . ليس من قماش وإن كان يبدو من بعيد كذلك، معلق فى الفراغ، هكذا يراه القصى والدانى، ما يستند إليه خفى، أساسه بعيد، حساباته لم تطرق من قبل، كل ما فيه متعلق بها فإذا رغبت فى خلاء امتد أمامها فسيحا، طليقا، لا يحده حتى أفق، وإذا اشتد القيظ أو البرد تتبع الحرارة ما يريحها ويهدىء أحوالها، كذلك درجة الضوء، إن شاءت توهج حتى ليلغى الظلال وإن ضاقت خفت وبهت، وإن أرادت أعتم فى ذروة النهار، تتعاقب الروائح طبقاً للأوقات التى عهدت والمصادر التى اعتادت ، بدءا من خواص الرمال فى الأحوال المتعاقبة . راكدة أو سافية . ذارية أو ... إلى رائحة الخبيز من دقيق مخلوط بماء ، وخميرة وما قبل دخول الفرن، مراحل الوقيد وخروج الأرغفة زاهية، متفجرة بالمذاق الشهى، هبوب النسمات قبل الغروب وسرحات الرياح بين المضارب، وعبق المياه فى قاع البئر، أو الأريج المصاحب

لتدفقها من العيون الباردة أو الساخنة، يسرى هذا على الأصوات، كافة ما عرفته من هديل حمام أو ثغاء شاة أو حنين نوق أو عواء ذئب فى الليالى أو هسيس جراد عابر.

يهتز الهودج إذا شاءت، ويثبت عندما تريد. يستقيم إذا وجدت راحتها فى ذلك ويميل لحظة رغبتها فى الانتقال القديم. فكأنه واقع الآن .

كيف تم تدبير الأمر ؟

كيف جرى هذا كله ؟ من أين أمكنهم توفير اللبن والعسل وماء الورد للخلط بمواد البناء بدلا من المياه، كيف جهزوا تلك الأسقف التى يمكنها أن تتراجع بمجرد ورود الخاطرة. بحيث ينفذ بصرها إلى السماء مباشرة.

الألوان طوعها، كافة درجات الرمال الصفراوية فى لحظات النهار المختلفة، صيفية خلو من الغمام أو شتوية رمادية أو ربيعية جاثية تحت الخماسين، فى لحظة تختفى ألوان الأشجار والأطياف وأمواج النيل والضفاف وأطياف السعف فى الأعالى. تبدو الكثبان والتلال والأمواج المتوالية من الذرات المتجاورة، تحتوى الصحراء، تطاوعها اللانهاية التى يصارعها قومها منذ حقب لا نقدر على تحديدها هذا ما لم يجل ربما فى خاطر المصمم المبهر لهذا البنيان الأعجوبة، لم ترغب إلا فى خلاء ممتد بدلا من جدران القصور الشاهقة ، ونوافذ الغرف التى تحدد وتقيد أكثر مما تكشف وترشد. لم تتصور قط أنها ستحتوى الفراغ عينه، لكن ..

يستعد الأمر لمغادرة القصر الشرقى، ميمماً صوب الهودج القائم عند الحد الغربى، يفضى إلى مدبر القصور بأمره ، ما يرغبه ألا يوجد أى إنسان لحظة وصوله، حتى الخصيان الملازمين له. الواقفين بأبواب الغرف المخصصة لنومه.

لا يريد وجود أى إنسان ،ذكر أو أنثى فى الجزيرة.

يخرج عند الأصيل، بمجرد عبوره الخليج، ينبسط الخلاء منطلقاً ، فسيحاً، يلوح الهودج للمحدق، المدقق عبر المسافة الفاصلة، معلقاً، ما يحيطه فراغ، لا صلة له بما فوقه أو تحته ، متكوكب فى ضوء الأصيل السارى.

مصطلح

أساس

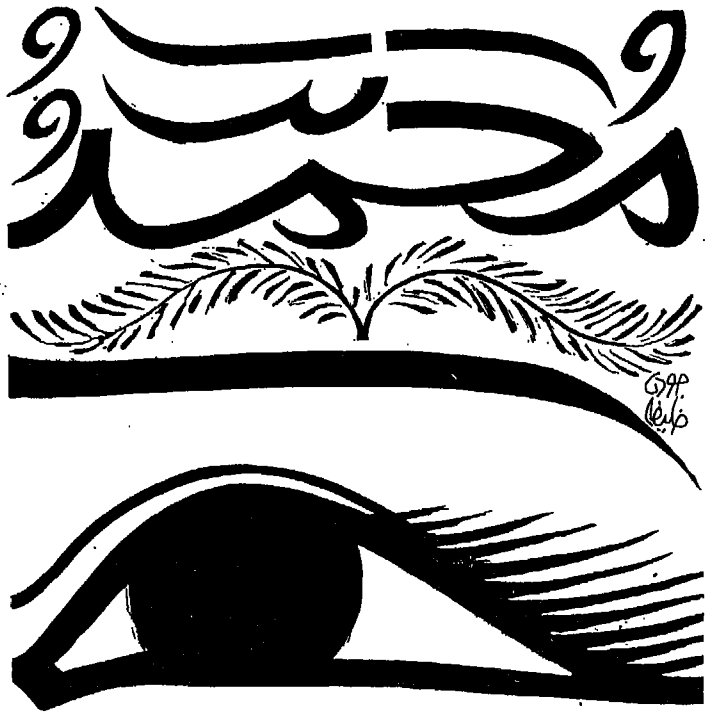
محمد

لا تقوم عمارة بدون أساس .

حقيقة مدركة من قديم ، وإن غاب عن الغارقين فى التفاصيل جوهرها ومعناها .

كل بنيان ظاهر ، لكن أساسه مدفون ، غائب .

إذن شرط السفور والامتثال والقيام هو الغياب ، وإن لم يدفن الأساس جيدا لما علا البنيان ، وعلى قدر متانة الغائب يكون مقدار الظاهر .

الأمر بسيط ، ميسور ، فإذا أردنا إقامة بنيان من ستة طوابق ، يكون الخفى منه محتويا لقدرة وطاقة توازى ما ينتصب فى الفراغ ، فإذا اختل التوازن الدقيق بين ما هو هناك ، وما نراه هنا ، يخيب المسعى ويجرى الانهيار فى اللحظة غير المقدرة ، غير المتوقعة ، والتى يصعب التنبؤ بها .

إذن . كل ظهور يقتضى غيابا ، كل مثول لابد له من قرين لا يمكن الاطلاع عليه ، إنما يمكن تقديره ، أو التنبؤ به ، أو تخيله ، فإذا أقدم الإنسان على المحاولة وحاول نبش الأساس لابد من انهيار البنيان أو ازالته أو اضعافه ، هتك المخفى يعنى إذلال الماثل المرتبط به وتوهينه .

كل بنيان مأوى ، إما لبشر يسعون ، أو ماضين ، أو رحلوا ، أو لمعنى مثل النصب التذكارى ، والشواهد ، والأبواب الوهمية ، ولا يأوى إلى الحيز المحدود إلا كائن ، وإنما المعنى هنا الإنسان فلا طاقة له على إدراك تفاصيل ما ظهر وما خفى من صلات الحيوان والطيور والحشرات بالموضع .

ربما يمضى الإنسان عمره فى بناء ، يرى يوميا جدرانه ، ويستظل بسقفه ، ويؤدى الطقوس أمام الأبواب الوهمية ، يقدم على أداء هذا كله ، ولا يفكر لحيظة فى الأساس المخفى الذى يسند ويحمى ويبقى !

ليس الأمر مقصورا على العمارة ، إنما يشمل الأمر سائر الكائنات والإنسان منها طبعا ، ذلك أن كل عمارة تكوين ، أى تركيب ، كذلك من يسعى إلى حين ، ذكرا كان أو أنثى ، الإنسان تكوين وتركيب أيضا ، وكل عمارة لاتقوم إلا على أساس ، ولا يتم مثولها وسعيها فى الفراغ إلا بإشباع الجذر وتجهيزه للتلقى وتحمله بعد تمامً غيابه ، تلك العمارات الظاهرة وطيدة ، إنما ترحل فى ثباتها ، وترى الجبال ثابتة ، لكنها تمر مر السحاب ، فكل مكون ومركب مصيره إلى إنفراط

الإنسان تكوين ، هذا مفروغ منه ، اذن .. أين أساسه ؟ إنما نعنى الأساس المتين ، المبدئى ، الذى انحدرت منه الخلايا ، وسائر المكونات ، وإذا تمكن الإنسان فى مرحلة ما من مسار وجوده التوصل إلى معرفة أصله ومنبته ، إدراك أساسه ، فهل ينهار ما هو ظاهر ، هل ثمة شرط أبدى ، إجبارى ، إذا أدرك الظاهر منبته توارى وجوده كافة .

هل بالإمكان إدراك أساس الإنسان ؟ أصل العمارة الكبرى التى يسعى فيها ، وتتحرك فيها الكواكب والنيازك والشهب والنجوم والمجرات ، وكافة ما يدفع الإنسان فى مراحل عمره المختلفة ، من طفولة وصبا وكهولة إلى التطلع أو تفحص ما يدب عليه ، وترديد الاستفسارات الحائرة والاسئلة الميسرة ، فكل سؤال نطق وكل نطق باعث على الراحة وإن لم يتلق الجواب ، لذلك نكتفى بالترديد : هل تحين لحظة تجمع بين ما يخفى وما يظهر ؟

حكاية

جهات

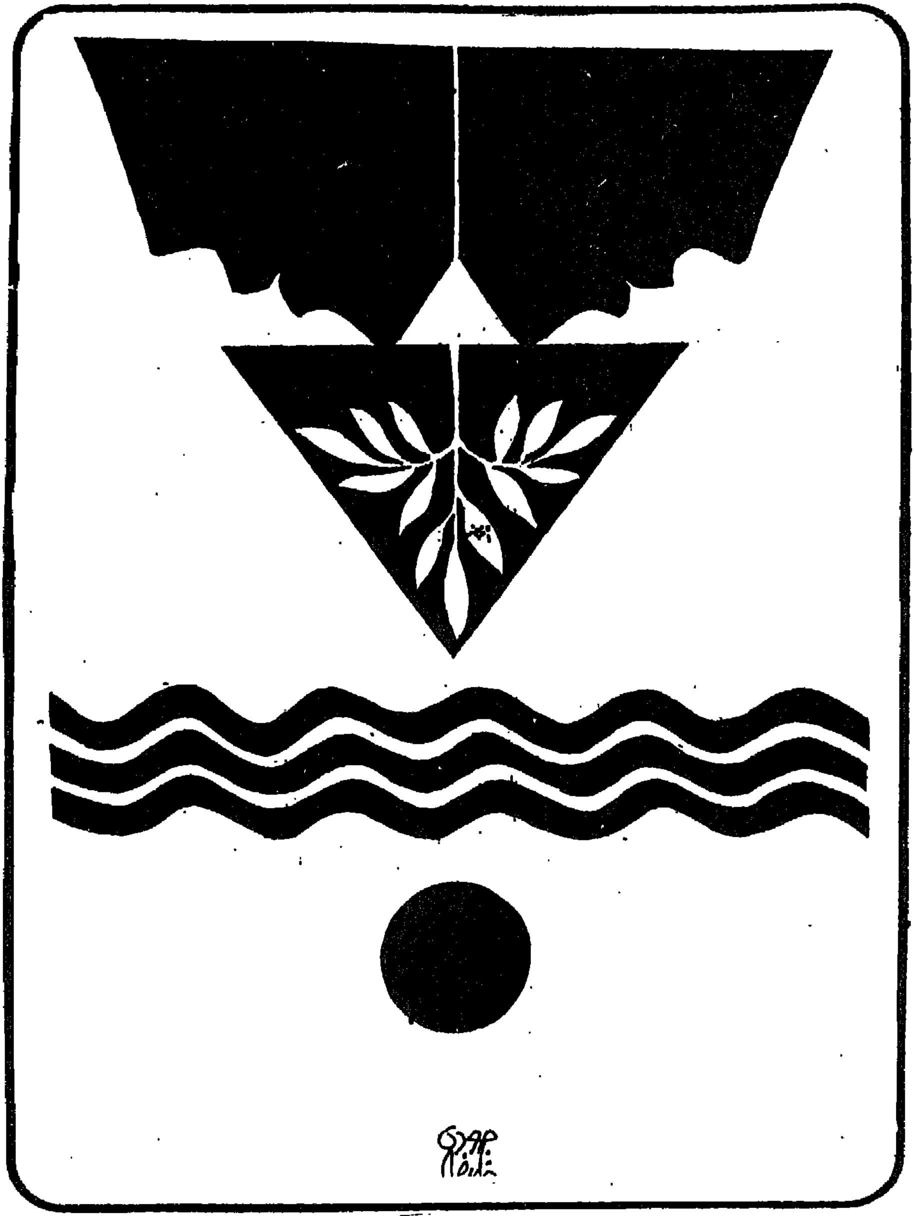

قمرى يهدل

صوت قديم وافد من خبايا الذاكرة ، سطح البيت القديم ، أفق المدينة الفسيح، زرقة السماء المنطلقة ، وقفة اليمامة الآمنة عند الطرف القصى ، صوتها يؤطر المرحلة .

يفيض دهشة وسكينة مهدهدة بعد تمام الإفاقة ، بعد اجتيازه تلك الممرات المصاغة من ضوء يمت إلى لون لازوردى وما هو بلون ، تردد تلك الأصوات التى لم يعرفها ، توارت كلها مفسحة الأفق لذلك الهديل المرتبط بلحظة نهارية ، قاهرية، مستحيلة الآن ، لكنها ممكنة بعمل الذاكرة الخفى .

مستحيل إدراك الصبور والرؤى المتوالية ، المتعاقبة عليه الآن ، تتدفق عليه مع كل لحظة تنقضى بعد تمام الوعى وامكانية التلقى ، لا يعرف أى إنسان ما يمضى عبره ، تماما كما يجهل ما يتدفق إلى الاخرين ، المماثلين له من مواقف ولحيظات، لكل تراثه الخاص جدا ، مستحيل اختراقه أو الوقوف على ما يحوى .

من رقدته يتطلع إلى من يمكنه رؤيته ، ثلاثة من الزنوج الاشداء يحيطون به ، طوال القامة ، يرتدون القميص البنفسجى والبنطلون الأبيض، الزى الخاص بالمرضين المسئولين عن نقل المرضى .

إنهم مدربون ، متخصصون ، ثمة لحظات حرجة ، ما بين انتهاء العمليات الجراحية والاستقرار فى غرفة الرعاية المركزة ، بدء نقل المريض من منضدة الجراحة إلى السرير النقال .

خلال تنقله من معمل إلى آخر ، من جهاز فحص إلى جهاز ، قبل إجراء الجراحة ، كان يرى تلك الأسرة المتحركة ، غرف عناية متنقلة على عجلات ، خمسة أو ستة متخصصين فى النقل ، يذكر أحدهم ، كان ممسكا بقربة بيضاء منتفخة ، يبدو أن لها صلة بالأنفاس وترددها ، لابد أنه مر بمثل ذلك ، انحنوا عليه، أحاطوه ، دفعوه ، مددوه وهو حاضر ، غائب بوعيه .

سريره الآن مغاير ، متنقل ، لكنه أبسط ، ما من خراطيم متصلة به، لوحة المفاتيح إلى جانبه ، بلمسات خفيفة يمكن الرفع أو الخفض ، أو نداء المرضة ، جهاز صغير مثبت إلى صدره ، متصل بأسلاك تنبعث منها الإشارات إلى عدة مراكز وشاشات ترسم ما يجرى داخل القلب الذى ما تزال جراحه طرية .

مصعد فسيح بطئ الصعود ، مستطيل ، حركته أقرب إلى الهدهدة ، يدفعونه عبر الممر المؤدى إلى الغرف ، حجرة فسيحة ، ستارة تقسم فراغها ، مريض آخر لا يعرف عنه شيئا يرقد خلفها ، يلمح قدميه فقط.

يتعرف إلى مفردات الوجود من جديد ، هذا تليفزيون مثبت إلى الجدار، مرتفع، يمكن للراقد رؤيته ، تلك باقة ورد ، منضدة صغيرة عدادات مستديرة ، أخرى مستطيلة ، مؤشرات ، أزرق فاتح لون الجدران ، سقف أبيض حليبى ، ضوء النهار يتخلل النافذة العريضة يتسرب إلى الفراغ خافتا ، ناعما ، ناشرا السكينة.

منذ ثلاثة أيام وقف أمام المبنى الذى يغلب عليه اللون البنى من الخارج ، أشارت المرافقة إلى الطابق الأخير ، إنها غرف الاقامة خلال الأيام التالية للجراحة ، تطول المدة أو تقصر طبقا لكل حالة بعد اجتياز ساعات الخطر والفترة الحرجة التالية مباشرة .

إنه مغمور بالضوء النهارى المطمئن ، الباعث لرضا غامض لم يعرفه من قبل ، ممتن لكافة ما يسعى حوله أو داخله ، للوجود كافة يود لو عانق المحسوسات واحتوى المعانى مرحبا .

إنها وفادته الثانية للكون ، لكنه هذه المرة قادر على تمييز الأشياء من النظرة الأولى ، لا يحتاج إلى تلقين أو إيضاح لما يفرق الأبجدية عن بعضها ، لكنه حائر

بدرجة ما ، ثمة شئ مقض لا يمكنه تحديد مصدره، كأنه راحل بوسيلة لا يعرفها، مار بمحطات لم يخطر بها من قبل ، لم يتضمنها دليل .

تقبل الممرضة .

تميل عليه ، تقول إنه لن يمكث فى هذه الغرفة طويلا ، إنهم يجهزون غرفة أخرى مجاورة ، إنها مفردة ، له فقط ..

هذا أفضل .

يجول بعينيه ، يتلقى الضوء النهارى الرائق ، الصافى ، يستوعب المرئيات وأصوات المكان ، ملامح مبتسمة ، معنية به ، يعانق الجميع بالصمت ، يتودد اليهم بغير نطق ، هم عنده طلات وملامح ، لايعرف أصحابها ، غير أنه ممتن ، راغب فى القربى والتلقى .

رغم الستارة التى تقسم الغرفة ، إلا أنه ألم بمساحة من النافذة ، ليست نافذة بالضبط ، إنما جدار زجاجى ، يبدأ بعد حوالى متر من الأرضية ، يستمر إلى السقف ، زجاج شفاف ، يعبر بالبصر إلى الفضاءات البادية .

أشجار كثيفة ، خضرة كاسية ، مرتفعات متوالية ، أزهار فى مستطيلات محددة ومربعات ودوائر ، بيوت خشبية ، سقوف القرميد المحدبة ، تفد إلى ذاكرته ناحية عتيقة من مدينته القصية ، النائية ، أحجارها رمادية ، معتقة ، مثقلة بالحنين، إنها الضلع الجنوبى من مسجد وضريح سيدى مرزوق الاحمدى ، تحدد بداية شارع قصر الشوق ومدخل الطبلاوى ، لا يمكنه تعيين الوقت المؤطر لها ، الذى يتخللها، إنه الصباح ، إنه العصر ، إنه الضحى والأصيل معا ، نهار بأكمله مختزل هذا أول توق يلى الافاقة وإنه لنافذ !

ممرضة تمشى على حواف قدميها ، تمسك أوراقا ، تتطلع مبتسمة ، يتقدم اثنان ، لكنهما ليسا من جاءا به ، لا يرتديان قمصانا بنفسجية اللون ، انما

خضراء ، احدهما أصهب الشعر ، الآخر سمرته داكنة ، ربما من الكاريبى ، أو أحد بلدان امريكا اللاتينية .

يسحبان السرير برفق ودربة ، طقطقة العجلات ، يلمح قدمى المريض الراقد خلف الستارة ، لم ير وجهه ، لم يعرف شيئا عنه ، باقة زهور فى المواجهة ، ممر عريض، أبواب الغرف مفتوحة ، سقف أبيض متأثر بالأزرق .

هل ثمة صلة بين الممرات الزجاجية اللازوردية وهذا الضوء الناعم الوثير الخالى تماما من الظلال ؟

كيف يمكنه القطع ؟

كيف وهو يتعرف إلى أبجدية الوجود ومفرداته من جديد ، إنه فى حاجة إلى استعادة متمهلة لما علق بذهنه عند عبوره من الغياب إلى الحضور ، تفحص ما عاينه ، ما وقف عليه ، ما أصغى اليه ، أصوات أقرب إلى صلصلة المعادن ، أصداء أجراس بعيدة .

يستديرون بالسرير ، يعبر باب الحجرة المفتوح ، مجاورة ، لكنها أقل حجماً ، لا يوجد بها إلا سريره ، يتأكدون من وضعه ، يصل الأصهب أسلاكا بأخرى ، إلى الخلف شاشة معلقة ، مثبتة ، عليها خطوط متعرجة، تتقدم لتتراجع وتبدأ من جديد، سطور بادية ، أرقام ، علامات، لابد أنها ذات صلة بالجهاز الصغير مربع الشكل المثبت إلى صدره ، موضع الجرح يغطيه شريط أبيض لاصق ، عريض ، خفيف ، لا يشى قط بحجم ما جرى .

يقول الأسمر إنه يمكن الضغط على الزر لاستدعاء المرضة المسئولة، ابتسم ، قال إن اسمه «ليتل» ، يتمنى إقامة طيبة وشفاء سريعا ، يومىء مسرورا ، موجها امتنانه الشامل إلى هذا الإنسان الذى أبدى ودا واهتماما فى تلك اللحظة ، ربما لن يراه مرة أخرى !

الجدار النافذة ..

لكن .

هل ينزل الليل بهذه السرعة هنا ؟

كم استغرق انتقاله من حجرة إلى أخرى ، لم تنقض سوى دقائق ، هناك نهار مكتمل ، هنا ليل أتم ، يغمض عينيه ، يفتحهما ، أضواء متناثرة، المؤكد أن الغرفة على نفس الجانب ، إنه يرى ترقرق أضواء ، بحيرة ممتدة ، هل فقد الاحساس بالوقت اثناء دورانهم بالسرير ؟ ربما .

ليل ساج ، كأنه ممتد ، لا يسبقه نهار ولن يعقب صباح ، يلمح ضوءا أحمر يعبر الأفق .

طائرة ؟

ربما

أنفاسه موجزة ، متسارعة ، أحيانا تقفز دقة معينة كأنها تحاول اجتياز الاخريات ، كيف يبدو قلبه الآن داخل صدره ؟ كيف تبدو الجروح والخيوط الماسكة؟

يلتفت إلى النافذة ، لا . إلى الجدار الزجاجى ، إلى الليل المحير ، يقابله مستلقيا ، متسقا مع وهنه ، راضيا تماما بما جرى ، مطلعا على ندرة لحيظاته تلك ، محاولا وصل ما كان ، لكن ..

نهار هناك ، ليل هنا ..

إنها الحيرة الأولى ، فليتلقاها هادئا ، منبسطا ، مؤكدا أن الحجرة محاذية للأخرى ، نفس الجانب ، هل فقد الاحساس بالاتجاه والوقت خلال دورانهم بالسرير ؟

ربما .

يستسلم إلى الرقاد ، لكم احتاج إلى هذا الخلاء الممتد ، إنه واهن ، لكنه هادئ ، متودد لكافة ما يراه ، ما يقع عليه بصره ، البشر ، الأشياء المتموضعة والمتحركة ، النبات ، الفراغات ، أما الألوان فكأنها تخرج مكتملة من عنده .

أزيز خافت لا يدرى مصدره ، يغمض عينيه ، يفتحهما ..

بالتأكيد غفا .

ضوء خافت يغمر الخارج ، ليل مقبل أو مدبر ، لا يمكنه القطع، فى يوليو يتأخر الغروب فى تلك المناطق الشمالية إلى الحادية عشرة ليلا ، سحابات خفيفة فى السماء ، متفرقة ، متباعدة ، لا تنبئ ، خلال لحيظات يبدأ توافد النجوم ، تكاثفها فى وقت وجيز ، يرى ما قرأ عنه ، عندما أراد الإلمام بأحوال المكان ، تعاقب الفصول الأربعة فى يوم واحد لاضطراب الطقس .

تتكاثف الغيوم ، تدنو من الأرض ، رماديتها غامقة ، تطوى ما وهن من ضوء، لم يفكر فى تحريك الستائر الخفيفة أو الثقيلة ، يمكنه بضغطة يسيرة ، خفيفة على مفتاح ملون باللوحة المثبتة فى كلا الجانبين ، إنه تواق إلى احتضان الكون ، بهدوئه وعواصفه ، يكفيه الآن .. النظر ، المبنى متين ، مقاوم للصواعق ، معزول عن كافة المؤثرات الخارجية ، غالب عليه اللون البنى . قبل دخوله لإجراء الجراحة تأمله مرارا ، حفظ اتساعه ، الطابقان الاول والثانى للفحص ، الثالث والرابع مندمجان ، يضمان غرف الجراحة المعدة ، المرتفعة ، تنظيمها يقتضى هذا ، الخامس للفحص النهائى، السادس والسابع للرعاية المركزة ، الثامن والتاسع والعاشر ، لايواء المرضى ، مرحلة تلقى العلاج والتأهيل للخروج إلى الحياة اليومية، الطوابق العشرة مخصصة كلها للقلب ، ثمة مبان ملحقة يتم الوصول إليها من خلال ممرات وجسور صغيرة مغطاة ، مراكز بحث، معامل ، مكاتب

لايعرف محتوياتها، كان يرقب ما يمت إلى المكان برهبة وحذر خلال تنقله من قسم إلى آخر ومن موضع إلى موضع ، كافة ما يطلع عليه له علاقة ما به ، صلة .. المبنى يومىء ألوانه بالعتاقة رغم حداثته البادية ، لا يوحى من الخارج بما يضمه من ممرات طويلة وصالات متعاقبة وأقسام ومعامل تحليل ومطاعم عديدة ، يبدو لمن يراه من الطرق المحيطة صغيرا ، مجرد بناية لاتفصح عن ضخامة أو تعقيد .

هنا فى الطابق العاشر ، الأخير يشعر بارتفاع سامق ، كأنه تجاوز المائة طابق ، أحيانا يخيل اليه أنه مجاور للأرض ، إنه يستعيد واجهاته التى توقف ليتأملها مرارا قبل ولوجه للجراحة ، لكم توقف ، وتطلع ، وتأمل .

« فى غرفة ما سيشق صدرى ، ويمسك الجراح قلبى ، يخرسه وينطقه.. فى غرفة أخرى سأغيب عن الوعى فترة لا يمكننى تعيينها .

فى حيز لا أعرفه سأولد من جديد ، كم ستمتد إقامتى .

لا أعرف »

ها هو يستعيد ما كان منه فى مواجهة العاصفة التى تتكون بمحاذاته، على مرأى منه ، لينعم بالرقاد مهما بلغ الوهن ، ليتمدد راضيا ، مرضيا، مهما قصرت الأنفاس أو تعثرت أو اشتدت تلك النفرة المفاجئة والتى تجيئه حيث لا يتوقع، مباغتة ، مبرقة ، غامضة .

الغمام القاتم يتجاوز الزجاج ، عتمة ، يندلع البرق ، كرة نار مدغومة ، صفرتها كونية ، أبدية ، أين كمونها ؟ ما مصدرها فى الفراغ؟ من فوق الأرض يراه الماشى برقا ، لكن فى الخضم يبدو الانفجار متجاوزا كل قدرة وأى طاقة ، انه مواجه مباشرة بما يجرى فى رحم الكون ، تكوّن العاصفة وانفجاراتها ، تتدافع الغيوم ، إلى أين بعد تجاوز الغرفة ؟ غير أن الفراغ الداخلى هادئ ، درجة ثابتة من ضوء غير مباشر ، سيالة تفيض بلا انقطاع ، مجهولة المنبع والمصب،

تتصـادم كرات اللهب ، يندمج بعضـها ، تتفجر على بعد يسير من حـافة النافذة حتى ليتـراجع إلى الخلف ، لكن .. لا شئ يمـيل أو يهـتـز ، ترى .. أين قـرأ تلك الجملة ؟

«تكون العاصفة جميلة ورائعة إذا كان البيت متينا ..»

المبنى ليس متينا فحسب ، انما يبدو صنوا للطبيعة ونقيضا لها ، كينونة أخرى فى مواجـهتـها ، بثباته ، برسوخـه ، بما يحوى ، الزجاج عريض ، متين ، يتلاشى البرق عند سطحـه وتتناثر الصـواعق ، يرشح كافة الأصوات حتى لو كان ميلاد الرعد عند حافته .

يهدأ تعاقب السـحب ، وتوالجها وأنتـحار بعضـها فى بعض ، تصفو السمـاء ، تنجلى الرمادية ، لكنه الليل باد ، ليل تتشابه فيه الجهات والأشياء تفسح المكونات المسالك للذكريات وأستدعاء كل ماهو بعيد أضواء قريبة

أخرى عند الأفق ، متناثرة ، متباعدة ، إشارات واهنة دالة على حيوات يـجهل وجودها أو مـساراتها ، إنه يمت إليـها بدرجة ما ، الآن يقترب النهار من الطلوع فى القـاهرة ، ثمـان سـاعـات فـارق التـوقيت ، أحـتـفظ بزمن مـدينتـه، لم يـحـرك مؤشرات ساعته، ينقص الفارق بذهنه ، تجئ الممرضـة حانية ، باسـمة ، تحملها اليه ، تساعده فى إحكام أغلاق قفلها ، يبتسم راضيا ، شاكرا .

العاشرة إلا خمس دقائق

يصل الطبيب ايرانى الأصل ، المتابع لأحواله بعد الجراحة .

السلام عليكم ..

ينطقـها تماما مثل تجار العـجم الذين أقاموا على مقربة من مسـجد سيدنا الحسين ، كانوا متخصصين فى تجارة التنباك والمكسرات من عين جمل ، وبندق

ولوز وفسدق ، كان لهم موكب صاخب حزين فى عاشوراء، يقول الطبيب أصفهانى المولد ، أمريكى الاقامة .

لابد أن تمشى من الغد .

يلوح بأصبعه

الفراش باستمرار ... لا ..

يكرر

مفهوم

يومىء مبتسما ، بمغادرة الطبيب للغرفة ، يبدأ ليله الحقيقى ، يغمض عينيه ، ظلال خضراء لحركة الخطوط المتعرجة كموج البحر ، الثانية صباحا يطل عم مايك الزنجى ، الثانية والنصف تدخل ممرضة ممتلئة ، توقظه برفق ، تقدم إليه قرصا صغيرا ضئيلا مثل حبة العدس ، لا يخشى إلا مثل هذا الدواء المدغم ، المعد بعناية ، يستأنف نومه ، فى السادسة تدخل ممرضة شابة ، ترتدى كنزة خضراء ، وبنطلونا أبيض ، صدرها محرض وردفاها منعمان ، يحرضانه على الخطو مرة أخرى ، يومئان إلى روعة الوجود وجلال الاعتلاء وثراء الفروق وشدة سريان الحياة فى الموجودات كافة .

يتهلل ممتنا لأنه يرى مثلهما مرة أخرى . تقابله بمثل ما قابلها من بشر ورحابة، نظارتها الطبية تبرز بضاضة وجنتيها وارتوائهما ، تلاقحت نظراتهما ، عندما أدارت ظهرها تعلق ورفرف ، أيقن من سلامة الخطة وقرب اكتمالها ، تكتب اسمها على اللوحة الصغيرة المواجهة .

كاترين ؟

نعم

تستدير ممسكة بالطباشير الأزرق الفاتح ، تقول إنها تعيش مع ابويها فى منزل متوسط ، أقل حجما من تلك البادية عبر النافذة ، تحيط به أشجار مثمرة ، احداها تحاذى نافذتها فى الطابق العلوى ، لو مدت يدها تقطف الكمثرى ، نعم .. لديها صديق ، سافرا معا إلى جامايكا الشهر الماضى ، يقول مبتسما .

صاحبك محظوظ

تقول إنه لطيف جدا ، لم يتشاجرا مرة واحدة ، يعمل فى مطعم للوجبات السريعة ، تقول فجأة .

لابد أن تمشى

يقف .

هل تتغير المشاهد بعد وقوفه ؟

هل يختلف الأفق ؟

يلاحظ المستويات المتوالية للأرض ، أين البحيرة اذن ؟ ألم ير ترقرق سطحها المائى الساكن المستسلم للظلمة ، يلمح محطة القطارات ، عربات واقفة ، يستدير متجها إلى الممر الذى تطل عليه الحجرات المتجاورة ، المتواجهة تقول كاترين.

رائع .. يمكنك أن تمشى حول الطابق ..

تتابع بسرعة .

« فى أى لحظة يبدأ التعب قف فورا ..»

يتقدم بطيئا ، أنفاسه قصيرة ، متوالية ، الخطى الأولى لا يمكن نسيانها ، خاصة إذا بدأت مع اكتمال الوعى ، إنه واهن غير أن طاقة متصاعدة من نقطة ما داخله ، لكنه منضبط فى تقدمه ، الممر أعرض مما رآه عصر أمس، على مسافات متساوية صالات فسيحة تنتظم فيها المكاتب ، حواسب آلية عديدة ، ماكينات قهوة

مفرغة من الكافيين مثبتة إلى الجدران ، مباحة للكافة ، أجهزة اليكترونية ، ممرضات يسعين برشاقة ، إنه يرى اللحظة التى يفارق فيها المبنى ، يتأمله من الخارج عند مضيه إلى الفندق ، بعد عودته إلى الوطن يستعيده كذكرى.

الوقت يمضى . هاهو يخطو منفردا رغم أن الرباط اللاصق مازال مثبتا إلى صدره ، كافة الأبواب مفتوحة ، حجرة خالية من الأسرة ، تجهز لاستقبال مريض، ربما يجيئون به الآن من الرعاية المركزة ، يمر بلحظات الإفاقة الأولى .

يتطلع إلى النافذة التى يبدو منها جزء كبير ، مساحة كافية

بحر ؟

مرج وشاطئ ورمال محاذية ، زبد أبيض .. صخور ، أمواج تتقدم ، تصطدم ، تتراجع ، تتقدم .

انها عين الجهة التى تطل عليها غرفته ، لم يبتعد الا خطوات ، الباب قريب ، الغرفة التى صعد اليها أمس فى نفس الجهة ، لم يكن يبدو منها هذا الموج المتلاطم ، هذا اليم الخضم ، قوافل الحركة المستمرة. الزبد الأبيض الذاهب ، المرتد فى عين اللحظة .

بحر يبدو هنا وبحيرة هناك ، نهار وليل يتجاوران ، غابات تطالعه من غرفته ، مساحات الغرفة متقاربة ، كافة الأبواب تطل على الممر المستقيم ، يصل إلى الفسحة التالية . لافتة صغيرة تعلن عن قسم العلاج الطبيعي ، لم يحن الوقت بعد للالتحاق به ، يتم ذلك بعد مغادرة المبنى والعودة إلى الفندق ، إنها المرحلة الثانية باتجاه الحياة اليومية ، ثم ... الرجوع إلى الوطن ، عندما يأذن الطبيب ويسمح بعبور المسافات الفاصلة .

يتوقف ، تتوالى عليه لحظات منقضية ، مقترنة بأماكن نائية الآن ، لكنه يستدعيها ويحتويها بعد أن ضمته حقبا، نواصى ومداخل وشرفات ونوافذ ،

واجـهـات سـوامق وممرات مؤدية وأركان مظللة ، التـمـاعـات الضـوء على النبـات والاهرام البـادية عند الأفق الغـربى، الرمـال والتـلال ، حـدود الوادى ، تقـتـرن اللحظات بالمواضع التى يثير استرجاعها الحنين الممض.

يلتفت مقطبا ، متعجبا ، نافذة صالة العلاج الطبيعى عريضة ، مكشـوفة ، مامن ستائر ، آلات مشى ، مران ، قياس الضغط والنبض ومالا يدريه ، إنها فى نفس الجـهة ، لكنه من حـجرته لايرى تلك الناطحات الشاهقة ، إنه فى مواجـهة مشهد امريكى تماما ، مبان نحيلة، سامقة ، أعمارها متفاوتة ، أحدثها هرمى القمة ، مدبب ، معدنى الطلاء ، أربع أو خمس ناطحات سحاب ، هل رأى صورة مماثلة من قبل؟

مؤكد

هذا مشهد غير طارئ عليه ، إنه مألوف بدرجة ما ، ربما لتشابه تلك البنايات، لكن .. كيف لا يمكنه رؤيتها من غرفته ؟

هل من المعقول أن تطل كل حجرة على جهة مغايرة تماما ؟

خطواته حذرة ، قصيرة ، لكنه يتقدم ، كاترين تتحدث إلى شخص ما عبر هاتف مثبت إلى الجدار ، فى وقفتها يبدو تكوينها الانثوى ، يفاعتها، يبتسم متسائلا :

«صديقك» ؟

تومىء ، يكرر

« إنه محظوظ »

يصل إلى نهاية الممر ، انها المرة الأولى التى يقطع فيها المسافة كلها ، يتوقف حتى تهدأ أنفاسه المتلاحقة ، يتوسط صالة مستطيلة ، مقاعد وثيرة مصفوفة ، جهاز تليفزيون مغلق ، نافذتان متقابلتان ، الأولى ناحية الجهة التى تصطف

بحذائها الغرف ، الثانية متعامدة عليها، نهاية الممر ، ما يراه من خلالهما متشابه، لكن لا علاقة له بالمشاهد الأخرى .

طريق عريض ، مقسم بخطوط بيضاء ، تتدفق عبره السيارات ، نقل، ملاكى ، مقطورات ، كلها فى اتجاه واحد ، مماثل لمشيه فى الممر ، أشجار كثيفة على الجانبين ، غابة مشطورة ، كثيفة الحضور ، من خلالها يبدو مبنى سامق عند الأفق ، كأنه يرى قبة ومئذنة ، تكوينان منفصلان ، متصلان ، كل منهما يتمم حضور الآخر .

معقول هذا ؟

أن يكون فى مواجهة المسجد الذى بناه الزنوج المسلمون قرب المستشفى ، لا يذكر من وصفه له ، لكن تبدو هذه المئذنة مألوفة عنده، كأنه احتواها من قبل بالنظر ، ألا تشبه منارة قايتباى ، خاصة التناسق والتفاهم مع القبة ؟

يميل إلى الامام

ولماذا مسجد ؟

ألا يشبه البرج ؟

لكنه لا يرى صليبا يعلوه ، إما لبعد المسافة أو لتصاعد ضباب خفيف عن الغابة ، ربما يؤدى غرضا رياضيا أو علميا ، يضيق عينيه ، لكن الرؤية تظل محدودة .

العربات ماتزال تتدفق ، تمضى متجاورة ، تفصل بينها تلك الخطوط المرسومة، سرعاتها مختلفة ، طرز شتى ، ألوانها متعددة ، تتكرر طرز وألوان ، أحمر ، أبيض ، بنى ، أحمر مرة أخرى ، درجة من اللون القانى يفضلها ، تقترب من الياقوتية ، يتوالى مرور السيارات ، كم عدد الحارات الوهمية . يخطئ العدد لبعد المسافة ، ثمانى ، تسع ، ينبغى التركيز ، غير أن إجهادا يتصاعد ، ونفرة

قوية ترغمه على الاصغاء إلى قلبه ، يتراجع عن النافذة ، يستأنف المشى ، يعبر الزاوية القائمة ، يبدأ ممر جديد واستئناف أيضا للسابق .

المرضات شابات ، أعمارهن متقاربة ، يفضن حيوية ، يبدين مودة بلا تكلف ، أحيانا يفاجأ بحنو ، بعضهن يرتدين ملابس بيضاء بما فى ذلك الأحذية ، أخريات مثل كاترين ، قمصان خضراء ، بنطلونات بيضاء ، إنهن أقل مرتبة ، لكن ما من شبه يقربهن منها ، يدرك أن النبر بدأ ، وأول القطر حل ، إذا قدر له استعادة تلك الأيام بعد إيابه إلى دياره فسيمثل منها كاترين ، لابد من أنثى للتعلق بموضع أو لحظة ، وإلا .. فإنه العدم ، لكم يود أن يرى دخولها الهادئ عليه ليستفسر منها عما يراه ، ليسألها عن الجهات ، تغير ما يطالعه من نافذة إلى أخرى ، يتوقف ..

قرب نهاية الممر يلمح امتدادا صحراويا وكثبانا بادية وتجمعات متفرقة من النخيل .

إلى هذا الحد ؟

نعم .. ليس عنده شك الآن ، كل نافذة لاتشرف على جهة ، إنما تطل على عالم، حضور مغاير تماما لما يجاوره ، يتوقف ، هل يرى حقا ما يوجد ؟

أم يوجد ما يراه ؟

لو عبر النافذة ، أى نافذة ، لو نجح فى فتحها ، ماذا سيرى ؟

هل سيرصد أسباب الاختلاف ؟

يتحسس الحواف ، كلها مصمتة ، جدار زجاجي مثبت ، لايمكن فتحه، لابداية ولاحد مؤطر ، مثبت ، طائرة مروحية تعبر الأفق ، سماء فيروزية صافية ، نقية من كل غيم ، كأنها لم تعرف السحب منذ قليل، يستعيد انفجار البرق قرب النافذة ، توالى العاصفة ، هل مارآه حقيقى؟، هل يخص نافذة غرفته فقط أم رآه بقية

الراقدين؟! لكن الوهج بدا كونيا، لا يمكن محاكاته ، ترى .. أين مصدره ؟ هل يمكن أسر البرق ؟ هل بالإمكان إجبار العاصفة على التوجه إلى مكان دون الآخر.

أين قرأ مثل ذلك ؟ أين ؟

ربما فى نص فرعونى عتيق ، أى كتاب ؟ لايدرى ، لا يمكنه القطع! خشية مفاجأة تبدأ عنده .

هل يطل على نفس الجهة التى رآها أول مرة من غرفته ، فى الداخل لم يتغير شئ ، السرير ، الأسلاك ، الكتب التى طلب الإذن باحضارها اليه ، الشاشة ، العلامات ، لكن .. ثمة شئ تغير ، لايقدر على تحديده، لا يمكنه تصنيفه .

يلتفت حوله .

غرفته ؟

يلفظ التساؤل بصوت مرتفع ، هذا سريره ، الأجهزة المتصلة بمسارات الدم داخله ، بنبضات قلبه ، اللوحة فى المواجهة ، أسماء الممرضة ومساعدتها والمسئولة عن النظافة ، لكن .. ثمة شئ ما يباعد ما بينه وبين الحيز الذى أوشك على ائتلافه .

يستعيد المكونات كافة ، الضوء مغاير ، درجة لم يألفها ، باردة تلغى الظلال ، لم يعرفها حتى عند تراوحه بين الإفاقة والغياب ، تتقارب الجهات ، تتضام ، تتداخل التفاصيل التى رآها عبر كل نافذة ، بحر ممتد، موج متوال ، صحراء متموجة الرمال، عاصفة عابرة ، عربات تتدفق ، تختفى لتكر من جديد، الطرز عينها ، الألوان ذاتها ، السرعات المختلفة ، المتماثلة ، دخول كاترين الهادئ، المترفق ، مرسلات الإثارة منها اليه ، أو .. منه صوبها ، لايدرى .. هل عبرت الباب صوب مرقده أم خرجت من عنده إليه ؟

حكاية

ممرات

صباح اليوم الثالث لاسترداده الوعى واكتمال إفاقته ، الرابع على إجراء الجراحة جاءوا إلى الغرفة ، ثلاثة أشداء ،طوال القامة عراض الصدور ، وكأن مقاييس متقاربة روعيت عند اختيارهم ، إنهم المكلفون بنقل المرضى ، مدربون ، مؤهلون لمواجهة أى طارىء خلال المرحلة الحرجة التى تلى انتهاء الجراحة وتسبق انتقاله إلى غرفة الرعاية المركزة ، إنها الفترة الصعبة حيث تخطو خفقات القلب العائدة قاطعة أول المسافة بعد التوقف وتلقى الصعقات المحركة ، الجراح فى بداية طراوتها ، وأى اهتزازة زائدة عن الحد ربما تؤدى إلى وقوع ما يتجنبه الجميع ، الأنابيب المتصلة بأجهزة القياسات والمحاليل والأدوية العاجلة اللازمة تعلق إلى أعمدة متصلة بالسرير المتحرك ، هذا مشهد رآه قبل إجرائه الجراحة خلال أيام الفحص السابقة ، كانت الحركة بطيئة جداً ، عددهم يتجاوز الخمسة ، أحدهم ينحنى على المريض ممسكاً مايشبه القربة المستديرة البيضاء ، فى هيئتهم عناية وحنو وحرص زائد ، يتطلع إليهم مبتسماً ، ساعياً إلى المودة ، انتهى من تناول طعامه منذ نصف ساعة، الأطباق مظهرها شهى لكنها مفرغة من مضامينها ، شكل لاغير ، الجبن مفرغ من الملح واللبن ، البيض بدون دسم على الاطلاق ، حتى اللحم يخيل إليه أنه من مادة محايدة . يقول الأوسط ، بشرته غميقة ، أفريقيتها صميمة ،يمسك بمقعد متحرك ، يشير إليه ، يتساءل بالنظر ، لكنه لايتلقى إجابة محددة ، يقول إن بوسعه المشى ، يمكنه أن يصحبهم ، لكنه يهز رأسه مومئاً إلى المقعد ، لامفر .

تبدأ الحركة ، يمسك بحافتيه ، يدفعون به إلى المصعد ، ثلاثة متجاورة ، ستة متواجهة ، إثنان مخصصان للمرضى ، للطوارىء ، يدخلون بها إلى أحدهما ، يتطلع إلى عامل المصعد ، ملامحه شرقية ، ربما من أمريكا اللاتينية، الجميع صامتون ، لا يتبادلون الحديث ، ولا يستجيبون لأى مداعبة أو إيماءة ، يرتدى حلة بنية ، لماذا ثلاثة إذا كان واحد فقط قادر بالتأكيد على دفع المقعد ؟

كم طابقاً نزل المصعد ؟

يخيل إليه أنه استغرق وقتاً أكثر من المعتاد ، مرقده فى العاشر ، الطابق الأخير ، فوق السطح مباشرة ، ممهد لاستقبال طائرات الهليكوبتر التى تنقل الحالات الحرجة ، ثمة شئ يتحرك من السطح متصل بغرفة الطوارئ مباشرة لكنه لايعرف موقعه تماماً ، مازال المصعد يهبط ، صوت خافت ، ناعم ، رائحة غامضة، جديدة على حواسه ، لايمكن نسبتها إلى مرجعية محددة ، لكنها ليست مزعجة ، إن مرحاً خفياً ممتزجاً بإعياء يعبره ، لا يقلق ، لايتساءل ، لم يخبره أحد بقدومهم المفاجئ ، ربما لاحظ الأطباء أمراً عبر الأجهزة العديدة المتصلة بجسده عبر أسلاك ومعدات مساحة مثبتة إلى السرير ، لابد أنهم رصدوا شيئاً ما خلال نومه أو صحوه ، إلى صدره مثبت جهاز صغير متصل بقلبه مباشرة ، هذان السلكان المتجاوران ، النحيلان ، المبرومان ، قطنة بيضاء تغطيهما ، إنه جهاز إرسال تقريباً أو هكذا خمن ، لمن يرسل ؟ لايدرى ، يصغى إلى مايفضى إليه بفضول بكر ، كأنه يقف على الحقائق الأولى بذهن لانقش فيه ولا أثر لشئ سابق، بقدر رغبته فى الاطلاع على ماجرى له ، بقدر صمته عن السؤال أو الاستفسار ، إنه متلق لاغير ، يؤدى بدقة مايطلب منه .

المصعد بدون لوحة علامات . لاشئ يدل على الطوابق ، الوجوه محايدة تماماً، لم يعرف بتوقف المصعد إلا مع فتح الباب ، يكتشف أنه كان يتوهم حركة ما ، لا اهتزازات على الإطلاق ، لا صوت ، إلى أى أزيز ناعم أصغى إذن ؟

أى مثير للدهشة بعد وقوفه على تنوع الجهات بتعدد النوافذ وحيرته فيما يرى، ماذا يمكن أن يستفزه بعد عبوره الخط الفاصل بين الكينونة والأبدية وعودته مرة أخرى .

درجة الحرارة أقل ، برد يدركه ، ربما لرطوبة الممر الطويل الذى بدأوا دفعه غبره ، وربما للتكييف الضرورى ، اللازم لصيانة بعض الأجهزة المستخدمة ، لايدرى من قال على مسمع منه أن مثلها يحتاج إلى درجة حرارة منخفضة لذلك يستحسن التزود بملابس ثقيلة إلى حد ما ، لكنه لم يصحب أى رداء اضافى ، على أى حال البرد محتمل .

إنه يمضى بسرعة ، خطواتهم أفسح مما كانت عليه فى المسافة الواقعة بين حجرته والمصعد فوق ، ربما لأن الممر هنا مشجع بخلوه وطول مسافته لكم يبدو آلممر طويلا بالقياس إلى حجم المبنى كما يذكره من الخارج ، لا أبواب على الجانبين، جدران مصمتة ، لون الطلاء ينتمى إلى تدرجات البنى الفاتح ، مستو ، لاظلال ، لاصوت لخطواتهم أو تقدم العجلات ، اهتزازات خفيفة لا تلحظ ، لا يدري هل يمر بالمكان أم أن المكان يمر به؟ ، ينتهى الممر إلى آخر متعامد عليه لكنه أضيق قليلاً ، جدرانه مرتفعة أكثر ، رغم أنه يبدو طويلا للناظر أول الخطو لكنه ينتهى بسرعة إلى صالة مربعة يتفرع منها ثلاثة ممرات ، كل إلى جهة مغايرة.

يلمس الأوسط كتفه ، ينطق لأول مرة .

«حظ سعيد» .

يومىء ، يستدير مع الآخرين ، اختفاء عند المنحنى ، إلى أين؟ لماذا تركوه وحيداً هنا؟ لابد أن شيئا سيحدث فجأة ، لابد أن أمراً سيبدأ أو إجراء سيتخذ ، لأول مرة منذ بدء تردده على هذا المبنى المخصص بأكمله لمرضى القلب وجراحاته يجد نفسه وحيدا تماماً ، باستمرار كان بصحبته مرافق أو ممرضة ، عناية بادية خاصة بعد تمام العملية وصعوده إلى العاشر ، يستعيد وجنات تلك الشابة ، وعينيها الطفوليتين ، الأصوليتين فينتشى ، مادام القلب قادراً على

الرصد وإبداء المجاوبة فتلك نبوءة بالشفاء ، بدء اكتماله . أى برد هذا ؟ صمت ثلجى ثقيل ، ممرات معقمة من الضوضاء وسائر مايمت إلى مزعجات أو منبهات الحواس .

كم انقضى ؟

ليس لديه ساعة حتى يقيس الزمن ، سلمها إلى الأمانات مع مفاتيحه وحافظة أوراقه ونقوده وبطاقة الطائرة وخطاب إلى زوجته فى القاهرة ، وآخر إلى ولديه .

أى جزء هذا من البناية ؟

يذكر أنه طالع خريطة تدل المترددين فى المدخل الرئيسى ، لكنه لم يلمح فيها أى تفاصيل حول تلك الممرات الطويلة ، أهو الآن فوق مستوى الأرض أو تحتها ، لايمكنه القطع ، ينتبه إلى سكينته ، إنه هادىء ، منبسط لذاته ، راض بكل حال يمر عليه ، هذا اللون الخالى من أى تموج ، الممتد ، غير المستقل للظلال ، وغير المرسل لها ، كأنه يبدأ من نقطة ماعنده ، عناصره داخله ، لايفكر فى الانتظار ، لابد أن لكل شىء مقدارا، هم بدأوا الأمر ، وهم سيتولون نهايته ، ماذا يمكن أن يطرأ أو يجرى ؟

يظهر اثنان ، حجمهما أقل لكنهما فارهان بالنسبة له ، الأبيض حليق الرأس تماماً صلعة يول برينر ، وبعض أولئك الشباب الذى رآه أثناء أسفاره وأضمر ناحيتهم الحذر والخشية ، الأسود بارز العضلات ، غليظ الساعدين ، لم يسأله ، إنما أمسك يده وتأمل السوارين المحيطين برسغه ، كلاهما من البلاستيك ، الأول أبيض خط عليه اسمه بحروف الحاسب الآلى ، الثانى أحمر كتب عليه بحروف لاتينية : السلفا ومشتقاتها » يعنى ذلك تحذيراً حتى لا يتم اعطاؤه أى أدوية تتضمن السلفا لحساسية ضدها، هذا ما دونوه فى اللحظات السابقة على حلاقة

شعر صدره ، أثناء تجهيزه للجراحة ، ترى .. أين الحلاّقة المتلئة ، القادمة من الكاريبى ؟ أين ؟ هل سيراها مرة أخرى ؟

يقف الأبيض الأصلع خلفه ، ينحنى ممسكاً بالمقعد ، كأنه ينتظر شيئاً ما ، إشارة خفية ، لابد أنهم متصلون بمركز ، بجهة ما فى هذا المبنى ، يثق أن أشخاصا لايعرفهم ولن يلتقى بهم يرصدون أحواله ، يتفحصون دقات قلبه وما يصدر عنه من إشارات ، كذا ضغط الدم وأمور أخرى لن يقف على تفاصيلها .

يدفع المقعد ، الزنجى يمشى إلى جواره ، كان الثلاثة خلفه وعلى خط واحد تقريباً . إنهما مختلفان ، الإيقاع مغاير ، خطوات أقصر لكنها أسرع ، يلجان المر المحاذى لذراعه اليسرى ، لاينبىء مدخله بمدى طوله . إنه ممتد ، ممعن حتى ليبدو أضيق الطرق التى تنبسط إلى مالا نهاية .

باب

مستطيل ، كأنه مرسوم ، مجرد خطوط .

باب آخر

مصراعان متضامان ، أبواب حقيقية تؤدى إلى فراغات تالية محددة أم وهمية تفضى إلى معان مجردة ؟

لايمكنه الإجابة . الخطوات أسرع ، يركضان ، تتوالى لفات العجلات ، فى لحظة معينة تبادلا دفع المقعد ، يمسك بالمسافة الضئيلة التى مضى فيها بقوة الدفع الذاتى ، يمتد المر مسافة تتجاوز ما رآه منه فى بدايته ، كأنه يتمدد ، أو تولد منه مرحلة إثر الأخرى ، تهدأ الحركة تدريجياً ، صالة مستديرة ، يوقفون المقعد فى المنتصف تماما بعيداً عن أى جدار ، ضوء أغمق ، تكتمل الظلال مندمجة ببعضها فى المواجهة ، لايمكنه اختراقها بالنظر ، لايعنيه مفارقتهم له ،

يثق أن ثمة من يتتبع أحواله ، من يراقبه من مكان ما فى البناية ، موضعه معروف، حيزه محدد فى الممر ، لايعنيه الزمن المنقضى هنا ، وإن تمنى العودة إلى غرفته ، كل البناية غريبة عنه ، وأيامه فيها محددة ، مؤقتة ، أيام دقيقة ، بعضها حرج ، فى موضع ما شقوا صدره ، وأمسك الجراح بقلبه ، أعاد وصل شرايينه ، لايعرف شيئا عن الغرفة التى احتوته طوال الساعات الست والثلاثين التالية ، لم يرها ، مايذكره ألوان تتوزع داخله وليست حوله، كلها تنتمى إلى اللون الفيروزى ، يستعيده بدهشة ، بخوف ما ، إنه لون الأبدية ، الزرقة المصهورة ، المتساوية ، المؤدية ، يوقن بوجود مالا يمكن تعيينه أو تحديده ، فى الأمر شىء ، فى الأمر شئ !

متى يعود إلى غرفته ؟ إلى نقطة ارتكازه التى أفاق عندها ، يجثم عليه ثقل ، يضطر إلى إغماض عينيه ، لايذكر من قال إنه سيمضى زمن يغفو فيه فجأة ، يدركه الحذر بغتة ، تأثير المخدر طويل المدى ، إن توالى الساعات مع فقدان الوعى أمر وعر .

يفتح عينيه على تحركه مدفوعاً بيسر ، بلطف إلى الأمام . يلتفت يقابل بابتسامة حانية . مترفقة ، أنثوية ، شابة ، طويلة ، نحيلة ، لاتشبه كاترين الربرابة ، طفولية الوجنتين ، له مرجعية أنثوية هنا أيضا ، أليست أول من تعلق بها بصره بعد افاقته ؟ حقاً .. ما أجمل حضور المؤنث فى سائر الأحوال ، داخله مغاير الآن لمجرد أن مرافقته امرأة ، لايعرفها ، ربما لن يلتقى بها أبداً ، لن يحتفظ بملامحها ، لكن يلفحه أريجها ، ينعمه ويدلله ، إنه فى حبور وتأهب .

الممر أضيق ، حوافه أميل إلى الشكل الدائرى ، مع تقدمه تتضح أسطوانيته ، لم يلحظ تحوله من مربع إلى أنبوبى ، لكن .. كيف تتزن العجلات ؟ كيف تحافظ على توازنها ؟ لابد أنهم أعادوا لكل شىء عدته ، مايلائمة ، لكن عنده حيرة ، تلك

المسافات المتوالية . فى أى حيز تقع ؟ ، هل يتحرك فى إطار البناية أم خارجها ؟ ما رآه منها قبل إقامته بها لايتسق مع طول الممرات ، وتعاقبها ، هل يمضى فى خطوط متوازية ؟ لكنه لم يشعر بذلك ، إنه مدرك للاستقامة الطولية ، المسافة خلت من الانحناءات ، يتوقف المقعد فجأة عند مساحة مستطيلة ، ضيقة لكنها محددة ، مرتفعة السقف ، ينتهى عندها الممر ويبدأ آخر من الجهة الأخرى ، تستدير الحكيمة أو الممرضة ، تواجهه ملامسة خصرها بيديها ، تشير إلى باب فى مواجهته ، عند إقترابها منه يفتح على مهل ، تدخل ، يتبعها ، ترتدى معطفاً خفيفاً لكنه من مادة تشبه الجلد .

جهاز للتصوير لم ير مثله ، تتحرك أطباق معدنية متصلة به مع ضغط أصابعها على أزرار صغيرة ، لوحة مضيئة ، أرقام صغيرة ، إشارات لامعة موجية .

تشير إليه أن يتجرد من الرداء الأزرق المنقوش بوحدات هندسية بيضاء ، بعضها مستدير والآخر مثلث ، ما من ملابس داخلية ، مجرد قميص خفيف أبيض، بحركة سريعة يفك الرباط الملامس لعنقه .

إنه تماما فى مواجهتها ، لا يداخله أى خجل ، ولايغطى عورته بيديه ، ولا يسرى بينهما مايمكن أن يتصل بين الرجل والمرأة ، جرحه مازال طرياً وقدرته واهنة ، مسرور بحضورها ممثلة لجنسها أكثر منها حالة خاصة كتلك التى اتصلت بينه وبين كاترين لومضات مفلتة ، فلتطلب منه العرى ، الالتصاق بالجهاز، الانحناء قليلا ، نفس عميق التوقف ، إطلاقه ، التطلع إلى الأمام ، تلامس كتفه ، تبدى حزماً ، إنه موضوع للفحص ، يجرى التأكد من شىء ، ما لايعرف كنهه بالضبط . يتزايد البرد ، ثمة مصدر خفى يبث القشعريرة ، تكتكات متعاقبة ، صمت ، تشير إلى الخارج ، يتناول الرداءين ، يلتحف بهما، لابد أنها ستلحق به ، يقعد فوق الكرسى ، الضوء أخفت ، يتحرك مدفوعاً ، يتجاوز الصالة المستطيلة ،

يلـج النفق الأسطوانى ، الفـراغ مكتـمل الاسـتـدارة ، لابد أنهـا مـضطرة إلى الانحناء .

يلتفت

لا أحد

من يدفعه إذن ؟

إلى أين ؟

يتداخل فى بعضه ، سكينة سارية وخشية مستعدة وقناعة بضرورة عبوره هذه الوحدات المتعاقبة ، الممرات المتوالية ، الضيقة ، أصداء بعيدة ، تعمق الصمت أكثر مما تبدده ، يضيق الممر ، يكاد يلامسه ، لايمكن مرور شخص آخر، واحد .. لاغير .

مصطلح

قبـــــو

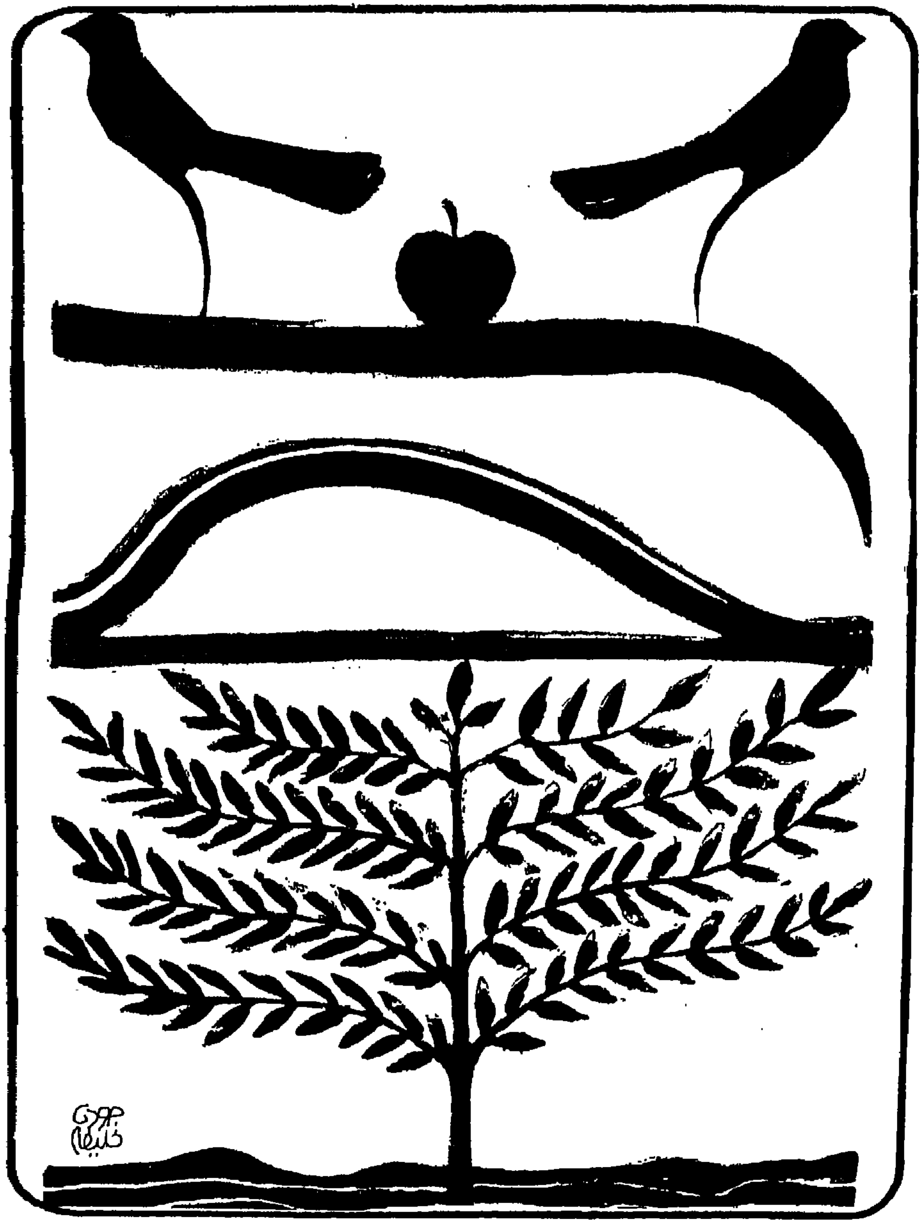

القبو صون وستر وخباء . لذلك فيه الحفظ ، الرحم قبو ، تستقر فيه بذرة الحياة ومصدر نموها بعد تمام وفادة العنصر الملقح ، من ينجح فى قطع المسافة وسبق الملايين من أقرانه ، حتى إذا امتزج بالبويضة الكامنة ، المتوقعة ، فنى فيها ، تتغير أحوالهما ليبدأ فصل جديد ، لا يمكن تمامه إلا بداخل حيث محل التكوين ، به تتميز الأنثى وتزهو فلها الحق .

للإنسان بنوعيه أقبية شتى ، منها ما نعرفه ولا نقدر على رؤيته ، مجرد مشاهدته هلاك له . مثل المخ والقلب والمعدة والرئتان وما بين الصلب والترائب عند الذكر ، والبويضة التائقة ، المنتظرة المنتحرة بخروجها إذا طال انتظارها . كذلك مسارات الدم وما لا نعرفه من سوائل حافظة ، حيوية . ومثل ذلك كثير .

أما مالا نعرفه ، ما لم نقف على محله وعناصر تكوينه ودعائم كينونته فتلك الأقبية الخفية القابعة فى الروح ، حيث بواعث الذكرى وعوامل الانتقاء المؤدية إلى استعادة لحظة دون غيرها ، أو رائحة معينة دون مثيلاتها ، وهبات الحنين المؤدية إلى بث الحيوية فى الصبوات العتيقة ، بواعث الآلام المجهولة أو المألوفة وتلك أيسر وأسهل على المرء إذ إنه يتوقعها ، لكن المخيف كل جديد ، طارئ .

ما لم نقف عليه من قريب أو بعيد فإنها أقبية الكون ، حيث تتوالد النجوم وتفنى المجرات وتلتهم الثقوب السوداء كافة ما يقترب منها ، ما تطاله ، أو ما يصدر عنها ، حتى الضوء وكل خافت نمنام ، همّاس ، من يدرى ؟

ربما كان هذا الكون الظاهر للحواس مجرد قبو يخفى ويحفظ سائر ما يضمه لغرض ما . كل ما يتعلق بالوجود جائز ، طالما أننا لم نقف بعد

على بدايات المسار وغاياته ، وأسباب سموه ، وخفقه ، أى بداية تعنى نهاية مهما امتد الأمر فى الزمان والمكان .

الأقبية أمرها قديم منذ أن حفرتها الرياح وتوالى قطرات المطر ، ومسارات النسمات والهزهزات الخفية ، وإدراك الإنسان ما يطرأ على جسد مثيله بعد التمام وضرورة إخفائه ، مواراته .

الأقبية أمرها قديم ، سواء لإقامة الحى أو دفن الميت ، ومنذ أن بدأ المهندسون الفراعنة الأوائل، خططوا أوضاعهم وحددوا مسارات الأشياء ، قبل مجيئ أمنحبت (توت فيما تلى ذلك من قرون) وإليه ينسب تركيز الأمور واقرارها ، واظهار قبس منها فى هرم زوسر المدرج .

هو القائل لكل بناء قبو ، وفيه يكون السر ، وهو الذى قرن بين جسد الإنسان وأبعاد العالم ، ومنه استلهم البداية والنهاية ، والخطوط الفاصلة ، وما خفى وما ظهر ، فثمة أمور معينة ، مبثوثة ، متاحة داخل البناء ، مغرية ، جاذبة بما تحوى ، لكنها ليست إلا وسائل تمويه على أخرى أهم .

ليست الأقبية إلا إشارات على الحضور والغياب ، المصير والذهاب، الحقائق الجلية والأخرى التى لم تدرك بعد ، لذلك عد توصلهم إلى الباب الوهمى ذروة ولحظة فاصلة ، دالة ، تماما كذروة الهرم ، الأمر فيه ماثل أمام البشر كافة حتى وإن لم يدركوا مغزاه ، يتخذ أشكالا شتى من مستطيل أو مقبب أو محراب لكن الدلالة واحدة .

القبو ضد للباب ، لكنهما وجهان لأمر واحد ، الأصل فى كل منهما الخفاء ، لو ظهر لانتفت صفته ، لذلك كان التخمين أيسر الطرق لإدراكه، عند تمام بلوغه ينتفى كل شيء .

القبو سند الباب ومستودع أسرار العمارة . ليس ضروريا أن يكون تحت سطح الأرض . ربما كان معلقاً كتلك الأقبية

الداخـلية المـوزعة على مستويات متعددة داخل الأهرام ، أو على جوانب الممرات المحفورة فى الصخور ، المؤدية .

كافة ما خفى يعد قبواً حتى وإن ظهر ، كل خفى غائب ، القبو مستتر طالما أنه قائم بمهمته التى صمم من أجلها ، أن يحفظ ، أن يصون .

مـا يطول احـتـجـابه يـزداد قـيـمـة رغم غـيـابه ، وأثمـن الموجودات ما انقضى عليه الوقـت ، كل بنـاء يحتـاج إلى قـبو ، لكن كل قبـو لا يحتـاج إلى عمـارة ، إنه ملموم ، مضموم ، وفى معظـم الأحيـان يتبـدد سـره إذا خدش أمره .

الأمر دقيق . لكننى سارد واقعة ذكرها واحد ممن تخصصوا فى علوم الأقدمين ، وكشف عن أقبيـة لم تفتح منذ آلاف السنين ، وخطا داخل ممرات آخر بشر تنفسوا هواءها مضى عليهم أكثر من عشـرين قـرناً ، أعنى العـالم العلامة سامى جبره ، وهو مكتشف مقـار عبـادة اله المعـرفـة توت فى الأشـمونين بمصـر الوسطى . وليس الاله توت إلا نسخـة من المهندس أمنحتب بعد ألفى عـام . أمنحتب هندس وخطط وجمـع فأرشـد وصـاغ ، ولغـزاره فيوضاته المعرفية وجمعه ما يتعلق بعمارة الإنسان وأسرار البنيان ومعنى مزاوجة الحجر بالحجر ، والتمييز بين العلو والسفل ، هنا لابد من توضيح انطـلاقا من قول الشيخ الأكبر فى كتابه التـدبيرات الالهيـة فى إصلاح المملكة الإنسـانية ، أن الإنسان نسختان ، نسـخة ظـاهرة ونسـخة باطنة فالنسخة الظاهرة مضاهية للعالم بأسره والنسخة الباطنة مضاهية للحضرة الالهيـة ، فالإنسان هو الكلى على الإطلاق والحقيقة .

هذا ما أدركه أمنحتب ، فليست النسخة البـاطنة إلا قبـو المعـارف والإدراك ، غير أن مـا ظهر لنا وقت هـذا التدوين ان الإنسـان ليس نسختين فقط ، إنما نسخ ، فإلى جانب ما خفى وما ظهر تتجسد أحـواله

منــذ الميلاد وحتى الفناء ، كل انتقـــال من لحظة إلى أخرى يتجدد النسخ ، ومن نعرفهم وندركهم ثم نـلقاهم بعد غيبة ، يختلف أمــرهـــم ويتفق ، فهـــم هـــم من الظــاهر ، ولكنهـــم ليسوا كذلك فى الجــوهر . كذلك المكان ، وبالأخص البناء ، نمضى إلى المواضـع التى ارتبطت بها أيامنـــا الآمنة ، الحميمة . فلا نجدها رغم مثولها ، وتغترب عنا رغم أنهـا قائمـة ، جلية ، متصلة الجدران ، لكل امرىء قبوه . داخله أو مصاحب له من خـــارج ، وأوضـــح الأمـــور ما جرى تلخيصها فى الحروف والأرقـام ، والخلاصـة منهـــا مـا قـــام به البنيان ، مثل الأساس، والحامل والمحمول ، والفنـــاء والدرج ، والباب ما سمح بالاجتياز أو اكتفى بالإيماء إلى الخبايا الكامنة فى أقبية الآفات غير المرصودة ، التى غشاها ما يغشى ، فاستعصت .

الأمر كما ألمحت دقيق ، والوصـــل يبـدو قائماً بين الأعـمـــدة وظــلالها ، لكن الهـو الفاصـــل سحيق وعبـــوره مستحيل بما نعرف من وسائل ، لا يتــوقف توالد النسخ البشرية بعد الغياب الأبــدى ، فمنذ القــدم أدرك الفراعنة أن الإنسان ذكرى ، ولذلك توصـــلوا إلى الأسماء فحــددوا النغمات والمقامات ، وتفننوا فى حفر الأســمـاء على الجــدران واخـفـــائهـا عن المتطفلين ، اللصــوص ، الســـاعين إلى انتـهـــاك المقدس، طالما أن الاســم يتردد فصاحــبه لم يرحل ، يكون ماثلا بشئ مـا . لكن التـغيـر يلحــق الاســـم أيضا ، من هنا لا علاقـة للحكيم ، العلامة أمنحــتب الذى كان جوهر وقته بالنــسبة لما نـذكره الآن ، أو ما أعتقده القوم بعد أكثر من ألـــفى عام على تمامه ، حتى ملامحه تبدلت، وشمل ذلك اسمه أيضا ، عبده القوم باسم الاله توت ونسبوا إليه كل معرفة ، وأصل العلوم كافة ، فى لحظة ما تتبدل النسخة المتـــداولة بأخـــرى وربمـــا يلحق التغيير الاسم أيضا فتنقطع كل صلة فى الظاهر ولاكتشاف الأمر لابد من إلمام وفحص وطول دربة ودراية .

يطول الحديث إذا فتحنا الكـــلام فى النســخ الخفيـــة ومنها ما يدرك بعضا منه فى الأحــلام ، وكل حــلم إنمــا يجرى فى قبو ، واليقظـــة تعنى تبدده وتذريتـه ، وقبــل أن أذكــر ما عاينه الأثـــرى المنقب أنثنى إلى الحجرة المغلقة فى قصص ألف ليلة وليلة ، إنها الحــادية عشرة أو الثــالثة عشرة ، عندما ينزل حسن البصرى فى قصر بديع ، ويكون من شــروط الإقــامة التمتع بكافة ما يحويه عدا الغــرفة المغــلقة ، قبــو الأسرار ، ويستجيب فى البداية ، إذ يكون بلوغ القصر بعد عناء شديد وصعاب جمة . لكن بعد مضى بعض وقت يبدأ الفضول عمله ، ويقاوم النزيل ، المقيم ، غيـر أنه بعد تردد يقدم ، فتــكون النهـاية مع هتك السر، بعد فتــح الباب ، أما أن يقــوده القبو إلى مهــالك شتى ، أو يلقى حصانا مجنحاً فى انتظاره يعــود به إلى نقطـــة البـداية . حيث الشقاء والهم وسريان المشقة .

غير أن ما جرى للعـــالم المنقب سامى جبره يفوق هــذا كله ، إذ جرى الاستنفار يوما وبلغ الاستــعداد أقصاه ، ذلك أنه كان مقبـــلاً على لحظــة يتمنــاها كل عامل فى البحث عن آثــار القدامى ، أن يقــدم على رؤيــــة ما طال حفظه فى قبو مغلق ، محكم ، وهو من سيفضه ، هكذا مشـــى وئيدا فى الممر المنحدر المؤدى ، يتنسم الهـــواء المعتق المعطر ببقـــايا زيوت مندثرة ، وهبـوب مـجهـــول المصـــادر ، إنهــا الأسرار التـــى لن تفكها لغـــة ولا تكشف عنها رموز .

لابد لكل قبو من مسافة مؤدية . ممر أو درج ، القبو مؤجل حتى اللحيظات التى يقع فيها الفض .

كل المعلومات والإشـــارات الســابقة تدل على مرقد لاناث من علية القوم ، لكن بعد انهاء المغاليق ، الإصغـــاء إلى صرير البـــاب الذى لم يفتــح منذ ألفى عام على الأقل .

سرى شعاع الضوء فمس الرقدة الأبدية ، انتهت رحلة الأشعة الشمسية ، المنبعثة من الأوار الملتهب إلى الحيز المكنون ، وكانت مفاجأة .

فقط تابوت واحد من حجر جيرى أبيض مائل إلى الوردى ، مفتوح بدون غطاء ، تتمدد داخله ، كأنها أغفت منذ لحيظات لا غير، مكتملة البهاء ، إغماضة عينيها تحديق وطلة إلى الماوراء ، إلى ما يصعب رصده بالبصر ، سلام ملامحها مطمئن . مهدئ . أما فتنتها الصابرة فضارية ، ثدياها مقببان ، لهما استدارة الكون وبزيزة الحلمتين ، المدرتين ، كأنهما سيتفجران بالغذاء السخى .بطنها مخمص، مؤذ بانحداره إلى قبوها المتين ، المصون ، ومبرز لنهوض وانبساط فخذيها ، يغطى هذا كله رداء رقيق من نسيج طيفى شفيف ، للأزهار المصطفة على حافتى التابوت زهوة ، أما رائحتها الأنثوية الخاصة ، فلكل امرأة عبير يخصها ولا يتكرر أبداً فكانت تعبق الموضع كله .

كل ما ينبعث منها حاض ، محرض مستفز للكوامن ، بدت متأهبة، متطلعة إلى القدوم . حتى أن الرجل بدأ يدنو منها حذراً . منتشياً بتلك البواعث الغامضة ، ومضت إليه قشعريرة لا يمكنه القياس على مثيل لها .

لم يخطر بباله قط أن يلمسها رغم الأحاسيس الغامضة التى أمضى عمره يخشى مجرد استعادتها مع طوافه دائماً بذلك الوقت القائم بذاته ، بدأت أصوات العمال فى الظهور . قدر أنهم عند بداية الممر. مد يده للإمساك بلفافة البردى البادية فوق اكليل شعرها المصفف لكنه كف ، بل تراجع ، كأنها توشك على الحركة ، لكنها نبضات ذاهبة . آفلة .

مع اعتياده على الرؤية ، مع تدفق الضوء إلى القبو الضام الحاوى ، يتغير لونها ، بدأ تدريجياً على مهل لونها يتحول إلى قتامة ، بقدر مجئ النور من الخارج تتحول إلى كائن معتم ، تتداخل معالمها ، يذوى شعرها ، جبهتها ، عيناها ، عنقها السبسابى ، صدرها ، خصرها عمارتها اللدنية .

يكتمل الضوء

لا يبقى منها إلا رماد هش ، لا يمكن جمعه أو الامساك به . هنا أنقل عن سامى جبره نص ما دونه بالانجليزية ، وترجم فى كتابه المطبوع بالعربية .

«حاولت أن أبرئ نفسى . فلم أجد هناك من سبيل سوى أن أعاهدها على ترديد ذكرها ، وذكر قصتها على سمع كل زائر متمنياً أن يحقق الله ما كانت تتمنى ويتمنى أهل زمانها من وراء الموت ، ولقد ظل خيال تلك المسكينة يطاردنى دهراً ، خاصة حين يقبل الليل ، ولسوف أذكرها وأعتذر لها ما حييت ..»

رغم علمه ودرايته وندمه الذى لن ينفعه أو يفيده ، إنه هو نفسه بدأ تلاشيه مع تمام اختفائها ، وأن الضوء الذى فض عزلة القبو وصيانته دفع به أيضا إلى حيث لا يمكن الوقوف عليه الآن ، لم يحط علما بأن لكل سر ، سرا !

حكاية

قصــــر

بعد ذيوع ما جرى فى القصر وتناقله عبر الأفلاك ، وانتشاره بلغات شتى . شغل كثيرون بأمر البارون والقصر ، معلومات بلا حصر وأحاديث واهتمام واسع ، لكن ما من صورة واحدة نشرت للبارون ، وما من معلومات موثقة ، لها صفة المرجعية ، أما الخفير فلم ينطق !

الشائع من أمره أنه جاء من بلد أوربى ، اختلف فى أمره ، قال البعض إنه فرنسا ، وقال آخرون إنه بلچيكا ، ودللوا على ذلك بتسييره أول خطوط للمترو عرفتها مصر قبل بداية تشغيلها فى أقطار أوربية ، كل عرباته بلجيكية الصنع . أطلق عليها الناس صفة الأبيض بسبب غلبة اللون على جوانبه ومقدماته ، كانت العربات تقوم من مصر الجديدة كما أطلق البارون على الضاحية فارغة ، وتقطع المسافة حتى العباسية آخر حدود القاهرة العامرة وقتئذ . ويؤكد كمسارى معمر أنه أمضى ثلاثة شهور كاملة بدون أن يقطع تذكرة واحدة ، كانت العربات تقوم فارغة وتعود كذلك ، أما المبانى الفسيحة ، المشيدة على الطراز العربى ، ذات الأبراج والممرات الفسيحة التى تظلل المارة من حر الصيف ورياح الشتاء الباردة . فبقيت سنوات عدة لا يقربها أحد ، ولا يقدر على تأجيرها إنسان ، حتى اضطر البارون لإنجاح مشروعه ، وإغراء الناس بالتردد على الضاحية الجديدة أن يستقدم فرقاً للألعاب من أقطار مختلفة لتقديم عروضها فى أول مدينة ملاهى تقام فى الشرق كله، وكان اسمها «لونا بارك» ، المعمرون يذكرونها جيداً ، أثناء تقديم العروض المبهرة يتم توزيع الإعلانات الداعية، موضحة بالصورة المبانى وأقسامها ومساحاتها ونظم تسديد أسعارها على سنوات بسبل ميسرة ، شقق فسيحة ، قصور باذخة ، يحيط كل منها حديقة فسيحة متعددة الطرز ، زخارف قوطية ، عناصر أندلسية ، واجهات عربية ، أعمدة فرعونية ، قباب قبطية، فضاءات منطلقة ، حدائق سندسية ، أطلق عليها البارون هليوبوليس ،

ولكن المصريين اعتبروها مصر الجديدة ، هكذا سارت التسمية وشاعت وتجاوزت ما عداها .

لسنوات عدة بقيت الضاحية شاغرة تقريبا ، أقام البارون عدة مآدب كبرى حضر إحداها الأمير محمد على ولى العهد ، لكن تلك الحفلات الناعمة لم يقمها فى القصر الشهير ، ذلك أنه لم يكن قد استقر به بعد ، إنما تمت كلها فى الفندق الفسيح ، متعدد الطوابق ، فاخر التأثيث . ثبتت فى ممراته وحجراته التحف النادرة والمرايا المؤطرة ، والسجاد اليدوى شيرازى المنشأ .

كان الفندق من المعالم ، تقلبت أحواله ، وتبدلت معالمه مرات ، قصده أثرياء الدنيا مباشرة خلال العهد الملكى ، وأقاموا به فى الشتاء سعيا لاستنشاق هواء الصحراء الخالى من التلوث . كانت الأجهزة المعنية فى أوربا تعتبر الضاحية من أنقى مناطق العالم وأبعدها عن التلوث ، إضافة إلى قرية كرواتية تقع على الطريق المؤدى إلى مدينة موستار ، وبحيرة جبلية فى مرتفعات كردستان العراقية.

فى الستينات بعد تأميم الشركة الأجنبية التى أدارت الضاحية لمدة ستين سنة منذ أن أشهرها البارون ، أهمل أمر الفندق ، ثم تحول إلى مكاتب ومقر للحكومة الاتحادية ، بعد وقوع الانفصال بين مصر وسوريا أصبح مقراً للحكومة المركزية ، تحولت الحجرات، التى شهدت ما شهدت، إلى مكاتب للموظفين ، ثم جرى تجهيز قاعة الرقص الدائرية وعقد فيها أول مؤتمر للقمة الإفريقية ، أهمل أمره مدة ، ثم جرى اهتمام به ، وأعيدت صياغة أجنحته وممراته وقاعاته ، وأصبح مقراً رئاسياً وقت هذا التدوين ، فيه تدبرالأمور ، وتخرج التصريحات المؤثرة .

كل ما خطط له البارون جرى ، ازدحمت الضاحية ، اتصل العمران بينها وبين العباسية ، وتجاوزها من الجهة الشرقية حيث مدينة نصر ، ومن

الشمالية حيث المطار ، كل شيء تحقق أمره كما تنبأ البارون عدا القصر .

لغز قائم ، موضوع محير ، بناء غامض ، مرهوب الجانب ، غير محرض على المغامرة رغم كل ما يقال عن كنوز خبيئة وأموال دفينة مضروبة من الذهب الخالص عيار أربعة وعشرين .

يقع القصر شرق الضاحية ، فى البداية كان منفرداً ، غير محاط بشيء عدا السور الذى مازال قائما وتتخلله بوابة واحدة تؤدى إلى الممر الذى لابد من عبوره للوصول إلى أول الدرج الفسيح المؤدى إلى المدخل ، هذه المسافة الفاصلة تهيىء الانسان بشكل ما . هل يتعرض لمؤثرات مصدرها تلك النقوش الغامضة فوق الواجهات الأمامية والأبراج الجانبية أم توجد أمور أخرى لا يمكن تحديدها ؟

اختلف القوم من عقد إلى آخر ، بل من موضع إلى موضع ، لكن من الثابت أن العمران لم يسر إلى الضاحية إلا بعد اكتمال القصر ، إذن متى بدأ البارون فى تشييده ؟

ما من إجابة قاطعة ، لكن المهتمين بتاريخ الضاحية يؤكدون أن التخطيط الأصلى لم يحتو على أى موقع لهذا القصر ، وأن البارون لم يقض فيه ليلة واحدة . بل لا توجد وثائق تثبت ملكيته إلى شخص بعينه ، حتى ولا البارون الذى خطط لإقامة الضاحية وبذل من أجلها الجهد وصفوة الابتكار .

حفلاته أقيمت فى الفندق ، جميع الشخصيات التى استضافها نزلت فيه، أما هو فكان يتنقل بين ثلاثة أو أربعة أماكن للإقامة ، بل كان يمكنه فتح أى بيت ودخوله وقضاء ما يريده من وقت ، سنوات عديدة كان مقيما بمفرده فى الضاحية ،. غير أن الإقبال تزايد فجأة ، قبل مد خط الترام الأبيض ،

السريع ، وقبل أن تثمر أشجار الحدائق الفسيحة التى خطط لها بعناية ، وكان يسقيها بيده صباح كل يوم . وبمجرد اكتمال القصر بدأ توافد الناس .

ما من إجابة محددة ، ما من وثيقة مؤكدة ، تؤكد أو تؤرخ أو تلمح للتاريخ الذى بدأ فيه بناء القصر ، هنا يقول عمدة النوبيين الذى تخطى التسعين، وحاز ثقة البارون ، حتى أنه أمضى سنواته الأخيرة لا يتناول طعامه إلا من يديه ، ولا يشرب إلا ما يقدمه إليه . يقول النوبى العجوز الذى اتخذ من مقهى قديم مطل على الجامع مقراً له بعد تقاعده ومغادرته الخدمة، واحترافه أعمال سمسرة صغيرة تكفل له رزقاً يحفظه من مد يده إلى قريب أو غريب ، يؤكد أن القصر بنى فى ليلة واحدة . نام القوم ولم يكن موضعه إلا خلاء لا يجرؤ أحد على الدنو منه لوحشة الناحية وبعدها عن الضاحية المهجورة أصلاً .

استيقظ الناس ليجدوا هذا البناء الفريد فى هيئته ، الغريب فى قسماته ، لا يماثله بناء آخر فى القاهرة ، أو أى مدينة أخرى ، بمجرد ظهوره ومثوله فى الفراغ بدأ النحس يفك عن الضاحية الجديدة ، حتى أن المساكن والبيوت المستقلة شغلت خلال ستة شهور فقط بعد أن ظلت ما يقرب من عشر سنوات فارغة ، مهجورة ، رغم كل الإغراءات المعتادة والمستحدثة .

ما العلاقة بين اكتمال القصر وعمارة مصر الجديدة وإقبال الناس عليها ؟

ما من تفسير عند النوبى أو غيره ، لكن لم يتوقف أحد من المهتمين أو ذوى الصلة ليحاول بحث الغرض من إنشاء القصر ، الطبيعى أن الإجابة الفورية التى ستخطر على الذهن تدور حول اتخاذه مقراً للبارون ، لكن المؤكد أنه لم يقض فيه ليلة واحدة ، ربما شوهد يتجول بالحديقة التى حفلت بكل نادر من النبات والأشجار قبل أن تجف وتخرب فى الخمسينات بعد انقطاع المياه تماما عن

تلك الجهة لمدة عام . لم يتبق إلا بعض أنواع نادرة من الصبار، قيل إن مصدرها المكسيك .

النوافذ مغلقة ، لم تفتح ، الأبواب الرئيسية والجانبية كأنها مصمتة ، ثبت من التدقيق الذى تم بعد الأحداث أن بعضها وهمى لا يؤدى إلى شئ معروف ، دائما مغلق ، مشرف ، باعث على الرهبة ، جالب للصد ، مرجف لكل من يخطر بباله أن يجتاز السور وأن يقتحم بحثا عن مغنم سهل أو صعب ، لذلك لم تسجل محاضر الشرطة واقعة واحدة طوال ما يقرب من تسعين عاماً تتعلق بمحاولة سرقة أو تسلل أحد الغرباء . ربما لعدم وجود من يبلغ أو يشكو ، ولكن بعد ذيوع أمر الأحداث الأخيرة ، تردد أن خفيراً من الصعيد يقيم بشكل دائم لحراسة القصر . يتخذ من غرفة صغيرة إلى يمين الداخل مقراً ومأوى ، غرفة تبدو جزءا من الجدار وردى اللون ، نفس لون القصر ، تلك الدرجة من اللون التى تبدو متربة ، غابرة .

« من جاء بك إلى هنا ؟ »

« أبى .. »

« وأين أبوك ؟ » .

« توفاه الله منذ زمن ..» .

« ومن أتى به ليكون حارسا للقصر؟» .

« البارون » .

قال فى المحضر الرسمى إنه من أسرة خدمت البارون منذ مجيئه إلى القاهرة واختياره موقع الضاحية ، لم يكن ثمة شئ إلا الخلاء والرمال ، وكم من ليال أمضاها البارون فى خيمة صغيرة ، لم يصحبه وقتئذ إلا والده الصعيدى المولود فى قفط . والمدفون فى حديقة القصر .

« أين ؟ » .

« لا أعرف .. لكنه هنا .. » .

« مع البارون ؟ » .

« والله يا بك لا أدرى ، أنا جئت من البلد لأتسلم ما تركه لنا الوالد . وعندما قيل لى إننى يجب أن أشغل مكانه كما أوصى لم أتاخر» .

« من سلمك متعلقات الوالد .؟» .

« البارون .. رحمه الله » .

« أين هو ؟ »

* تطلع الخفير الجنوبى إلى القصر ، ولم ينطق ، إنه ذلك الصمت الرادع ، الجرانيتى ، لا يشجع المستجوب على الاستمرار ، وبمثله أخفى أهل الوادى الكثير من أسرارهم الحميمة وما يتعلق بخباياهم عن ممثلى السلطة، ورجال الدرك .

تحريات مكثفة حول الخفير وأقاربه ، وفى أحد الاجتماعات الأمنية رفيعة المستوى طرحت فكرة اعتقاله طبقا لقانون الطوارئ ، أو إقصائه ، غير أن قيادة أمنية مهمة أكدت استغلال الخفير للقصر فى أغراض مشينة غامضة ، وأنه سمح لبعض الرجال والنساء بدخول الحديقة ليلاً ، الحديقة وليس مبنى القصر نفسه ، وأنه تقاضى أموالا طائلة من هؤلاء الشبان المضللين ، المخدوعين ، الذين لم يلقوا من ذويهم رعاية ، وأجرى آبائهم الغائبون المال عليهم ظناً منهم أن فى ذلك تعويضا وتسديدا للذنوب الكامنة . لم تهتم القوى السياسية باستيعابهم وغابوا عن حسابات القيادة المركزية فوجدوا من يملأ عقولهم بالتضليل والإفك . استجابوا إلى الدعوة وصدقوا إفك المريبين من الوافدين والمقيمين المضللين واتجهوا إلى

عبادة البارون ، بدأ ترددهم على القصر سعياً وفضولا ثم تبركاً ، أدوا شعائرهم فيه . وأصغوا إلى من يتلو عليهم مقاطع من سيرته ، كيف قدم عبر البحر إلى الصحراء القاحلة ، لم يمض ساعة واحدة فى المدينة الساحرة، التى كانت مقصداً للرحالة والمغامرين والقادمين من الغرب والشرق، بحثاً عن الكسب والإثارة وللفحص والمعاينة ، جاء مع النوبى وضرب خيمته ، وبدأ يصيغ المكان على هدى من إلهام يتلقاه مباشرة عبر أشعة النجوم ، لكن قبل الخوض فى تفصيل هذا كله يجب التوقف عند خصائص هذا القصر . ما ظهر منها وما بطن .

أما الظاهر فغرابة بنيانه ، إذ لا يمكن إرجاعه إلى طراز معين ، لكن أساتذة العمارة يقولون بغلبة العناصر الهندية ، ربما شجعهم على ذلك الأبراج المنقوشة بالأقواس المتدرجة ، الصاعدة إلى تلاش مكين ، غير أن أحد أساتذة العمارة بكلية الفنون معنى بتطور النواحى العمرانية للقاهرة والتأريخ لها . رصد ما لم يصدقه الأقربون منه ، الواثقون به ، عدا بعض تلاميذه ، منهم ثلاثة رصدوا بين المترددين على القصر فيما بعد . لاحظ الاستاذ أن الصور الملتقطة عبر مسافات زمنية غير متشابهة ، كأن البناء مغاير تماما فى كل منها ، الأبراج مثلا فى الصورة الثانية الملتقطة خلال الثلاثينات كانت تبدو منفصلة عن المبنى الرئيسى ، المسافة واضحة ، يمكن لرجلين بالغين متجاورين أن يمرا من خلالها ، هذه المسافة لا وجود لها فى الصور الملتقطة خلال الخمسينات ، فى تلك المرحلة تبدو الأبراج جزءاً من المبنى ، تنطلق منه ، أما عددها فازداد واحداً لم يكن موجوداً فى الأصل ، كذلك تختلف الزخارف والمنمنمات والنقوش وفى كل لقطة عدد مختلف لدرجات السلم الأمامى ، سجل أيضا اختلافا للمسافة الفاصلة بين المبنى والمدخل الخارجى الذى يتخلل السور .

أعد دراسة تفصيلية ركز فيها على النقطة الأخيرة ، خاصة أن بعض من ترددوا على القصر لأسباب مختلفة أكدوا ذلك ، إذ تفاوت إحساس كل منهم بتلك المسافة ، بعضهم قال إنها لم تستغرق أكثر من ثوان ، آخرون قالوا وأكدوا أن تغيرات جرت عندهم خلال تلك المسافة القصيرة ، حتى ليمكن القول إن أعمارهم تقدمت خلال هذه الخطوات سنوات بأكملها .

وهن ، شرود ، حيادية مفاجئة ، أقوال عديدة تتعلق بهذه المسافة لذلك تجنبها كثيرون وخلال الحقبة الثورية لم يسع أحد إلى تأميمه أو وضع يده عليه ، وخلال المرحلة الانفتاحية لم يجل بخاطر أحد المغامرين أو المتخصصين فى قنص العقارات التى اندثر ملاكها بالموت أو الهجرة أو الغياب الغامض ، ثمة مبان تسقط من ذاكرة المدينة ، قصر قديم ، مدرسة استخدمت زمناً ثم أغلقت لخلل أو خلاف ، يمر القوم بالأبواب والنوافذ المهملة يومياً ويتطلع البعض ،. وربما استخدمه البعض منهم فى أغراض عابرة ، اختفاء من مطاردة ، أو قضاء حاجة ، أو خلوة دفعت إليها الرغبة المحمومة ، وربما ينتبه بعض من لهم قدرة على النبش والتحرى فيضعون لافتة تعلن عن ملكية غامضة وتحذر الآخرين من الاقتراب . جرى ذلك لمبان عديدة بعضها فى مناطق مختلفة ، منها المزدحم ، على مقربة من منشآت مهمة مؤمنة ويقف عليها حراس أشداء ، رغم كل التطورات ، لم يقترب أحد من قصر البارون ، التفسيرات بعيدة ودانية معاً ، ينحدر بعضها مما تردد حول الآثار الفرعونية فى الصعيد عن وجود حارس خفى ، رصد ، يلحق الأذى بكل مقترب ، باذل للمحاولة . غير أن عدم المساس بقصر البارون له أسباب أخرى ، عديدة ، ليس من بينها الخشية ، الأمر ما زال يحتاج إلى فحص وإلمام ، المبنى ليس مهجوراً تماماً أحيانا يتردد عليه خبراء العمارة من المصريين والأجانب ، أو زوار أو هواة آثار ،

يصحبهم الخفير ، أو يدعهم يتأملون النقوش والأقواس والأبراج ، لكن إذا رغب أحد في الدخول يسرع إليه ليصحبه . لا يسمح إلا بإلقاء نظرة من المدخل ، خطوة أخرى يحتد ويغضب أيا كان الواقف إلى جواره، لكنه هو نفسه سمح بتردد أولئك الشبان ، ليس نهاراً ، لكن .. ليلا أيضا ، هذا ما تردد عبر الصحف وأجهزة الإعلام المختلفة ، عندما شاع الأمر وأصبح على كل لسان ومحور اهتمام لمدة ليست بالقصيرة ، بل إن تحقيقات عدة أجريت معه قامت بها جهات متعددة ، وأبدى خلالها تحملاً وجلداً وقدرة على المداورة ، كما انتبه إلى فضول محققيه ورهبة بعضهم ، أحدهم سأله خفية :

« أحقا ما زال البارون مقيما داخل القصر ؟ » .

طبعا لم يجب بنعم أولاً ، إنما تطلع صامتاً ، بارداً ، حتى خشى من يواجهه ، فكف ، اضطر إلى توجيه سؤال آخر سمعه الخفير أكثر من مرة بصيغ مختلفة .

«إذن .. أين ذهب أولئك الشبان»

ليس المحققين فقط ، إنما المحامين المنتدبين من أهالى الشباب المرصود ، الغائب ، الأمر محير للجميع ، والخفير هو الشخص الوحيد الماثل أمام الكل ، بدأ ذلك عندما وردت معلومات إلى مديرية الأمن الخاص بظهور دعوة غامضة بين عدد من الشباب لـ البارون ، تدعو إلى تأمل خصاله ، وما انفرد به ، وتروى سيرته ، ومجيئه إلى الصحراء ، وخطوات عمارته لها ، وظهور هذا القصر فى ليلة ، وحيرة الخلق فيه وعدم ظهوره منذ دخوله آخر مرة إليه فى العشرينات . وقيل إن الشبان المغرر بهم يسجدون أمام باب مصمت لا يؤدى إلى شئ ، مرصع بالفسيفساء الملونة ، وتلك علامة الامتثال للبارون !

تفسيرات شتى أبديت . ومقالات ظهرت وكتب طبعت وراجت ، وارتفع توزيع بعض الصحف والمجلات . كما أعدت برامج إذاعية ودارت اسئلة حول الأسباب الدافعة ، ماذا جرى للشباب؟ ، ما سبب الفراغ الذى يعانون منه ؟ كيف عرفوا الطريق إلى البارون وأفكاره ؟ ما دور شبكة الاتصالات الدولية ؟ كيف يمكن تحصين الشباب ضد هذه الأفكار؟ ، كما جرى كلام كثير حول الفراغ الروحى ، وهزال الأحزاب . وطالب مسئول أمنى كبير رفض الإفصاح عن اسمه بهدم القصر، لكن أساتذة الآثار حذروا من ذلك ، وهددوا بطلب التدخل من منظمة التربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) ، وتردد بالفعل أن ثمة بحثاً بدأ لاعتبار القصر أثراً يجب حمايته لكونه متفرداً ، لا مثيل له ، ومن تجليات البناء الإنسانى .

كثير من الأمور المتعلقة بالقصر مسكوت عنها ، بدءا من تصميمه ومدة تشييده ، وحقيقة زخارفه وما يقع لعمارته من متغيرات ، وما يوجد بداخله ، إذ اختلفت الروايات بين قائل يتعجب من الفراغ الهائل الذى لا يسنده عمود واحد ، وبين من يضع رسوماً للدرجات الصاعدة والأخرى الهابطة والمستويات المختلفة والغرف المؤدية إلى بعضها ، والتى يمكن من خلال كل منها رؤية المساحات الفاصلة . جرى الصمت أيضا حول حشد قوات من خلاصة الحراسات المدربة . وبعد أن تم التأكد من دخول عدد يتجاوز الأربعين بدءا من العاشرة ليلاً ، جرت عملية الاقتحام بدون ضجيج حتى أن نزلاء الفندق القريب لم يشعروا بأى شىء ، كذلك المارة فى الطريق المؤدى إلى المطار . عند الفجر تم إحصاء القوة عدة مرات . والتأكد من خروج جميع أفرادها .عند انصرافهم اصطحبوا معهم الخفير . اسئلة عديدة وجهوها إليه ، سمعها من آخرين توالى عرضه عليهم فى الأيام التالية ، اختلفت الصيغ لكن المطلب واحد . ورغم كل ما تحمله لم ينطق ، ولم يحد عن هز رأسه نفياً ..

مصطلح

درج

الدرج مرقاة ، فهو توق ، وهذا لايكون إلا لصعود أو انتقال من سفل إلى علو، ومن هنا تكون المحاولة ، فالانتقال من موضع إلى موضع مساو له فى الأفقية يقتضى بذل الجهد ، فما البال إذا كان مضادا للقوة الحافظة ، الماسكة لكل ماهو حى أو نبات ينمو أو طير يحوم أن يفلت ويتوه فى فراغات الكون . وتلك القوة القابضة لانراها ، ولا نلمسها ، ولايمكن تعيينها ، أو وصفها ، أو إرجاعها إلى عناصرها الأولى، تماما شأن كل ما يؤثر فى مصائرنا ، الزمن مثلا ، نرى أعراضه ولا ننفذ إلى جوهره ولا نقف على مايجرى فى مساره ، ولايمكننا تحديد أوله . وبالتالى آخره ، فكل ماتدرك بدايته يمكن تحديد نهايته ، وليس الأمر إلا بحث وتقص وازدياد.

للصعود زهوة ، وجلوة ، وما الدرج إلا مساعد ، فالمسافة إلى أعلى تقطع بميل . كل درج مائل مع أنه مؤد إلى أعلى ، لابد من ميل حتى وإن بدا للناظر المتعجل مستقيما كحرف الألف . وأول أرقام العدد ، ذلك أن الوصول يقتضى الميل ، والطريق الذى يبدو للناظر الجاهل مستقيما ، مفرودا ، مبسوطا كل البسط ، إنما يتضمن فى حقيقته ميلا ، ذلك ان كوكبنا كروى ، وأفقنا دائرى ، ولو أن الطرق كلها مستقيمة لما أدت إلى بعضها. هكذا ألمح وبهذا صرح الشيخ الأكبر رحمه الله .

كل درج مائل ، هذه حقيقة وسمة ، كل درج من أجزاء ومن كل ، فالدرجة الواحدة يسيرة ، هينة ، تؤدى إلى غيرها ، وبذلك يتم تجزىء الصعود ، وتقسيم المجهود ، وتيسير المطلوب ، والبناء الماهر ، من يتقن زاوية الميل ، فيأتى بها بحيث تخفف عن الطالع ، وتيسر للنازل ، ولايجعلها دفعة واحدة ، فيدخل على التقسيم تقسيم ، فكل سبع درجات تليها بسطة ، أو مساحة ، أو لوح معلق إلى الجدار ، يبذل المفتن جهدا فى إخراجه وإتقانه ، وتسهيل الأمر على الصغير والكبير ، ذلك ان

الطفل يرتقى الدرج بصعوبة ، ويقطعه الصبى والفتى بسهولة ، غير ان دبيبا خفيا يسرى ، ويلوح وهن يصعب رصده ، ينتبه المرء اليه عند لواح علاماته ، وظهور إشارته ، وليس هذا كله الا نتيجة وبداية أيضا لنهاية مع الفتوة لا يتوقف المرء للنظر والتمعن ، يتخيل أنه بالغ للمهيمنية ، لكنه عند أول عارض يصير مجبورا على مراعاة الحركات والسكنات ، وإسناد الخطو إلى بدايات الدرج بحذر وخشية من انقطاع الأنفاس وعدم القدرة على تحصيل المراد وهو جد يسير ، ورغم اختلاف المصادر وتباين الأحوال ، فثمة شبه لاتخطئه عين حصيف بين صعود الصبى الصغير ، طرى العظام غض المفاصل ، وبين محاولة الواهن ، إما بتأثير التقدم فى العمر أو سريان العلة .

يكون الدرج أحيانا ظاهرا إذا تعلق بالبناء من خارجه . وقديما كان هذا شائعا ، رائجا . لكن الانسان جبل على طى سرائره وإخفاء كوامنه . لذلك آثر إخفاء الدرج فى الداخل ، إذ أن الصعود رغبة ، والنزول رغبة ، ومايتصل بالسرائر يستحسن أن يظل بعيدا عن الأبصار، غير متاح للعابرين والفضوليين والأغراب عن البناء . فالعمارة إقامة ، والطريق عبور .

العاقل ، الحصيف من يعرف أول الدرج وآخره ، ومقداره ، وتعينه ، ومايقتضيه من جهد ومايستلزمه من بذل ، ولهذا كله تدبير فإذا شط وخرج عن الخطة ربما يلقى ما لم يعد له الأهبة ، الذى حلت به طاقة وثابة ، ربما مصدرها فلكه الشاسع ، وقوته الحامية وقدرته المطوعة، ومهابته الرادعة . لكن هذا كله ليس مصدرا لجموحه ، فكم قبله وبعده امتلكوا اسبابا للجاه والسطوة وفرض القدرة ، لكنهم لم يقدموا ولم يشرعوا إلا بقدر ، رغبة تجاوزت حتى حدود الحلم ، وشسوع الخيالات الراكضة ، لم يكتف بالتأمل ، بالحلم ، إنما شرع لعله يبلغ الاسباب ،

رغم غموض النتيجة وضعف الإمكانية ، لكن قدرته على المحاولة لم يعرف أحد مثلها حتى عصره. دعا مهندسيه والمعلمين الكبار الذين رافقوه فى حملاته وشيدوا له المنازل المؤقتة ، والجسور الواصلة ، وأتموا مابدأته الرياح وتعاقب الحرارة والبرودة واتخاذ الأمطار والسيول مسارات نافذة أدت إلى تلك الطرق الطبيعية الصاعدة ، النازلة ، أرسل ليستدعى مصممى الأبراج المتنقلة ، ومنازل الطيور الساعية ، المهاجرة، والتى بقى بعضها لما لقيه داخلها،.وهذا عجيب ، وهؤلاء مدوا له أيضا القنوات التى تكفل السقايات والمدد .

أطلعهم على مايرغبه ، أنَ يقيم برجا يتجاوز به السحاب ليبلغ النجوم الأقاصى، أن يأسر الشهب المارقة ، التى تذوى بمجرد أن تبدو ، أن يوقفها من مصادرها . ...

قال إنه يمهلهم مقدار دورة من دورات الفلك . لم يعترض أحدهم ، ولم ينطق سؤالا أو استفسارا ، فمثل تلك الجلسة ليست إلا للإبلاغ أما الجدل فيحين فيما بعد . غير أن مثل هذه الأمور مما تحدث أصداء شتى، لعل أشدها وضوحا خروج الحكيم من خلوته ، ومضيه إلى التواق الأعظم . يختلف القوم فى تقدير عمره. لكنه معروف للصغير قبل الكبير . انه بمثابة العتبة للدرج ، فلكل درج عتبة مؤدية ، وأخرى تنهيه، حتى وإن لم تمثل فى البناء ، انه الوحيد صاحب الحق فى المملكة كلها الذى يحق له الاعتراض الجهورى ، ورفع الصوت عند الحديث اليه ، ودفعه فى صدره تنبيها أو زجرا لكل أوان حكيم مثله ضمانا للردع عند الخرق ، وحجبا للتجاوز . عندما ولج الخلوة الملكية ، أدرك التواق الأعظم سبب قدومه ، فبادره بالسؤال .

كيف يمكننى رؤية الكواكب والنجوم ولا أقدر على بلوغها ؟

قال المقيم ، القديم :

ليس كل مايراه الانسان ببالغه ..

قال إن ماتحيط به الحواس الفاعلة لايدرك كله ، ولايمكن فهم الكثير منه ، أو إدراك أصله ومساره ، كل درج مصنوع أو حفرته العوامل الطبيعية محدود بمدى، موهون بقدرة وطاقة ومايتاح الآن لايكفى تحقيق الغرض .

مال التواق الأعظم ، ذرف دمع الحيرة والرغبة ، دموع لايمكن ظهورها الا على مرأى من الرائى ، المدرك ، الحنون ، المتفهم له . ربت كتفه ، وملس رأسه ، وأصغى إلى دمدمة تطلعه وشوقه إلى مغادرة كل مألوف، ارتقاء درج غير عادى، لم يعرفه القوم من قبل لم يبد الكهل المتكلم ، الناطق بالخلاصة غضبا أو أسفا ، بل وسع فهمه لما أصغى اليه ، ضمه إلى صدره ، علامة الرضا والمباركة وتمنى السؤدد الجوال، قال ماتناقله القوم فيما تلى ذلك من جيل إلى آخر، تماما كصعود الدرج .

مباركة إرادتك..

ثم قال :

لولا الحلم الخارق لما وقع التحقق الماثل ..

ثم قال :

ابدأ درجك لعلك تبلغ به الأسباب ..

ثم أتبع قوله بإشارة تفيض مودة ومحبة حريصة ..

وتذكر دائما أن الدرج للصعود .. وللنزول أيضا ..

حكاية

بـربـا

كل عمارة تقييد ، تحديد لحيز ولحركة ، والكلام هواء ، تمسك به الحروف ، إنها سكنه ومستقره ، فهل أدرك المتعاملون مع الأقلام والقراطيس أنهم يقيمون أثناء عملهم عمارة للفراغات، للهواء ، وسكنا للأنفاس والرؤى ؟

هذا ما خطط له القدامى الذين عاشوا على ضفتى النهر، ورصدوا مرات فيضانه ، وارتباطها بمواضع النجوم وسريان الرياح الهبوب ، وتوقيتات قدوم أو ذهاب أنواع الطيور ، طال تحديقهم إلى الأعالى حيث الثوابت والموارق من شهب ونيازك .

الأمر ميسور الآن ، فما أكثر تنوع العمارة ، ولكم تعددت الحروف ، ولعل كثيرون يظنون أنه أغرب البنيان ، لكن .. هذا ليس صحيحا ، فثمة مايعد أغرب وأعجب .. وهذا يقتضى صبرا قليلا حتى يمكن التوضيح ، مايتصل بالمعنى ، ويصاحبنا هذا الذى جاء إلى مدينة سوهاج يسعى ، قاصدا بالتحديد رؤية شيئين طال انشغاله بهما ، وهما ، جلالة الملكة ميريت آمون مطربة الغروب ، وماتيسر من بقايا البربا .

صلته بالأمرين عتيقة ، وشرحها يقتضى تفاصيل لكن التوضيح ضرورى والإيجاز واجب فنقول إنه من مواليد الناحية ، صحيح أنه أمضى طفولته غرب النهر آخر حدود العمار وأول الصحراء ، حيث مسقط رأسه جهينة ، لكنه متعلق بكل مايمت إلى تلك النواحى ، حتى الظلال ، والنخيل الكثيف الأزلى ، وطلة الجبل على النهر الماضى من جنوب إلى شمال على سجيته ، لم تحده بعد طرق مصنوعة، ولم تطل عليه عمائر القادرين ، الطرق الضيقة التى مهدتها السنين وأقدام البشر ، وأشجار التوت والتين ورائحة الجوافة والمياه فى الآبار العميقة ، ولهجة القوم . تذكره بصوت أبيه وإيقاعات أمه عند الحديث ، لم يحتفظ بتسجيل لصوت والده ، وعنده رسالة بصوت المرحومة سجلتها الى شقيقه زمن سفره للدراسة ، لكنه لايجرؤ على الإصغاء اليها حتى الآن ، ثمة يقين

خفى ، لايـدرى مصدره ، أنه لو استمع إليها لاكتمل نسيانها وبدأ محوه هو أيضا .

اعتاد قبل مفارقة الفندق الصغيرة المطل على النيل أن يطيل النظر الى الجانب الآخر، البيوت المتضامة ، المتساندة ، لاشىء متميز فى مواجهته إلا النهر .

أشار موظف الاستقبال الى شاب أنيق يقف قرب مدخل الفندق يقول إنه ينتظر منذ عشر دقائق ، لم يره من قبل ، وتبدو هيئته غريبة ، غير متسقة مع من تعرف إليهم فى قصر الثقافة ، ملابسه أنيقة ، حضوره وسيم ، يقف إلى جوار سيارة حديثة الطراز، يقول إنه جاهز ، متأهب لمصاحبة سيادته .

قاهرى اللهجة والمنشأ كما توقع ، المقعد وثير ، الأجهزة عديدة معقدة ، هاتف نقال ، لايمكن أن يمتلك القصر عربة كهذه ، معظم مايتبعه من سيارات قديمة الطراز، انتهى عمرها الافتراضى ، لم يعبأ بنطق الاستفسار ، يؤجل ذلك الى لحظة تالية ، وربما خلا من الدافع تماما ، منذ إفاقته من أزمته الصحية والتزامه بنصائح الأطباء يتطلع إلى تفاصيل الحياة اليومية العادية وكأنها تقع وراء جدار زجاجى شفيف ، مايتصل به داخله أكثر وأعم مما يتصل به خارجه ، يتذكر الآن بعد تحرك العربة أنه لم يخطر موظف الاستقبال بموعد عودته .

وهل يثق ؟

ثمة ابتسامة إلى الداخل ، من اختل بنيانه يمكنه توقع أى أمر، مايشغله الآن يحيد به عن أى ارتباط أو خطة لاتتعلق بما يسعى إليه ، ذلك الحنين !

يرغب الصمت ، الاستغراق ، استعادة ماقرأه ، لكن هذا الشاب المعتد بنفسه، أنيق المظهر ، مثير للفضول ، يعرف تلك اللحظات عندما يستقر الى جوار من لا يعرفه ، يحاول إشاعة مناخ حميمى فى زمن يسير ، فى البداية أجاب باختصار مستخدما مصطلحات انجليزية عديدة ، لكنه تحدث باستفاضة عندما راح يجيب عن استفساراته حول السيارة الحديثة ، المكيفة ، إمكاناتها الاستثنائية ، خاصة فى الصحراء والأراضى السبخة ، تجمع بين الخبرة الأمريكية والتكنولوجيا

اليابانية والأناقة الأوربية ، إنها معدة للعمل فى الثلوج أيضا ، لكن .. ثمة تعديلات أجريت لتناسب المناخ الحار لمصر والمناطق الوعرة .

طريق محاذ للنهر ، يتجه صوب الشرق ، ناحية المرتفعات الصخرية البادية ، مقاه صغيرة ، رجل يرتدى جلبابا وعمامة ، يمسك مدفعا رشاشا ، يقف مستنفرا، مؤديا التحية شبه العسكرية لمن بداخل العربة ، لابد أنه يحتاط لنفسه ، من يدرى.. ربما كان راكبها ضابطا برتبة كبيرة ، أو موظفا بالمحافظة ، أو شخصا ما له نفوذ .

سلاحه غير خفى ، مشرع ، عربات الحراسة أفرادها عند النواصى ، آخرون يكمنون عند المداخل المؤدية الى حقول القصب أو الذرة أو مغارات الشرق والغرب.

توتر غير مستتر ، كثير من الاشتباكات لايعلن عنها ، فى أى لحظة ربما ينطلق الرصاص .

يقول الشاب فجاة : إن مسألة الارهاب طالت أكثر مما ينبغى .

يجيبه بطلة صامتة فضولية ، كأنه أدرك مايفكر فيه ، مايشغله ، ما جال بخاطره خلال تلك اللحظة .

يستأنف الشاب مؤكدا أن الأزمة لن تنتهى قريبا .

يجيبه مبتسما ، إن هذا كله لن يشغله عن زيارة جلالة الملكة ، والبربا .

يتساءل الشاب :

«أى ملكة»؟

«أحقا لا تعرفها» ؟

إذن صدق حدسه ، لاعلاقة له بقصر الثقافة ، لابد أنهم استعاروا العربة من ديوان المحافظة ، أو احدى الهيئات الأخرى ذات النفوذ ، سيؤجل الاستفسار الآن، غير أن مايتعلق بالملكة لايمكن إرجاؤه .

«ألم تسمع بمطربة الشمس عند غروبها» ؟

نظرته جانبية ، دهشة :

«أى مطربة ؟ أى غروب» .

«اسمها ميريت آمون ...»

«ميريت .. أنه الفندق الذى تنزل فيه .. أظنه نوع من السجائر أيضا» .

«لكنك تتجه إلى الطريق الصحيح .. كأنك تعرفها ؟» .

«هذه السكة مؤدية إلى الطريق الشرقى الصحراوى ...»

ثم قال :

«إنه مفض الى القاهرة ، إنه انجاز ...»

ثم قال:

«لكننى لم أدخل المدينة .. لا أعرفها .. ماذا قلت عن المكان الآخر ؟»

«البربا»

«ماذا يعنى ذلك»؟

«أثر قديم .. قديم جدا ..»

«لم أسمع به ..»

«به مالا يحصى من المبانى والبوابات الوهمية»؟

«أى وهمية .. ماذا يعنى ذلك»؟

«بوابات لاتؤدى إلى شىء محدد ، لكنها ...»

«لم أعرف شيئا كهذا ..»

يتمهل لحظة قبل أن يقول موضحا :

«مثل المحراب ...»

لايجيب ، نظرته الجانبية استفزازية ، عدوانية ، يفضل الصمت ، يحاول استعادة بعضا من ملامح الطريق ، أن يستنفز خبايا ذاكرته ، غير أن خضور النخيل الكثيف يطغى على ماعداه ، تتداخل النواصى التى يراها الآن بأخرى قديمة ، من مواضع شتى متباعدة ، خاصة الطرق العامرة برائحة التين والطين المستقرة فى أعماق القنوات المائية السارية إلى جذور النباتات والأشجار الموغلة .

يلح عليه طابق أول من بيت قديم ، متين ، شاهق البنيان ، وقته مابين اكتمال المغيب وأول إيغال الليل ، يقترب منه صغير بصحبة والده ، مقبل على الدنيا .

يفتح الباب الخشبى ثقيل المصراعين ، تاجر أقمشة اسمه محمد عمرو ، كيف احتفظ بالاسم والملامح ، لماذا تلك اللحظة بالذات ؟ بل إنه ليذكر لون الجلباب، ربما أزرق ، طربوش أحمر ، هذا مؤكد .. عدا ذلك يصعب اليقين .

يشير إلى لافتة زرقاء ، عليها كتابة بيضاء .

«أخميم» .

يتبع السهم ، مئذنة مرتفعة وسط بيوت بعضها مشرف والآخر تابع ، أرض غير مستوية ، مشارف مدينة ، بوابات خفية لكنها ماثلة للاحساس .

كيف يمكن الاستدلال على الساحة المقدسة حيث تتطلع الملكة بلا نهاية محددة صوب الغروب ، تلك النظرة التى تتجاوز كل ماهو قائم الى ما يخفى ولا يبين ، نظرات ساجية ، راضية ، مرضية ، مطمئنة ، داعية للذهاب فى إثرها .

هنا يبدأ ما لايمكن إدراكه ، مايؤدى إلى فقدانه الاحساس بوجود مرافقه ، ضوء مغاير أو تغير ما طرأ على عينيه ، أم أنه زجاج العربة يتغير بشكل ما ؟

ربما ...

إنه معنى بملامح المدينة أكثر من الاستفسار عن تفاصيل تتعلق بالعربة المريحة والمكيفة ، تعزل ركابها عن أى واقع خارجى تمر به ، تعبره .

عندما جاء الى أخميم أول مرة أدركه حضورها رغم أنه لم يرها ، يثق الآن من قرب البربا ، يلتفت الشاب اليه ، يقول ساخرا:

«تذكرنى بعبدة البارون...»

يتطلع اليه صامتا ، من الأفضل أن يتجاهل هذه الملاحظة العدوانية ، الساخرة ، الصفيقة ، إن فارق العمر بينهما لا يسمح بهذه التبسط ، الغريب أن الملامح الجانبية للشاب تشبه مجايلا له تقريبا ، ظهر فى التليفزيون ، كان المصور يقدم ملامحه الجانبية فقط ، وكان مدير الأمن العام يتحدث عن الخطوات التى اتبعت والمراقبة الدقيقة التى تمت للمترددين على قصر البارون المهجور ، هذا الشاب بالتحديد أمضى ليلة كاملة متمددا بمفرده داخل المقبرة المستقرة فى الطابق الأرضى ، والتى تدور حولها أقاويل عديدة ، منها خلوها من البارون إذ أنه مازال حيا يسعى ، ومنها وجود بقايا أقاربه ، أما الدافع لمكوث ذلك الشاب تلك الليلة وحيدا ، متمددا داخل القبر ، فرغبته فى الوقوف على مايجرى هناك .

قال مدير الأمن العام إن القوات الخاصة المكلفة بالمتابعة رصدت كل خطواته ، وسجلت ماقام به من طقوس ، هنا وجه المحاور الشهير استفسارا ظاهره إحراج الضيف ، وحقيقته مجاملته.

«هل تم تسجيل ما قام به فعلا»؟

بهدوء واثق قال اللواء :

«طبعا .. طبعا»

ثم انتقل بيسر وسلاسة ليوضح خطورة مثل هذا التصرف على المجتمع

يستعيد المشهد ، يتعاطف مع الشاب الذى بدا مهموما ، مغموما ، مجبرا على الظهور .

«إنه يستحق تحية ..

يلتفت السائق الشاب :

«أى تحية ..»

يواصل منفعلا :

«بل جائزة لقضائه تلك الليلة ..»

يبتعد الشاب قليلا ، يبدو معنيا بإنهاء ، تلك الصحبة الغامضة ، خاصة أن السيارة بدأت تدخل شوارع المدينة العتيقة ، الضيقة، عندما جاء الى هنا لأول مرة لم يعرف عنها الا الاسم الموحى بالعتاقة ، وشهرة بصناعة الحرير الطبيعى بنفس الطريقة التى نسج بها الفراعنة الأقمشة لآلهتهم ، كانت مهمته عابرة ، وكان يمكن ألا يطأها مرة ثانية شأن المدن العديدة التى عبرها ولم يعد اليها ، لكن ... الأمر اختلف هنا ، رسخ عنده تعلق مكين صار يغار منه على صلته بمسقط رأسه ، جهينة على الضفة الغربية للنهر ، النهر هنا لايحدد الأماكن فقط إنما يعين الأوقات كافة ، وكلمة النهر تختزل الأمور والأوصاف لا تدل ولا تشى ، وربما كان مايتناقله القوم أقرب رغم بُعده أيضا عن الواقع ، يقولون «شرق البحر» أو «غرب البحر» .

النيل عندهم بحر ودعامات وأسقف غير مرئية ، وقيعان مخيفة غاطسة ، عمارة كونية ، لا يمكن تحديدها أو وصفها بدقة ، لا يذكر أمام أى مصطبة أصغى الى تلك الجملة التى نطق بها واحد من رجال المدينة الراسخين ، المقيمين ، قال :

«الشرح كله فى البربا ...»

لكن ... أين البربا ؟ أين؟

ثمة أوصاف مدونة فى كتب الأقدمين ، قرأ مشاهداتهم ومدوناتهم ، ما كتبه سترابون ، هيروديت ، ابن جبير ، ابن بطوطة ، ماذكره المقريزى ، ابن دقماق ، ابن اياس ، الرحالة الذين صعدوا الى مصر العليا حتى القرن السادس عشر ، هذا قرن فاصل ، جرى فيه أمر غامض بحيث لم يرد ذكر لها فيما تم تدوينه بعد ذلك .

صحيح أنه ما من وصف يشبه الآخر ، كأن كل منهم رأى موقعاً ، مغايرا وعمارة مختلفة ونزل بلدة غير أخميم .. فى البدء أرجع ذلك إلى اختلاف الأزمنة الذى يستتبعه تغير المعالم والأماكن ، ألا يعود أحيانا الى مدينة ارتبط بها زمنا ، يمشى فى الشوارع التى يعرفها ، والمقاهى التى يحفظ معالمها ، ويتمهل عند النواصى التى يتقنها ، لكنه لايجد شيئا من هذا كله ، مما عرفه ، لذلك يبدو عبثا محاولته لملمة معالم البربا من أوصاف مدونة يفصل بين بعضها مئات السنين ، السؤال الذى لم يقرأه .

أين موضع البربا الآن ؟

أين معالمها ؟

إلى من يتوجه بالسؤال ؟

هذا الشاب لايعرف المدينة ، لا يحفظ معالمها ، بعد صمته يبدو عدوانيا ، ساعياً الى المناوشة ، نظراته الاستفزازية ، إبداؤه الضيق ، يدركه الحرج ، لا يريد أن يثقل على أحد ، ما ذنبه ؟ ، هم الذين أرسلوا هذه العربة الفاخرة التى لم يكن بحاجة اليها ، لكنه إذا استمر فى التبرم وإبداء الضيق ربما أظهر رد فعل يحرص على كتمانه ، يقهره الحياء من الآخرين ، لكنه عند نقطة معينة لا يطيق صبرا فينفجر ، يحيد بنظراته ، حقا .. لكم كلفه هذا الحياء ، لايرغب فى استعادة أموره الخاصة وشجونه المفردة ، إنه مفض بكليته الى البربا ، إلى تلك العمارة الأنثوية الشاهقة ، المشرفة ، المتمركزة فى فضاء المدينة ، لا تزال الشوارع قادرة على استيعاب حركة السيارة ، لكن التقدم بطىء جدا للزحام وضيق المسافة معا ، تنبت البيوت من الأراضى المتربة المشبعة بالرطوبة والجفاف، والجذور الغائرة ، والأنفاس المتبقية ممن سعوا يوما ، عيدان البوص ، ذرات التبن العالقة ، رائحة دخان ، تتعدد سماته وفقا لمصادره ، المنبعث من أفران الخبيز الموقدة بقوالح الذرة وعيدان الحطب ، مغاير للمتصاعد من النيران الناتجة عن اشتعال البترول والسولار ، وللخبيز عنده مراحل شتى ومنازل .

لايسعى الى ما تحويه المدينة الآن ، إنما إلى ماكان وسيكون ، كل ما تضمه تلك الفراغات يخصه ، ينتمى اليه ، بل صيغ منه وتشكل، يود الانفراد ، أن يترجل ويمشى ، يقصد مايعرفه ، ومايجهله ، عساه بالغ مايبحث عنه ، مايتوقعه ، ليس لديه مخطط ، أو مراحل محددة بما يجب اتباعه أو ما سيدرج عليه ، إنما يتبع حدسا ومكونات يصعب تحديدها ، إنما اليقين مدركها ومحوم حولها ، فى بحثه عن البربا يتبع نداءات لم تنطق ، وسطور لم تدون ، وإيماءات لم تفسر ، يوقن أنه عند لحظة ما ، موضع ما ، سيواجه بما يبحث عنه ، بما يكد من أجله .

تهتز العربة يابانية الصنع ، المتقنة ، مطبات عميقة ، منحنيات ، لابد من التزام الحذر عندها ، نساء يغطين وجوههن يجلسن أمام فتحات البيوت الضيقة ، يهفو ويحن ، قعدة هذه المرأة المتقدمة فى العمر تحوى بشكل ما قعدة أمه ، اطراقة خاصة ، حضور طيب السمت ، كثيرا ما لاذ بمثله عند بدء القلقلة واستحكام الضيق ، وتمام الخنقة ، زار بلدانا شتى ، ورأى أقواما مغايرين ، لكنه لم يعرف مثل تلك القعدة الأمومية .

توغل المدينة عندهما ، أو يلجان فيها ، ما من علامة دالة ، يوقن أن مايراه يتساوى مع ماخفى ، غير أنه يفضل التعامل مع الظاهر . فلا يستدير إلا عند ناصية بادية لهما ، وإن كان يثق بوجود بوابات وشرفات وحجرات تؤدى الى أخرى وممرات وأفنية مؤدية ، موقن أن العربة فى تقدمها السريع أو البطىء المضطرب اجتازت عدة بوابات خفية ، ليست وهمية، فالوهمية حضورها قائم لكنها موصدة ، لا يليها فراغات، ليست بوابات ضخمة، هائلة من تلك المنصوبة فى الطرق العامة ليمر عبرها الزعماء، وأصحاب الشأن وكذلك أبناء السبيل المجهولين ، إنها بوابات مغايرة ، بالتأكيد يؤدى بعضها إلى البربا ، لا يعنيه وصف ابن جبير لتلك الشواهد السوامق ، المحفوفة ، بالأعمدة على الجانبين ، إنها بوابات خفية ، تستعصى على الرؤية لكنها مؤدية ، مفضية الى مالا يدريه ومالم يصفه أحد الرحالة أو الحجاج العابرين من قبله ، هكذا يقينه ، إنها الخطوات الأولى التى يليها بلوغ البربا .

تضطر السيارة إلى التوقف ، أوزة بيضاء ، نبيلة المظهر ، تعبر الطريق متمهلة، كأنها خارجة من رسم على جدار فرعونى ، قديم لم تبل ألوانه ولم تبهت .

يقترب شاب يرتدى جلبابا بلديا، ولبدة بنية اللون ، وشالا يلتف حول عنقه يتساءل ، يبدو أن هيئتهما تشى بهما ، بجهلهما القصد ، كذلك العربة ، يشى الجماد بما يجرى الكائن المتصل به .

«أنا مخبر سرى .. أركب معكما وأدلكما ...»

يبرز بطاقة ، لم يعن أحدهما بالتطلع اليها ، أفسح له مكانا ، إنه من أبناء البلدة أولا وأخيرا ، يتقن دروبها و مواضع مخارجها ومسالكها ، من ناحية أخرى ربما يخفف وجوده ذلك التوتر المتزايد ، كان على وشك مفارقة العربة واتمام مشواره سعيا على قدميه .

«إلى أين بالصلاة على النبى ..؟؟»

يقول الشاب بلهجة محايدة :

«إلى جلالة الملكة ..»

يلتفت اليه ، بالتأكيد كان نطقه محترما ، يخلو من أى تهكم ، بل كيف أدرك مقصده، هل أطلعه ونسى الأمر ؟

يشير المخبر الى الأمام .

«الطريق صحيح .. لكنه صعب .. ثمة سكك أسهل ..»

يتلفت حوله ، يقول بحزم :

«على طول .. ثم .. إلى اليمين ..»

من الضيق الى السعة ، لم يكن الطريق فسيحا كذلك المؤدى الى المدينة ، لكن عرضه يكفى لتحرك العربة بيسر واندفاعها الى الأمام بدون هزات عنيفة .

البيوت مختلفة ، منتظمة ، يفصلها عن بعضها مسافات ضئيلة أو فسيحة لكنها كافية ، معظمها بنى من الحجر القديم ، شرفاتها ذات أعمدة ، غير أن بيوتا

أخرى ظهرت ، متلاصقة ، جدرانها من طوب أحمر ، عشوائية ، غير متساوية، يتقدم بعضها على بعض ، الخرسانة بادية ، يرتفع صوت المخبر ..

«كل من سافر إلى السعودية أو الخليج رجع بقرشين وبنى بهم ..»

كأنه أدرك ماجال بخاطره ، أو استنتج ما لاحظه من اتجاه البصر والتعبير ..

«هدموا بيوتهم الواسعة وسكنوا الشقق الضيقة» .

كل واحد يقول .. بيت فلان بنى .. اشمعنى» !

يلوح مشيرا :

«أما بناء الجوامع .. المساجد الآن أكثر من البيوت ، أصحابها يقفون الآن أمامها ينادون على الناس ليدخلوا ..»

لم يعلق أحدهما عليه ، يقول كأنه يحدث نفسه ..

«عجائب .. والله عجائب .. يمين ياأسطى»

يبدو الضيق على ملامح الشاب .. لم تعجبه كلمة أسطى .. تتناقض مع أناقته وبشرته الناعمة ، وشعره المصفف ، يمت الى فئة معينة من العاصمة ، لكن جلوسه خلف المقود ، وربما هيئة ما جعلت الشرطى السرى يصر على تكرار «يا أسطى» .

تضيق الطرق ، دكان خياط بلدى ، يجلس صاحبه فوق مصطبة من الطين ، يختفى أمثاله الآن ، الجلابيب البلدى تجيء جاهزة من الصين .

«شمال»

لهجته أقرب الى الأمر ، كف عن تبسطه ، منذ دقائق لزم الصمت تماما بل بدا مقطبا ، متجهما ، يفسح الأهالى الطريق بتراجعهم الى الجدران ، يضطر بعض الجالسين الى الوقوف ، العربة مقلقة ، أنيقة المظهر ، قوية الحضور ، يبدو أنه من النادر مرور مثلها ، يتزايد الزحام ، باعة للخضر والفاكهة ، أوان صغيرة من

البلاستيك ، ملابس قديمة وعربات يد فوقها سكر أحمر على هيئة أقماع ، منذ سنوات الطفولة لم يره ، لكنه يتذكر مذاقه ، كاد يتوارى تماما من ذاكرته ، هاهو ماثل أمامه .

السكر الأبيض كان معروضا على هيئة بلاطات مستطيلة وأقماع أكبر حجما .. ياه .. مجرد قطع من السكر تستدعى حقبا بأكملها .

رجل يقف رافعا يده بالتحية ، يظن أن مسئولا كبيرا داخل العربة ، واجهة متجر تحمل إعلانا عن سجائر انقرضت منذ الثلاثينات ، رأى نفس الاعلان فى صحف قديمة أثناء تردده على دار الكتب .

يتزايد الزحام ، التقدم أصعب ، البيوت متلاصقة ، أقل خطأ يمكن أن يؤدى إلى دهس طفل أو دجاجة أو ماعز عابرة ، يختلط البشر بالطيور بالحيوانات بحبات الخضر ، الزحام كثيف ، إنه قلب السوق .

يضطر الشاب الى التوقف تماما ، ينكفىء على عجلة القيادة، يغمض عينيه ، يردد :

«مستحيل .. مستحيل»

يفتح المخبر الباب ، يشير الى الأمام ..

«الطريق على طول .. لا يمين ولا شمال»

يبتعد ، يختفى تماما ، التعبير الأخير من وجهه يحتوى على ملامح ساخرة ، أو أسيانة ، ربما .. لايدرى .

«هل رأيت ؟ .. خدعنا .. كان يريد أن يصل بنا إلى هنا .. لا أعرف هدفه كيف أتحرك الآن»؟

يضطر الى الترجل ليحث الناس على افساح الطريق للعربة ، يكتشف استحالة ذلك ، أقفاص الدجاج والأوعية المليئة بالمياه الساخنة ريش الطيور

المذبوحة ، الأحشاء المستخرجة، أطباق عريضة مرصوص فوقها البيض الطازج ، بدو العربة غريبة هنا ، يقول الشاب :

«يمكنك أن تقطع المسافة مشيا .. أما أنا فسأبقى حتى ينتهى السوق» .

هكذا يعفيه من الحرج ، يمكنه أن يسعى بمفرده بعد أن صارت الرفقة ثقيلة ، محرجة ، يومىء شاكرا ، يخطو مبتعدا ، لا يلتفت خلفه الا قرب المنحنى .

السيارة غير موجودة ، ليست ماثلة ، هل شق طريقه بهذه السرعة ؟

يستعيد ملامح الشاب ، والطريقة التى نطق بها جملة «جلالة الملكة» يجب ألا يشغل نفسه به ، أمامه عدة مراحل يجب أن يقطعها ، الخروج من هذه الشوارع والأزقة الضيقة ، كل منها يؤدى الى الآخر ، الجديد اختلاف المستويات ، طريق نازل ، آخر صاعد ، وكل هابط طالع ، فلا يمكن أن يتم النزول إلا من مرتفع ، يتوقف ، يتنفس براحته ، إنه متعب ، لكنه بانفراده ، أخيرا يسترد حرية غابت عنه خلال وجوده فى العربة ، كذلك ثقل هذا المخبر الغامض .

هل يراقبه من مكان ما ؟

ربما ..

إنه غريب عن المدينة ، لكنه من الناحية ، وهو غير مطلوب ، ولايبادر الآخرين بعداوة أو حتى لفظ جارح ، إنما يسعى لرؤية العمارة الانثوية التى انتصب مؤخرا بعد رقاد دام قرونا عديدة ، إذا وصل اليها يكون على مشارف البربا ، وإذا ولج البربا فإنه يتمكن من الصرح الانثوى لميريت آمون .

تلح عليه ملامح الشاب . لماذا نطق لقبها بهذه اللهجة الغريبة؟ يثق أنه رآها فى التليفزيون . إنه واحد من المتهمين بالتردد على قصر البارون ، بل إنه هو الذى امضى الليل كله راقدا فى المقبرة ليعرف السر ، هل ثمة صلة بين قيادته للعربة وركوب الشرطى السرى ، لكن المخبر أسفر عن هويته ، أعلنها ، ومثله اذا كان فى مهمة يخفى ما هو عليه ، إلا اذا كان ذلك جزءا من الترتيب .

لماذا يهتم بهذا كله ؟

إن وقته ضيق ، وعلته مانعة ، مقيدة لحركته ، وغرضه جليل ، فلماذا يتوقف عند التوافه من الأمور ، ليفرغ الى المدينة ، آن لتعلقه بها أن يظهر ويتجسد ، كان المفروض أن يجرى ذلك منذ ثلاثين عاما ، لكنه كان مقيدا بضرورات الوظيفة ومهامها ، منها مايقتضى تنقله فى البلاد ولولا ذلك ماجاء هنا .

عندما نزلها لأول مرة لم يكن يعرف عن أخميم إلا أنها مدينة قديمة ، مشهورة بصناعة الحرير الطبيعى على أنوال يدوية من خشب ، إنها ذات القباطى الشهيرة، العتيقة ، التى التحف بها الفراعنة ، واهداها المقوقس الى النبى المرسل فى صحراء العرب ، عليه أفضل الصلاة والسلام .

كانت مهمة عابرة ، وكان ممكنا ألا يتردد عليها مرة أخرى ، لكن حصل تعلق لا يمكنه شرحه ، أو تفسيره أو تبرير دوافعه ، قرأ مشاهدات الأقدمين ، سترابون، هيرودیت ، ابن جبير ، ابن بطوطة ، وماذكره المقريزى ، وابن دقماق ، توقف عند أوصافهم للبربا ، تفحص كل قول منسوب لسيدنا أبى الفيض ذى النون ، لأن الجميع أجمعوا على ملازمته البربا ، وقدرته على قراءة الكتابة المرسومة على جدرانها ، وفى لفائف البردى المكدسة بدورها ، منها استلهم الكثير مما قاله وصار أساسا لعلم القوم وبيانا للطريقة التى تفرعت الى طرق شتى .

كلهم اتفقوا على ضخامتها وغرابتها ، لكن تفاصيلها اختلفوا عليها ، قال واحد من صحبه له اهتمام بعلم الآثار القديمة إن المدينة حاوية لها ، وإنها تضم المدينة ، كلاهما واحد .

قال له نساج قديم انحنى ظهره خلال السنوات التى أمضاها جالسا إلى النول، منحنيا عليه ، يرص الخيط النحيل ، الواهن ، يضغطه بالمشط بعد تشييعه بالمكوك ، يؤكده، يؤلف مابين السداة واللحمة ، يقول :

«البربا عندك .. كل منا داخله بربا أو حوله .. ابحث عنها وتجول فيها»

غير أن القمص جرجس وهو ممن اعتادوا التردد على الفندق ليلا والقعاد الى صاحبه فى الحديقة الخلفية ، أكد وجودها ومثولها إلى الآن واستمراريتها ، لكن دخولها يحتاج إلى حالة خاصة تقتضى مرانا ودربة ، وقبل هذا كله خلو من الكدورات المعكرة للنفس قبل غيرها ، هذا مايقتضيه بنيانها ، لايمكن للانسان التنبؤ بحلول هذا الحال ، أو التخطيط لبلوغه ، وربما يعرفه فى وقت فتنجلى له البربا ، ويتجول فى غرفها التى تولد منها غرف جديدة لم يعرفها مخلوق قط ، وممرات ، وساحات ، وطوابق مزروعة وآفاق يصعب إدراكها ، لذلك يقولون إن أكثر المدركين لها من الأطفال ، وإذا رجع أحدهم الى أهله وقص عليهم مارآه ، يجب أن يصدقوه فورا ، وألا يكذبوه .

يتوقف لحيظات ، هدوء عميق يحيط به ، ينبعث من داخله ، من نقطة قصية كأن ضجة السوق لم تكن إلا مقدمة لهذا الصمت ، الطريق أمامه عريض وضيق، نازل وطالع فى الوقت نفسه ، تتباطأ أنفاسه ، ترى .. ماذا يفعل ابنه الوحيد الآن فى هذه اللحظة ؟

إنه بعيد ، جد بعيد .

يستعيد نصيحة القمص : إذا بلغت الباب الوهمى فحدق ، وركز ، وتمعن ، عندئذ ستلج مشارفها ويبدأ طوافك بها . إنه واهن ، هيّن . يتطلع حوله، المبانى من طابق أو طابقين ، هادئة الواجهات ، ألوانها لم يعرفها من قبل ، يستعيد إصغاء صباغ الخيوط الحريرية ، أشهر من يستخدم المواد الطبيعية ، يقدر عمره بتسعين، أو مائة ، وربما فوق ذلك ، قال مضيفا إلى ماقاله القمص :

«لايدخل البربا ولايدركها إلا مفرد ..»

مصطلح

مـوقـــد

الموقد علامة .

إنه بيت النار ومنطلقها وموضع تأججها ، والوسيلة الحاصرة لها أيضا ، فاللهب طلوق ، جموح ، ينشب بسرعة ، ولا يكون التحكم فيه إلا بجهد إنسانى ، لذلك كان الموقد علامة دالة حتى وإن درست المعالم، وخبت الفوارق .

وجوده فى بنيان يعنى تردد الأنفاس ، وتوالى الأشواق ، وتواتر الرغبات ، وتوافر المدد ، والسعى لإتقان الإعداد ، والتوق إلى لحظات تجمع المتآلفين ، المتقاربين .

ما الفرق بين بنيان للحياة ، وآخر للأبدية ؟.

إنه الموقد ، ما من منزل إلا واحتوى واحدا منه أو أكثر ، لكن يستحيل العثور عليه فى المثاوى المتقنة للعبور إلى الأبدية ألتى أقامها الفراعنة المتسائلين أو الناطقين بقبس من إجابات شتى ، كل ما وصلنا من مقابرهم يمكننا أن نجد به كل ما نتخيله من طعام ، وأثاث ، وملابس ، وحلى ومجوهرات وأسلحة ومركبات، كل ما كان له اتصال بالراحل إلى الأبدية ، يؤكد هذا الأثاث الجنائزى الذى وصلنا كاملاً ، تاماً ، مجتمعاً فى مقبرة توت عنخ آمون ، كل ما يخطر على البال نجده فيه ، حتى باقات الزهور المحنطة ، عدا الموقد ، غيابه من البناء يعنى الفناء، والعثور على آثاره أيا كانت مستوياته ، حفرة بسيطة أو فرن مغطى أو مقبب ، محاط بالخزف ومقسم من الداخل لتوزيع اللهب والتحكم فى درجاته ، أيا كان الوقود المستخدم ، بدءا من أوراق الأشجار الجافة والحطب أو الفحم النباتى والحجرى وصولاً إلى الطاقة التى تبدو أعراضها للناظر ولكن تختفى بذاتها ، نعنى بذلك الكهرباء وما يتصل بها ، أيا كان الوقود ، فإنه دال على الحضور الإنسانى الدائم ، فالنار يحتاج إشعالها إلى فعل ، ومتابعتها إلى يقظة . ولا يكون ذلك فى اطار عدم .

والبقايا الدالة التى يتوقف أمامها الرحالة والباحثون والمتعقبون لما تخلف عن الأزمنة المولية دالة على مرور الإنسان أو إقامته فى هذا الموضع أو تلك البربا ، ومن شكله ومن تركيبه يمكن الاستدلال ، والوقوف على الحقائق .

وإذا بدا الدخان متصاعداً من الأوجقة والمداخن ، فهذا يعنى حضور قوم الآن، فى هذه اللحظة يسعى الغريب ، المسافر ، المنتقل من مكان إلى آخر ، لعله يحظى بالأنس .

لذلك يكون الموقد دالاً عند الحضور وعند الغياب ، عند الاكتمال وبعد الاندثار، وبقدر ما يضم من فوضى النيران وقوة الاضطرام بقدر ما ينظم ويؤطر .

الموقد إذن حياة ، فعلام تدل المواقد الكونية ؟

هذا تساؤل وجد محفوراً على حجر قديم من الدولة القديمة ، هل طرحه الفرعون المتسائل - حور محب - والذى مازال بعض أحفاده فى قرى ومدن الصعيد النائية ، مثل أخميم وطيبة ودندرة والأشمونين واللاهون ورشيد ، يبحثون عن إمكانية لتعميم عمارة تقيم بها الريح ، وتستقر النسيمات الحائرة ، يختلف القوم فى مقدار السنوات التى تفصلهم عنه ، أربعة آلاف أو ثلاثة آلاف وخمسمائة أو أكثر من هذا وذاك ، لكن لا ينسى كل من له صلة رغبته التى أبداها ذات ليلة بهدوء ، من خلال تساؤل طرحه برغبة حقيقية فى الوصول ، وانتقل من عصر إلى عصر ، ومن لغة إلى لغة ، ومن معتقد الى آخر ، وأضيفت اليه تفاصيل ، لكن الجوهر القديم باق ، راسخ ، يقوم عليه الخلص ، الأقاصى ، كل ما تلاه تفاصيل ، ولا يهم المسافة الفاصلة ، فكل لحظة انقضت بعيدة لأنها لن ترجع ، وكل بناء مهما بدا راسخاً فإلى زوال ، وكل جدران محيطة ،

مفيدة مؤدية الى فراغ بعده فراغ مهما سمكت ومهما امتدت ، وكل نيران مشتعلة إلى انطفاء .

لم تقم العمارة إلا لتجسد الفناء ، وليست المواقد إلا خطوات ، تمضى خطوة وتحل أخرى سرعان ما تولى ، لكنها تثير التساؤلات ، قال الفرعون المتسائل - حور محب - مادام الإنسان قادراً على التساؤل فأمره بخير .

لكن .. هل ينتسب هذا الاستفسار اليه ؟

لا يمكن القطع أو الجزم .

واضح أن الناطق به أدرك أن النيران منطلقة والموقد مقيد لها ومنظم ، وأن معارفه ألمت بهذا الحريق الهائل الكونى فى الشمس ، لكنه مؤطر ، محدد ومنتظم فى دورانه حول نفسه أو حول الأجرام الأخرى ، وليست النجوم النائية إلا نيرانا هائلة ، متفاعلة ، متوالجة ، يؤدى لهبها إلى بعضه البعض ، ورغم الأبعاد السحيقة إلا أن الأسباب متصلة ، وتلك الأضواء التى يسطع بعضها أو يخبو آخر منها ليست إلا إشارات الى تلك الحرائق الكونية المتفجرة ، الهائلة ، ولأنها ذات حيز ، ومدار ، ولا تتجاوز إلا بقدر مهما بلغت الأحجام ، فهذا بالضبط ما يقوم به الموقد ، ولأن إدراكه أو الوقوف عليه أو رؤيته يعنى حياة فاعلة ، متصلة ، فأى حياة تلك هناك ؟ وأى محرك للقوانين المنظمة ؟

قال الخضر القديم ، الجوال عبر الأزمنة ، بعد حضوره مجلس الفرعون المتسائل إن من يدرك أسرار وحكمة البنيان الإنسانى ، يمسك بمفاتيح الفهم والإحاطة ، والأمر جله كامن ما بين الظهور والغياب المتلازمين ، تماما كما يدل الدخان الواهن على النيران الكامنة حتى وإن لم تدركها الأبصار .

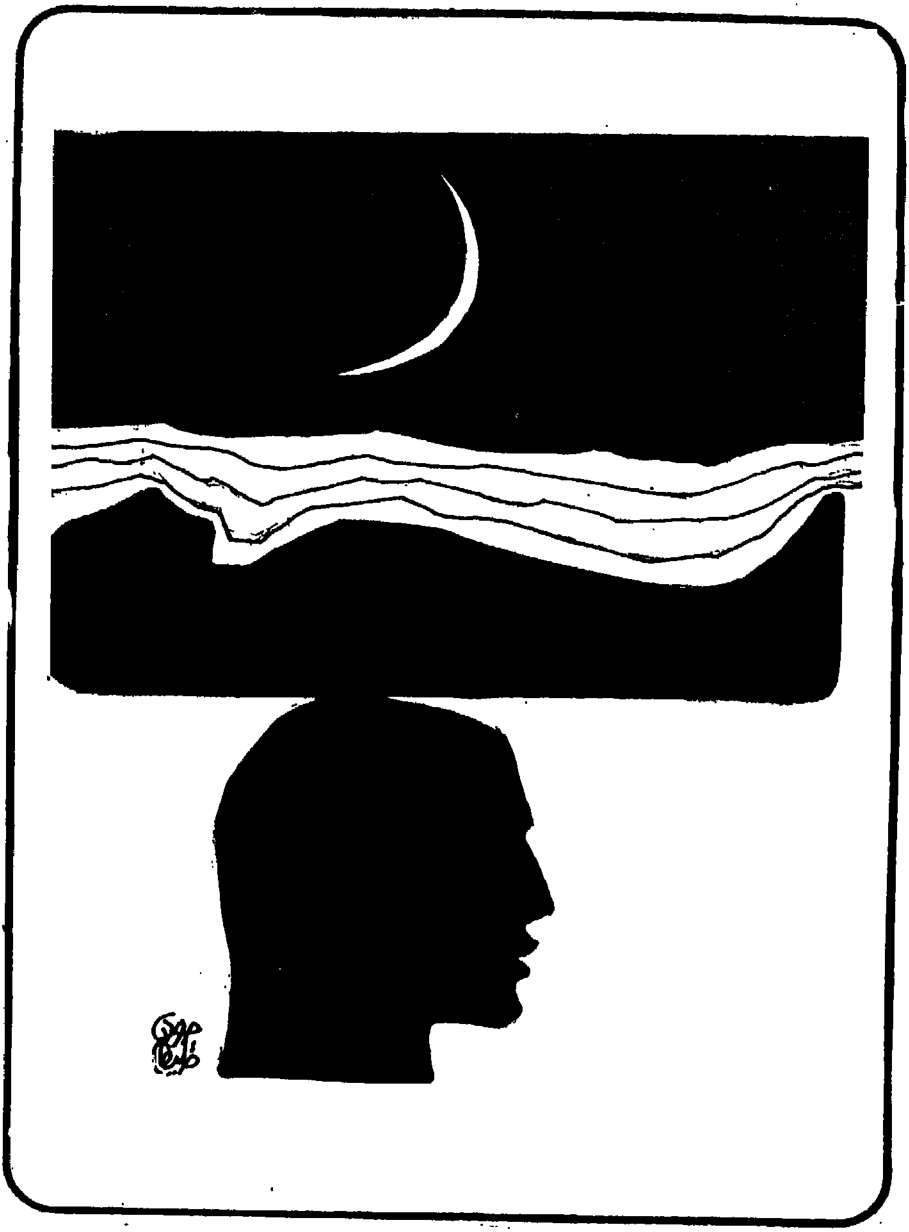

يقع النُزُل قرب القنطرة. من شرفة المبنى الرئيسى يمكن رؤية مدخلها المؤدى الى امتدادها المنحنى، المائل إلى الجهة الاخرى، لايقع فى مجال الرائى أو الواقف عند الحافة أو حتى فوق السطح، غير مسموح بالاقتراب منها إلا لأصحاب الاسماء المعلنة والتى يتم النداء عليها من الطرف الآخر، خطوة واحدة تعرض الوافد للمسائلة وخطر الإقصاء النهائى من دار الاقامة المؤقتة، يعنى ذلك محاولة للتسلل، نادراً مايحدث ذلك..

يعرف الجميع متانة الخطوط الفاصلة والتدابير المتينة التى تمنع مثل تلك المحاولات، وتعدد مراكز التفتيش المتوالية قبل بلوغ أطراف المدينة المحمية بالأسوار التى تتخللها الابراج وتحفها خنادق المياه وحفر الجمر المتقد وما لا يحصى من موانع يتناقل المنتظرون تفاصيل شتى عنها ، يختلط الحقيقى بالوهم، تدور الحكايات ، تتوالد، تتضافر عناصرها مختلفة مصادرها خلال مراحل الانتظار التى تمر بطيئة، ثقيلة أو راكضة طبقا لأحوال القوم، بعضهم امضى سنوات طويلة يتعسرون عند احصائها، لكنهم يتطلعون تلك اللحظات الحاسمة.. التى يصغون خلالها إلى نداءات السماح التى يعقبها عبور القنطرة والمرور بالإجراءات المؤدية الى منح التصاريح بالاقامة الدائمة فى المدينة المؤدية الى مدن أخرى، حيث يجرب كل انسان ويسعى.

لا يمكن لانسان القطع بزمن معين جرى فيه تشييد النُزُل.. لكن ثمة قناعة بقدمه. بانتفاء القدرة على تحديد تاريخ معين لتأسيسه أو نشوئه.

وبالتالى فإن من وضع اللبنة الأولى فيه مجهول والاقوال فى ذلك كثيرة متعددة فى حاجة الى من يجمعها ويرتبها ويدرسها لكن هذا جهد يقتضى أعمارا متتالية فالامر فسيح، متشعب، متنوع، والبعض منه شاطح، جامح، إذ يقول البعض إن وجود النزل سابق على تأسيس المدينة، ورغم السخرية التى تبدو على ملامح بعض المستمعين لمثل هذا الرأى فإنه لاقى قبولا عند البعض

رغم وعيهم الأتم أن مجرد الاقتناع به أو حتى السكوت عن مجادلته يعرض النزيل لخطر الإقصاء وتحريم دخول المدينة عليه، ومثل هذا الموقف مثير للخوف والاضطراب، أن يجد الانسان الساعى نفسه مبعدا، مقصياً، ليس عن المدينة فحسب إنما عن النزل ايضا، رغم المجهول والغموض المحدق بالمصائر فثمة من يؤمنون بأقدمية النزل ولايكتفون بقناعاتهم إنما يعملون على نقلها الى الآخرين، مرة بالإيحاء ومرة بالاشارات. وفى مرحلة متقدمة بالتصريح، وهنا قد يقع الإقناع، يعرف القائمون المدبرون للأحوال أن مثل هذه الافكار لا يمكن منعها أو إيقافها، لكن محتمل محاصرتها وإقصاء اصحابها أو إقناعهم بالعدول عنها وهذا أفضل بالطبع. معروف ان القناعة العامة لها قوتها وتأثيرها وتمكنها، ومايعرفه الجميع هنا أسبقية المدينة، ظهرت اولا فى السهل الفسيح الممتد، كانت البداية محدودة، تماما مثل بداية الحياة فى الرحم، هل يراها أحد؟ هل يطلع مخلوق على بذرة الرجل الساعية الى كون المرأة المتلقى، الحاضن؟ قامت وتشعبت انحاؤها وتعددت جهاتها.

ولدت منها مدن أخرى، ذاع صيتها وتناقل الناس أمرها وتطلع إليها الكل وسعوا إليها، توافدوا من أنحاء شتى صوبها، وعندما زاد الأمر عن الحد، وضاق المقيمون بها، الحريصون على طابعها وما تحويه من سبل مريحة ومشاهد لم يسمع أحد بمثيلها وأنهار وعيون وثروات بلا حصر مما سيجرى تفصيله فى موضعه، لما كاد الامر أن يتجاوز الحد، ظهرت الاسوار. ثم الخنادق المتتالية، والقنطرة الوحيدة التى لا يعرف أحد وسيلة عداها للعبور إلى هناك، وفشلت كل الجهود لمد قناطر أخرى فى أماكن بعيدة او قريبة، عند هذا الحد أقيم النزل، بداية متواضعة أيضا، لكن النمو جرى والتشعب استمر مع توالى الايام والليالى، كيف يمكن القول إن المدينة أحدث ؟ النزل تابع، أمره لاحق، وضعه مؤقت، مهمته ستنتهى إذا توقف الساعين القادمين، عندهم الامل فى العبور إلى الاقامة،

الهنيئة المريحة، حيث يلقى كل إنسان مايريده، ويمكنه تحقيق مايجول عنده أو يراه في احلامه، امكانيات لا تنفذ هناك..

أراض جديدة، مياه وفيرة.. انهار سارية، مراع، خضرة كثيفة، علوم متقنة، تحصيلها سهل، إذا كف الناس عن القدوم تنتفى وظيفة النزل، عندئذ يزول أمره ومع الزمن يختفى اثره، لكن هذا لم تبدأ بوادره بعد ولم تلح اشاراته، فمنذ القدم يتوافد الخلق، ويسمح لبعضهم بعبور القنطرة الحجرية، القائمة على فراغ هائل، ويمكث البعض هنا أو هناك منتظرين مصيرهم المحتوم.. ورغم انقطاع الاتصال بين المدينة والنُزُل باستثناء النداءات المفضية المبشرة بعبور البعض.

والقنطرة الماثلة التى يمضى المرور فوقها فى اتجاه واحد فقط، إذ لم يلمح أى انسان مجيء أحد الذين ذهبوا، أو واحد من الاهالى المقيمين هناك، غير أن المدينة فى حاجة دائمة إلى القادمين الجدد. لهذا لم ينقطع الامل يوما عند أى ذكر أو انثى من العبور.. من الحصول على الإذن بالاقامة وبدء حياة جديدة مغايرة، أفضل . ثمة يقين أن ما يجرى فى النُزُل ليس بعيدا عن الناحية الاخرى، انه مرصود، متابع، كيف.. ؟ هذا ما يختلف الناس حوله ، وللخوض فيه تفصيلات.. غير أن الاتفاق حول قدم المدينة وأسبقيتها ترسخ عند الكافة، باستثناء من أشرنا إليهم وهؤلاء لايمكن تعيينهم أو تحديدهم بدقة، ولكنهم يسعون فى النزل، الحقيقة أن كل مايمكن أن يخطر بالذهن سوف نجده بدرجة أو أخرى هنا، لكن مايقال حول تأسيسه ومايتردد عنه أدى الى انشغال بعض الوافدين بتاريخ الانشاءات القديمة، أى جزء أسبق؟، بذلوا الجهد فى هذاالاتجاه وأمعنوا حتى نسوا الهدف الاصلى من قدومهم الى المكان ، بل إن بعضهم كان يفاجأ بالنداء عليه ويتلقى تهانى جيرانه وصحبه بأسى.

هنا يقول بعض المدبرين لتسيير أمور النزل إنه رغم إدراك كل قادم بموقوتية المكث ومحدودية الاقامة إلا ان كثيرين يتعلقون بالمكان ويرتبطون به، بعض هؤلاء

لايعرف شيئا عن تاريخ الموضع، أو الآثار المتوارثة أو الكتابات المدونة به ، أو الخبايا والدفائن، أو أسرار النقوش العتيقة، بعض منهم يهيم بما رآه وسمعه وتنسمه حتى إذا نودى عليه للعبور وجاءت البشارة بالاقامة رفض وأبدى العناد والتنازل عما جاء من أجله ، لكن ما من قوة يمكن أن تبقيه ، لابد أن يتحرك ، أن يتقدم صوب القنطرة ، أن يتم ما جاء من أجله، النُزُل للاقامة المؤقتة فقط . الاعداد الوافدة لا تتوقف، لا تنقطع ، ثمة توازن دقيق غير منظور يجرى الحفاظ عليه بحيث يجد القادمون أماكن لهم، مما دعا البعض الى وجود معادلة قائمة اطرافها هنا وهناك وإن لم تبدُ كل تفاصيلها ولم تعرف أبعادها. إنما البادى منها نتائجها.

فى البنايات وجوهر الغايات

يسخر الكثيرون من أولئك الذين استهواهم البحث أو استغرقهم الدرس، حتى انهم ليقضون فترات طويلة يتفحصون ويتشممون ويراقبون شظايا فخارية انتمت يوماً إلى آنية طعام أو شرب، تزداد القيمة إذا بدت عليها كتابة عتيقة، اشكال غريبة، حروف غامضة باعثة على الخشية والحذر من المجهول المتوقع، وللحروف تلك مفاتيح شتى، ومغاليق أكثر. رغم السخرية من أولئك إلا أن الجميع يدركون جهودهم فى بيان أصل المكان. صحيح أنه لا يوجد اجتهاد قاطع، محدد، لكنها مسارات مؤدية إلى بعضها وإن كانت متقاطعة، مضيئة لجوانب شتى وإن بدت مبهمة، مضببة، كلهم يجمعون على امتداد الخلاء وانطلاقه، مساحة لا يحفها إلا النهر الجارى هناك بأسفل، على عمق كبير.. هكذا حدوث الطبيعة منذ البداية الخط الفاصل، الحاد، وربما كان اختيار المدينة آخذا هذا الاعتبار.

لا يمكن تحديد البداية بدقة صارمة. أى لا يمكن القول مثلا إنه فى يوم الاثنين او الثلاثاء او الجمعة بدأ إرساء الأساس للنزل ولكن جرى ذلك خلال

خطوات عديدة ، ربما استغرقت أجيالا . والمسارات المؤدية إلى الموضع نابعة من جهات شتى، رئيسية أو فرعية . كثيرون من القادمين لايعرفون النواحى التى بدأ رحيلهم منها، وأحيانا يفاجأ المدبرون لأمور النُزُل بوافدين لايعرفون أصول الاقامة أو شروطها، بل إنهم لا يعلمون بوجود المدينة إلا بعد مضى فترة تختلف من شخص إلى آخر ، عندئذ يبدأ هؤلاء فى استيعاب تلك الحقيقة العادية ، أن النزل ماهو إلا محطة مؤقتة ، عتبة مؤدية ، نقطة عبور ، رغم أن كل ما يحيطه يوحى بالمتانة والثبات والأزلية ، لكن مثل هؤلاء الوافدين بغتة يستوعبون الحقائق مع مضى المدة ، وشيئا فشيئا يندمجون فى الجموع المقيمة ، ويبدأ دخولهم حالة الانتظار بعد إصغائهم إلى ما يتردد عما تحويه المدينة ، بل يكون الأمل عند أمثال هؤلاء أشد وأقوى فى المراحل المتقدمة ، منهم نفر أثاروا مسائل عديدة ، وطرحوا نقاطا حاوية للمشاكل ، وصل الأمر فى بعض الفترات إلى حد الفتنة ، وكان ممكنا طردهم واقصاؤهم ، لكن ثمة حقائق قديمة مؤكدة ، منها أن القائمين على الأمر لا يمكنهم منع أى وافد إلى النُزُل ، بل ان المندوبين المكلفين بالاستقبال لا يستفسرون عن الجهة التى جاءوا منها ، أو الغرض الذى يسعون إليه، معروف ، مفهوم ، مدرك ومستوعب أن الكل هنا غرباء ، وأنهم جاءوا بهدف الاقامة فى المدينة ، الاستقرار النهائى هناك، حيث فرص العمل فى كل المجالات متاحة ، وحيث يمكن للإنسان أن يبدأ من جديد على كل المستويات ، يمكنه أن يغير اسمه، وأسماء اولاده ويبدل آبائه واجداده ويسعى كأنه وافد إلى الكون كله للتو ، مجالات الرزق بلا حدود ، فسيحة، وسيعة ، ومهما طالت الإقامة هنا فإن الكل يتطلع إلى هناك ، إلى لحظة صدور التصريح بالإقامة .

أى إنسان، بغض النظر عن ملامحه أو لغته، مرحب به فى النُزُل ، له موضع حتى إن بدا متواضعا ، هينا فى البداية ، حتى الحيوانات الهائمة ، الضالة

لا يمكن ردها أو استبعادها أو مطاردتها ، تجنب أذاها ممكن ، لكن نفيها عن المكان كله مستحيل .

من المسائل الدائرة ، الفاعلة حتى الآن بلا حسم ، بلا قطع مقنع ، مثلا أيهما أسبق ، النُزُل أم المدينة ؟ ، وهذا موضع يطول الخوض فيه ، جوانبه متعددة فى حاجة إلى تأن ، مسألة أخرى تتعلق بأى البنايات أقدم وهذا ما يشغل أولئك الذين استغرقهم البحث فيما تبقى من أزمنة مولية .. أى جزء أعتق ؟

افتراضات عدة كلها لا تتجاوز دائرة اللايقين ، أولها يقول إنه ذلك القائم فى المركز ، بناء بسيط ، مربع ، مهيب الواجهة بدون زخارف حاضة على إحداث أى تأثير فى نفوس المتطلعين ، الشاخصين ، لا توجد داخله أجنحة أو ممرات أو أقسام أو حجرات ، ما من مستويات ، لا طابق أول ولا ثان ، إنما فراغ مطلق تؤطره الجدران القائمة ويحده السقف الذى كان من جذوع الأشجار ، استبدل بعيدان البوص المتلاصقة ، ثم حلت مكانه ألواح خشبية مغطاة بالجص ، كان القادمون ينامون داخله متجاورين وتمضى عليهم سنوات متوالية ، لا يغيرون من أوضاعهم ، لا يحسنون من معاشهم إلا فى حدود ضيقة جدا ، ولم يبدأ الاجتهاد فى تحسين الظروف إلا بعد ادراك تفاوت المدة اللازم انقضائها واختلافها من شخص إلى آخر قبل صدور تصريحات الإقامة ومعها بالطبع أذون العبور ، هذه التصريحات بقدر ما كانت تحدثه من بهجة عند المعنيين بها بقدر ما كانت تسببه من آلام ومشاعر محزنه عند ذويهم الذين لم يؤذن لهم بعد ، لم يكن للصلات العائلية أى اعتبار فى الناحية الأخرى ، كانت الاسماء والحالات تبلغ بطرق مختلفة إلى المسئولين عن الأمور بالمدينة حيث يجرى إدراجها فى قوائم الفحص والانتظار ، وعندما تصدر التصريحات تكون فردية ، من هنا لم يكن هناك نظام دقيق يمكن التنبؤ به عن طبيعة الأذونات القادمة ، ربما يسبق الابن والديه ، وقد يمضى الأب وتقيم الأم بأطفالها عدة سنوات قبل لحاقهم به ، وربما لا يصدر

الإذن أبدا فتنقضى السنوات بالنسبة لبعضهم فى النزل ومثل هؤلاء يختفون بشكل غامض حتى زعم بعض الوافدين أنه توجد مسارب خفية إلى داخل المدينة يتم من خلالها إدخال أعداد من البشر يكون مصيرهم مجهولا تماما ، لكن القائمين على النُزُل المتوارثين لإدارته منذ حقب قصية ، ينفون ذلك تماما ويؤكدون وحدانية الطريق المؤدية ، إنها القنطرة ولا سبيل سواها ، وأى محاولة بعيدا عنها تؤدى إلى هلاك حتمى .

هذا البناء المربع كان يضم فى أوقات معينة أفرادا قلائل ، وفى فترات أخرى كان المقيمون به يضطرون إلى توزيع أنفسهم عند النوم ، فنصفهم نائم ونصفهم قائم ، الجزء الأول من الليل بعضهم راقد ، والثانى لنوم الآخرين ، ثم تزايد العدد فخرجوا إلى الخلاء ، وبدأ بناء الملاحق ، كل المبانى المحيطة بهذا المربع إضافات ، تدور حوله ، تنتسب اليه رغم صغره وكونه أقل مساحة ، ولكنه الأقدم ، الأكثر إيغالا فى الزمن المنقضى ، ومنذ عدة عقود بطل استخدامه للإقامة ، وأصبح بما يحويه من فراغ ، وباتساق جوانبه الأربعة وتطابقها التام مع الجهات الأصلية مصدرا لتكهنات شتى، وأفكار بلا حصر . وهذا موضع اهتمام الكثيرين، لكن حضوره رغم خوائه ، وعدم استخدامه ، يحدث حالة مستمرة ، سارية من المهابة والرسوخ ، إنه مركز الموقع ، وقلب المكان عند الكل تقريبا ، ذلك أن بعض النزلاء تهامسوا بما يعنى التشكيك فى القول بقدمه وأنه المركز ، ومثل هؤلاء يقولون بقدم البناية القائمة جهة الشرق ، وإنها الأولى ، وقبلها لم تكن توجد إلا السماء ونجومها فى الليل والخلاء المنطلق حتى الأفق الدائرى المستكين، لم تهتز مكانة البناء المربع قط رغم كل ما طرح أو تردد ، ذلك أن النزلاء خلال اقامتهم كانوا بحاجة إلى شئ ما يحوى المعانى الغامضة ، المستعصية على التفاسير ، والغير قابلة للإدراك ، ما من واحد منهم يعرف المدى المقدر لإقامته ، هل ستطول أو تقصر ، بعضهم كانت لديه أسباب قوية للظن الوثيق أنهم سيقضون مدة قبل

السماح لهم بعبور القنطرة ، لكنهم فوجئوا بالتصريح لهم بعد تسجيل قدومهم بيومين أو ثلاثة ، وتلك مدة تعد قصيرة جدا ، وهنا تجدر الاشارة إلى حتمية الانتظار الذى تتفاوت مدته ، لا يمكن لقادم مهما كان وضعه أن يتجه مباشرة إلى القنطرة ، هذه الجهة كلها يصعب دخول المدينة منها إلا عبر المنفذ الوحيد ، إذا نجح أحدهم فى عبور المواقع الفاصلة ، وهذا من الأمور غير المحتملة ، التى لايتقبلها الذهن ، فسرعان ما يكتشف أمره هناك ويجرى ترحيله إلى حيث لايعلم أحد ، أما العبور بعد صدور التصريح فيعنى ضمان استقبال جيد من القائمين على شئون الوافدين الجدد، حيث تجرى عمليات استجواب دقيقة يتم خلالها توجيه ألف وسبعمائة استفسار فى فترة وجيزة لاتتجاوز ثلاثين دقيقة ، لم يعد أحد من هناك إلى النزلاء ليخبرهم بما رأى أو ما مر به ، ولكن لدى كل منهم تصور دقيق لما ينتظره بعد عبور القنطرة، تختلف تفاصيله من شخص إلى آخر ، ومن جماعة إلى جماعة ، من وافد إلى وافد ، من زمن إلى آخر ، لكن جوهره واحد ، ولا يمكن نسبة ما فيه إلى مرجع بعينه ، أو مصدر محدد ، كالقول مثلا بالكشف الطبى الدقيق الذى يقوم به رجال ونساء لاتبدو ملامحهم ، تغطيهم الملابس الخاصة الواقية وتخفى ملامحهم الأقنعة الصارمة ، حتى الفتحات التى تتيح لهم الرؤية لاتكشف عيونهم إنما تعكس بزجاجها الرقيق البراق ما يواجهها ، ثمة أماكن معدة على هيئة مستطيلات ، كل منها مقسم إلى فراغات لايتسع الواحد منها إلا لشخصين فقط ، القادم والفاحص ، يتم كشف دقيق على سائر أنحاء الجسد ، كما يتم سحب عينة من الدم تملأ زجاجة صغيرة ، كذلك البول واللعاب، ثم يعقب ذلك مرحلة التطهير ، ويمر خلالها الوافد بأربع عشرة مرحلة، يتم خلالها النقع والشطف والحلق والنتف والتبخير والجلوة والمداواة والقص والتمديد والتليين والتدقيق والتصوير من الخارج والتصوير من الداخل ثم التعطير، ولكل مرحلة أدواتها وناسها والقائمين عليها ، المهتمين بها ، يؤدى كل منهم واجبه

ولا ينطق كلمة زائدة ، ربما يستفسر بما يفيد ما يقوم به ، لكنه لا يأخذ ولا يعطى، من شروط العبور على القنطرة التخلى عن كل متاع ، وعند مرحلة معينة يتم تجريد القادمين من كل لباس ، يحدث أن بعض السذج ومن عندهم غفلة يدسون بعض الهدايا للتسريع بالمراحل ، إذ يقول البعض إن الفحص يستغرق عدة أعوام ، وأن البعض ضاع عمرهم ما بين الانتظار فى النُزُل وقضاء المدة فى تلك المسافة الفاصلة ، الواقعة داخل المدينة لكنها فى الحقيقة خارجها ، تروى تفاصيل عديدة حول هدوء القائمين على الفحص ، وبطء حركاتهم وذلك التأنى الذى يمارسون به أعمالهم ويتطلعون به إلى مواطن الشك ، كأنهم سيمضون أعمارهم فى النظر والتأمل، هذا ما دفع البعض إلى دس خواتم ذهبية فى أدبارهم ، أو قطع من العقيق فى أفواههم ، ولجأ نفر إلى حيلة أخرى بتثبيت سن من الياقوت أو الذهب الأبيض ، ولكن هذا كله يتم اكتشافه ومصادرته لكن لا توضح التفاصيل نوعية العقاب ، وغموض هذه النقطة يبث الحذر فى الافئدة ، لذلك قيل إن أصعب ما يواجهه القادم تلك المسافة القصيرة التى يقطع خلالها القنطرة ونقاط الفحص التالية ، لذلك يكون الخوف غالبا على المودعين المحبين ، ويردد بعضهم عبارات تطمئن الذاهب إلى هناك رغم أنه موضع حسد كثيرين لصدور التصريح بالعبور الذى تعقبه الاقامة ، يردد النزلاء جملة قديمة تقول كلماتها :

« الفراق صعب فى كل الأحوال ..»

وهناك أشعار وأغان متوارثة نظمها بعض المجهولين الذين لم تصل اسماؤهم ولم يعرف هل كانوا من العابرين المحظوظين أم الذين قضوا المدة بدون نتيجة تذكر ، وأدب النزلاء موضوع متعدد الجوانب يقتضى الخوض فيه مساحة وجهدا غير قليلين فى محاولة الإلمام والإحاطة .

الأشعار ، الحكايات المتوارثة ، الأمثال ، الوقائع المروية ، كلها متصلة بالإقامة والانتظار والتوق ، ورغم تعدد التفاصيل ، إلا أن الرؤى والاجتهادات والمشاعر

تعلقت بهذا المربع العتيق وما يحويه من فراغ ، لا يمكن تحديد تلك السنة التى توقف القوم عن النوم داخله أو الإقامة فيه ، ربما بعد تعدد البنايات وتشعبها واختلافها وزيادتها أحيانا عن الحاجة .

لا توجد نصوص معينة ، لكن ثمة مهابة وأبعاد غير مدركة بالحس تحيط هذا الفراغ المربع ، ورغم أن بناءه أعيد أكثر من مرة عبر فترات تاريخية محددة أو غير مدونة ، فإنه ينسب إلى ملوك المدينة القدماء ، ويقال إن أحدهم أشفق على القادمين من الدروب المؤدية فأمر عماله المهرة بتشييد البناء لإيواء الخلق ، انها المرة الوحيدة التى جرى خلالها عبور مضاد منظم ، إذ لم يحدث قبل ذلك أو بعده أى عبور مماثل بل إن القنطرة شيدت فى وقت لاحق . إنما كان الأمر يتم فوق ألواح خشبية كانت تمد ثم تسحب ، ولكن مثل كل شئ يتعلق بالنزل أو المدينة لايتفق عليه اثنان إلا فيما ندر ، بمجرد ترديد هذه التفاصيل التى بدت فى إطار حقائق لا يرقى إليها الشك ، مفروغ منها ، مقطوع بها ، كما أنها تهدئ الاستفسارات المنطوقة والمسكوت عنها عند أولئك الذين قطعوا مراحل عديدة ومسافات طويلة قبل وصولهم إلى هذه المنطقة القصية البعد ، أصعب الاسئلة مالا ينطق بها الإنسان ، ما يوجهها إلى نفسه ويضج بها وعيه ، يفترض فى السؤال البوح أى وجود آخر يصغى ويجيب ، لكن ليس هكذا الأمر فى كل الأحوال ، إنما يخفى البشر العديد من الأسئلة يضمرونها ربما لأنها غريبة أو تبلغ حدا من السذاجة يخشى أصحابها من تعرضهم إلى سخرية الآخرين ، أو لأنهم لا يقدرون على صياغة ما يحيرهم فى ألفاظ متداولة ، وما أكثر بواعث الحيرة عند بلوغ النُزُل، عن بدء الاقامة فيه والتعامل مع أركانه ، المسكين بدقائقه ، والاستجابة إلى شروط الإقامة وقواعدها والالتزامات المترتبة عليها ، أن يخرج عنها تعرضه لمخاطر جمة أقلها حرمان شبه مؤكد من منحه تصريح الاقامة الدائمة فى المدينة ، ويعنى ذلك الفقدان الأتم ، فلا يمكن لمخلوق أن يتخيل نفسه بعد هذا العناء كله

مقطوع الأمل من عبور القنطرة إلى الحياة الهنيئة ، المرجوة ، ومطرود أيضا من النُزُل إلى البادية الفسيحة ، إلى الخلاء المطلق . لايصل الوافدون إلى موقع النُزُل إلا بشق الأنفس ، كثيرون منهم يقضون فى الطريق، وأقرب الأماكن العابرة تقع على مسافات اختلف القوم فيها ، ثمة عقبات عديدة أولها ذلك اليقين الداخلى الراسخ المبثوث باستحالة العودة ، العقبات أوعر مما يتصور أحد ، وهذا النفر القليل الذى انقطعت صلاته بالنُزُل وحرم من الاقامة مضوا راجعين لكن لم يظهر واحد منهم مرة أخرى ليخبر بما رأى ، ولبعض ما سمعه وما لقيه ، لم يعد أحد الى النُزُل من أولئك الذين خطوا إلى الامام وعبروا القنطرة ، أو أولئك الذين سلكوا اليباب بحثا عن منافذ تؤدى بهم إلى نقاط انطلاقهم، والمحطات التى قطعوها ، أو توقفوا عندها قبل بلوغهم النُزُل ، لا واحد من هؤلاء أو هؤلاء عاد ليخبر وليطلع ، لذلك كانت تلك الدرجة من عدم اليقين التى تحايل كل نزيل بطريقته ليدور حولها ويحاورها ويبدى تجاهلها وإن كان منغصا بها أو يقمعها شيئا فشيئا حتى تموت داخله فيحل الهمود ، هذه الدرجة الجلية عند البعض ، الخافتة عند آخرين ، الساكنة عند معظمهم ، تسرى خافتة ، إنها مصدر كل سؤال مؤد إلى حيرة أعقد و تيه أشمل وخروج عن الجوهر والحد أحيانا ، كثير من الروايات المتناقلة مفترض أنها تهدىء وتعين على الانتظار الذى يمتد أحيانا عدة عقود ، ولكن تلك الدرجة من عدم اليقين تقلقل وتؤجج، لذلك بمجرد طرح هذه التفاصيل حول المؤسس الأول الموصوف بالقوة والمهابة والعطف على القوم أيضا وهذا ما دفعه إلى تأسيس النزل ليتقى الوافدون اليه الحر والبرد ويأمنون من خوف ومخاطر الخلاء التى لاتحد ، حتى صدر عن البعض استنكار مبطن مضمونه : هذا يعنى أن المدينة لها أسبقية ، وأن النُزُل لاحق ، مجرد ترديد تلك الحكاية يعنى الإقرار بهذه البديهية ، وهذا أمر لم يحسم حتى الآن ، ايهما أولا ، المدينة أم النزل ؟ يرجع البعض هذا التشكيك إلى القائمين على تدبير الأمور ، إذ إن القول بأسبقية المدينة يهز مكانتهم بشكل ما ، ويظهرهم كتابعين لعقول المدينة الذين لايعرف أحد عنهم شيئا .

الوثائق التى تؤكد الحقيقة موجودة هناك فى المدينة، متاحة لأى عابر مسموح له بالاستقرار ، يمكن من خلالها الاطلاع على كل التساؤلات المطروحة ، الظاهر منها والمستتر ، تقول الحكايات المتناقلة إن كل الاجابات مدونة مقترنة بالوثائق المؤكدة ، مدرجة ، مرتبة ، متاحة هناك ، فى المدينة الأمر مختلف ، للأسئلة الصعبة إجاباتها المتواترة ، إذا لم يقتنع المرء فثمة اجابة تالية ، ربما تبدو فى ظاهرها مناقضة للأولى ، لكنها تفسر وتكشف ، هكذا ، لا تنتهى الاجابات ، ولا تتوقف الايضاحات ، ولا تكف الشروح ، لكن فى كل الأحوال لا يمكن رد سائل أو منع مستفسر ، هناك ليس أسهل من التساؤل ، وما من أمر متاح مثل الجواب .

هنا يطرح سؤال مضمونه استنكار مبطن ، خفى ، مصدره فى الظاهر بعض من مضى عليهم مدة طويلة هنا ، وفى الحقيقة بعض القائمين على تدبير الأحوال ، مؤداه : وهل جرى منع أى إنسان من الحديث ؟

ربما يتردد البعض فى النطق بإجابة صحيحة أو صريحة ، باستمرار هنا الخشية من المخالفة وهذا فى حد ذاته مانع ، معوق ، رغم أن كل العلامات البادية تحض على السؤال ، ومن الأقوال المتداولة المنسوبة إلى الوافدين الاوائل ، لابد من الاستفسار مدى الحياة ، عبر كل المراحل ، حتى الشيخ الكبير يجب ألا يتحرج ، ألا يتردد ، فمن يكبره بيوم ربما يعرف مالم يطلع عليه بعد ، ومن يصغره ربما أبصر مالم يبصره من قبل ، السؤال فاتحة لسؤال آخر حتى وإن بدا فى هيئة اجابة، رغم ذلك فإن المسكوت عنه أكثر من المنطوق ، ذلك أن معظم المقيمين يدركون أن بقاءهم مؤقت ، محدود، وأنهم مهددين بالإقصاء عن النُزُل لأسباب عديدة بعضها معلن ومعظمها مسكوت عنه ، يكفى على سبيل المثال أول تلقين يبث سرا فى آذان القادمين ، أو بالإشارة للصم منهم : عدم الخوض فى الموضوعات السبعة !

يلقى هذا كله مناخا من الحذر والخشية ، ذلك أنه لم توجد قط حدود فاصلة معلنة تفرق بين ما هو مسموح به وممنوع ، بل أعلن عن قليل وترك الأمر للتخمين.

الأمر عكس ذلك هناك فى المدينة ، فقط بمجرد عبور الجسر وبدء سريان الاقامة ، رغم أنه ما من خبر مؤكد ، أو توثيق محقق ، لم ترد رسالة معاينة مخطوطة على الحجر أو عظام الإبل أو السلحفاة أو البردى أو سعف النخيل أو الورق ، غير أن الكلام المتوارث ، الدوار، يحاول الاقناع من خلال أسانيد تقوم على إشارات بعيدة ، أو لمع وبوارق نائية ، وحول مثل هذه الأمور جرت خلافات شتى يصعب الخوض فيها ، وإن لم يمنع ذلك تردد السؤال : من يمكنه القطع ؟

غير أن كل نزيل يعرف ما يجرى حوله ، مايراه حتى وإن لم يفهم بعض الأمور المعاينة ، فليس كل مرئى مدرك ، إن رغبة خفية تستقر داخل كل منهم بانقضاء الأوقات على خير ، بدون مشاكل تؤدى إلى مصادرة الحق فى العبور قبل صدور الإذن من هناك ، لذلك مال كثيرون إلى المسايرة انتظارا لتلك اللحظة التى يتجه فيها الوافد بمفرده إلى القنطرة ، رغم تردد العديد من التفاصيل فإن الحقيقة التى تعد ناصعة ، ماثلة ، هى السماح للفرد بالعبور ، لم يحدث قط أن ذهبت أسرة معا مهما طال المكث وبلغت المدة .

المؤكد أن أكثر أجزاء النُزُل احتراما ومهابة ذلك الفراغ الذى يحويه المربع حتى عند من يضمر شكاً .

هذا الفراغ المؤطر بجدران أربعة يعد الأقدم ، إنه فى موضع النواة ، البؤرة التى شع منها كل ما يحيطها ، كل البنايات المتضامة ، المتقاربة الحاوية ، المتطلعة، تتفرع منه . هنا لابد من ملاحظة أولى وثانية أما الأولى فظهور المربع للقاصى والدانى والمتجول فى أى مكان من موضع النُزُل ، إذ صممت كل البنايات المضافة عبر أزمنة متوالية بحيث يمكن رؤية المربع حتى بدء الخطو فوق القنطرة ،

بالتحديد حتى منتصفها ، وفي جميع المرات التى تم خلالها إضافة مبنى حديث لاستيعاب القادمين الجدد ، جرى الحرص من المخططين ، القائمين على الشئون بألا يؤثر الجديد على القديم ، ألا يخفيه عن الأنظار ، ومن الأمور التي تتردد هنا كحقيقة لا جدال حولها أن لكل شيء مركز ، ومن ليس له نواة لا يوجد ، ومركز النُزُل فراغه الممتلىء بأزمنة لا حصر لها ، ورغم ما يتردد عن ضخامة المدينة وامتدادات أحيائها وضواحيها حتى أن بعض من يبلغها طفلاً يشب فيها ويشيخ ويرحل ولا يتاح له رؤية كل أنحائها وسائر جهاتها ، الملاحظة الثانية دوران المربع حول مركزه كل ألف ألف قمر مكتمل ، أى أن الوضع الذى يرى عليه الآن لم يكن كذلك عند بدء تشييده وهذا أمر يقبله الجميع وإن شك البعض فيه ودعوا إلى إجـــراء القياسات المتعارف عليها لكن لم يجرؤ أحد على ذلك .

ضخامة المبانى تبدو من بعيد للقادم وكأنها عمارة واحدة ، بناء مفرد ، لذلك جرى تسميته بالنُزُل فى سائر اللغات ، رغم أن اللفظ غير دال تماما ، ذلك أن العمائر المتفرعة من المربع لا يمكن إحصاؤها على وجه الدقة ، بعضها متداخل ، ومنها ما لا يمكن الوصول إليه إلا من خلال بناء آخر ، الارتفاعات متفاوتة ، لكنه اختلاف لا يلوح ولا يثبت إلا من مسافة قريبة ، دانية ، إذا ما تجاوز الإنسان البالغ حدود النُزُل فإنه يرى كل ما يقوم فوق الأرض متضاما ، متصلا ، متلاصقاً، يؤدى بعضه إلى بعض ، هكذا ظن معظم القائمين فى البداية ، غير أنهم بالإقامة والتعرف على المكان والبشر تبين لهم خطأ ذلك .

ما من نزيل إلا ويحكى عن لحظات اقتراب من الموضع ، أو اكتشافه له ، والقادمين واحد من اثنين ، إما يعلم بوجود النزل مسبقاً ولذلك سعى إليه باعتباره المحطة المؤدية إلى المدينة ، أو العتبة الفاصلة ، معظم هؤلاء كان لديهم فكرة عامة مبهمة عن موضع انتظار . لكن ما نظامه ؟ ، ما هيئته ؟ كيف يمكن الإقامة فيه حتى يصدر السماح النهائى بالدخول ؟ . لا أحد يعرف ما ينتظره تفصيلا ، وهذا

ما يسرى على المدينة أيضا . فالمباهج المتوقعة والراحة المأمولة مدركة فى جملتها وليس فى تفصيلها . أما الثانى - وهذا أغلب وأعم - فهم من يجهل وجود النُزُل ولم يحط به علماً .

يصف البعض لحظة بلوغهم الحد الذى تبدأ عنده الرؤية ، خاصة أولئك الذين جاءوا ليلاً ، إن الطرق والدروب المؤدية تمر بمناطق قفر ، خالية من الظل نهاراً ، فضاءات غير مرئية ليلا تمرق عبرها الرياح الباردة ، ليس أمام العابر إلا التوارى بجانب تل أو مرتفع صخرى أو رملى ، وفى لحظة معينة عند نقطة تتساوى تقريبا عند الجميع تلوح أضواء مدغمة ، غلالة معلقة ، أصداء الأضواء ، بخار المصابيح المعلقة فى الطرقات الفاصلة المؤدية أو داخل الفراغات المؤطرة بالجدران التى ينمدد فيها القوم ، حتى لو كانت النوافذ والكوات مغلقة ، فإن ما يتسرب خلالها من ضوء يعلق بالفضاءات السارية حتى لو كان ضئيلاً ، رسالة خفية ، هشة ، لكنها مؤداة برهافة للأبصار المترقبة ، المنهكة بطول الرحيل .

فى البدء تلوح الغلالة الضوئية ، العالقة ، كأنها ظاهرة من تلك الظواهر التى تنتشر فى الخلاء الوسيع ، خاصة فى الليالى المزدحمة بالنجوم الثابتة والوافدة والمارقة ، تلك الشهب والنيازك ، القصف الكونى مجهول المصدر والذى كان يثير الرعب فى البداية عند المقيمين فى النُزُل حتى ليرتفع صراخهم وفيما تلى ذلك من أزمنة تحولت الفزعات إلى ابتهالات ثم تأملات متطلعة متأنية بعد الوقوف على بعض الحقائق ، ويقال إن سماء المدينة مغايرة ، رغم أن المسافة الفاصلة بين النزل وأسوارها ونقاط العبور لا تتجاوز عرض هذا النهر ، ذلك أن أضواء المدينة قوية ساطعة حتى ليبدو ليلها نهاراً متألقاً ، لكن الغريب أن تأثيرها لا يتجاوز ما تشغله من مواضع ، كما أنها معالجة بحيث لا تلوح للنزلاء أو المقتربين منها ، لذلك مهما بلغ تطلعهم جهة مبانيها وأسوارها لا يرون إلا عتمة وظلمة يصعب

النفاذ منها أو عبرها، ، إلا من أوتى قدرة خاصة على حل الموضوعات السبعة أو استيعابها على الأقل ومثل هؤلاء ندرة وسيرد ذكر بعضهم ، لكن فى كل الأحوال يجمع الكل أن رؤية انعكاسات الضوء على طبقات الفراغ العليا من أجل ما يمكن معاينته في الكون المنظور ، وتمثل هذه اللمعات الخافتة فى الأذهان إلى الأبد، مهما بدا ومهما أتى الواقع بغرائب الأمور ، دائما للبدايات زهوة ، وللمطالع نضرة ، والمعاينة الأولى لا تمحى ، لا يقتصر ذلك على النظر أو النطق إنما يمتد إلى سائر الحواس ، فما تسمعه الأذن أولا يحدد مجال السامع طوال عمره ، وما تألفه العيون من ألوان فى البداية يؤطر ويحدد المستحب ، المفضل منها ، وما يستحسنه الذوق من طعام يعتاده المرء فى طفولته أو أيامه الأولى يؤجج حنينه إلى ما فات باستمرار ، كذلك الأمر فى الوصال ، فما عرفه الذكر وما ألفته الأنثى أولا يحدد المفضل عند كل منهما فيما بعد ، هذه أمثله على حقائق مفروغ منها ، راسية ، لكن لا بأس من التذكير بها ولفت النظر إليها ، فكثير من البديهيات يتوه فى الخضم ومنها لحظات اكتشاف الأضواء المنبعثة ليلاً ، أو الوقوف على الخطوط العامة لمجمل البنيان لمن يصل نهاراً ، يظن أنه فى مواجهة بيت قديم ، بناية واحدة ، متساوية ، لكن مع كل خطوة اقتراب تسفر المعالم عن مضمونها وتتضح الفروق ، حتى إذا دنا ، لاح السور الوردى ، تلك الدرجة النادرة من اللون الأحمر القاتح ، التى تغمق حينا وتفتح حيناً ، يمضى القادم إلى جواره حتى يصل إلى المدخل الشرقى ، فيجده مغلقاً ، لكنه بالطرق والصياح يفتح الباب الذى كان فى الماضى البعيد من جذوع النخيل .

لا يرد إنسان ، ولا يطول مكثه إلا المقدار الفاصل بين صدور الصوت عنه وسماعه عند القائمين . المكلفين بشئون الباب ، وهؤلاء لهم مهابة ، ومنهم رسوخ متين ، وحولهم كلام ، ليس هذا أوانه أو محله .

لا يمكن لقاصد أن يعود خائباً إذا طرق الباب أو لزمه بعض الوقت ، يحدث أن نفرا يبلغونه فى حالة إعياء صعبة ، وعرة ، حتى لا يقدرون على الطرق أو النطق فيمكثون .

للباب مكانة طبعا توازى رؤية الواصلين ليلاً لأصداء الضوء وتأكدهم أنها من علامات الوصول ، لذلك قال البعض بقدم هذا الجزء من النزل عن المركز ، مثل هذا غير مستحب ، ولا يعرف أحد تأثير صدوره أو البوح به على السماح أو المنع بالنسبة للإقامة فى المدينة ، ذلك أن بعض من قالوا به نودى عليهم وعبروا القنطرة، صحيح .. لا يعرف أحد ماذا جرى لهم ؟ أو ماذا قابلوا هناك ، لكن ذهابهم شجع البعض على القول بما صرحوا به ، ولا يمكن معرفة الطرق أو الوسائل التى تنتقل بها الأفكار ، ولكن أهل النزل يختلف بعضهم عن بعض ، رغم الخشية البادية والصمت الملوح ، وما القول بقدم الجهة الشرقية عن المركز إلا عرض من أعراض الخلاف .

الباب المؤدى إلى النُزُل من الجهة الشرقية أقدم الأجزاء . ليس المربع ، إنه أول ما يقابل القادمين ، كلهم بدون استثناء ، هل سمع أحد عن ضيوف وفدوا من الغرب أو الجنوب أو الشمال ؟

لم يحدث ذلك قط .

إذن .. كيف لا يكون الجانب الشرقى أصل النُزُل ؟ ، بذلك قال المشرقيون وأمرهم معروف : وجميعهم استقروا فى مساحة من الأرض مطلة على الخلاء الذى يفد منه القوم ، هذه المساحة لم تستمر خالية ، إنما جرى تمييزها وإحاطتها ببعض الأحجار فى البداية منعاً للاحتكاك والوصول عند المناقشات إلى حد الاقتتال ، صحيح أن ذلك لم يحدث إلا نادراً عبر مراحل زمنية طويلة ، لكن التحوط جرى واستمر كقاعدة ، ارتفع السور الفاصل ، ثم ظهرت البنايات ، كانت محدودة لضيق الفراغات المتاحة ، حتى أصبحت الطرقات الفاصلة مجرد ممرات

صغيرة يصعب مرور اثنين إلى جانب بعضهما عبرها ، أى لابد للماشى أن يفسح للقادم بتولية وجهه أو ظهره إلى الجدار ، وشيئا فشيئا ازدادت الممرات تشعباً حتى أصبح المشى فيها لمن لا يعرفها يتضمن مخاطرة ، فالعزلة التى أحاطت المشرقيون أدت إلى تقوقعهم وانكفائهم على ذواتهم وحرصهم على عدم الخروج من منطقتهم والتزاوج فيما بينهم ، وربما أدى ذلك إلى ضمور أجسادهم ونحولها وتقارب ملامحهم وفشو الأمراض فيما بينهم ، ومن الملاحظ أن كثيرين ممن ينادى عليهم لا يجيبون ولا يظهرون رغم صدور تصريحات العبور والإقامة لهم ، ويتردد أن هذه المبانى المتشابكة أصبح لها عمق تحت الأرض وأنها تتصل ببعضها وتلتقى فيما يشبه بناية تحتية معدة لإيواء كل المشرقيين إذا ما تعرضوا لهجوم لم يقع رغم أن انتظاره مستمر منذ أعوام لا حصر لها ، ورغم أن كل شىء فى النُزُل مؤقت والمكث فيه لا يدوم لكن هذا الجزء يبدو كأنه اقتطع وأحيط بأسوار شتى بعضها مرئى والآخر خفى ، كما أن تعدادهم ظل مجهولاً ، والأشد غموضاً الوسيلة التى يتزايدون بها ويمررون أفكارهم ومعتقداتهم ، كان بعض الوافدين يقصدونهم مباشرة وكأنهم سمعوا بهم عبر طريق الرحيل ، أو جرى تلقينهم بشىء ما ، لهم شئونهم وأساليبهم فى قبول القادمين إليهم والتحقق منهم ومما يبطنونه، حتى يمكن القول للناظر من بعيد إنهم نُزُل مغاير داخل النُزُل ، ولكن هذا مجاف للحقيقة ذلك أنهم مجرد جزء ، يسرى عليهم ما يشمل الكافة ، ولا يشذ واحد منهم عن القواعد المراعاة للإقامة المؤقتة ، صحيح أنهم مختلفون إلى حد ما لكن من قال إن شخصاً يشبه الآخر هنا ، كل إنسان [illegible] قائمة بذاتها مهما بلغ الامتزاج وسرى التوالج .

أمر آخر .. المشرقيون أنفسهم لا يجمعهم إطار واحد ، يتحدثون فيما بينهم عن أول وافد منهم ، جاء ولزم الجهة الشرقية ، كان جليل المظهر ، أشيب اللحية مكتمل الإفاضة ، كثير الصمت ، اختار مكانة بعناية ، مكث فيه ،

لم ينتبه إليه أحد قبله ، أول ما تلامسه أشعة الشمس فى الكواكب كلها قبة منها يبدأ الشروق ، وأمرها معروف بينهم ، لكن موضعها مجهول الآن . مختلف فيه ، هذا الرجل الصموت موضع خلاف أيضا ، غير أن الكل مجمع على أنه جاء ممسكا بقضيب من الحديد وراح يبرده بجذع شجرة صلب ، نوعية من الأخشاب ذات خصائص محيرة ، إنه كان يستهدف تحويله إلى إبرة ذات ثقب .

هنا يبدأ الجدل بين المشرقيين حول النقاط السابقة ، أولها متعلق بموضع الأرض الذى تلامسه الشمس ، بعضهم يقول إنه تحت إحدى البنايات القائمة ، وآخرون يؤكدون حدوث تباطئ فى دوران الشمس و دوران الأرض ، وأن ما كان شمالاً فى الماضى أصبح جنوباً الآن ، وفريق ثالث يقول إن هذه النقطة معلقة فى الفراغ ، موضعها ما بين النزل والمدينة ، وإن الشرقى الأول حدد موقعها بدقة ، لكنه أودع كل ما يتعلق به داخل المدينة بعد أن نودى عليه فى نفس اللحظة التى أتم فيها نحت الإبرة التى كانت فى الأصل قضيبا غليظاً من الحديد ، أما قطعة الخشب النادرة فاختفت ، تلاشت ، أمضى جالساً أو متمدداً أو مراقبا مائة وأربعين عاما كاملة ولا يعرف أحد كم أتم هناك على وجه الدقة ، فمن يصدر الإذن بعبوره وإقامته هناك لا يعرف أحد هنا شيئا عن تفاصيل ما جرى له .

بعض المشرميين يؤكدون أنه حل الموضوعات السبعة ، قبل مغادرته المكان وآخرون يقولون إنه فرغ منها عقب اكتمال الإبرة ، وفريق ثالث يؤكد أنه دخل المدينة معلناً فضه لمغاليقها ، وأنه مازال حيا يسعى هناك ، وكل مشرقى يصل إلى هناك يقابله ، ويطمئنه ، ويبث الهدوء فى روحه ، ويتلقى عنه ، ويدبر له كل ما يوفر الراحة وهدوء البال ويعوض مشقة الانتظار ، أن وجوده هناك يخفف الكثير من مشقة الرحلة على المهاجرين الجدد ، خاصة عند ولوجهم فضاءات المدينة متعبين

منهكين ، تائقين إلى الكنة والمأوى ، رغم أن المسافة الفاصلة ليست طويلة بالمقاييس المعتادة ، فإن تلك الخطوات القليلة فوق القنطرة وأوقات الانتظار والإجابة على أسئلة لا حصر لها ، متشابهة ، متكررة ، والتهيب من المتوقع، واللهفة على رؤية الملامح الأولى للمدينة ، تلك اللحيظات التى ستبقى ماثلة فى الأذهان أبدا ، يتضافر هذا كله يستنفر أقصى ما لدى الإنسان من طاقة ، لذلك عندما يحط يكون على درجة من الإعياء صعبة ، إن لمساته الحانية ودرايته بالجانبين وما يوجد فى كل ناحية تخفف الكثير عن الواصلين المنهكين .

هذا ما يقوله المشرقيون ، غير أن فريقاً صغيراً منهم اتخذ مقراً ، بناية اسطوانية الشكل ، مغايرة ، قالوا إن المهيب ، الجليل ، طويل الصمت ، لم يغادر النُزُل وأنه مكث حتى وافاه الأجل ودفن تحت هذا المبنى ومعه الإبرة التى كانت قضيبا من حديد . هنا ينقسم هؤلاء إلى فريقين ، الأول يقول إنه لم يصدر له الإذن بعبور القنطرة ، وقطع أيامه كلها صامتاً ، محنياً إلى اللحظة التى يعلو فيها النداء باسمه ، لكنها لم تأت . لم تحل ، الفريق الثانى يقول بغير ذلك ، إنه نودى عليه أكثر من مرة لكنه الوحيد فى تاريخ النُزُل الذى لم يستجب ولم يمض إلى المدينة . وآثر البقاء مكانه يبرد القضيب الحديد بقطعة من لحاء شجرة . يقول نفر من الفريق الثانى إنه لم يقدم على تلبية الإذن بعد أن تم له حل الموضوعات السبعة لشدة تركيزه وطول صبره وصمته وإفراغه الطاقة المعطلة فى حركة يديه التى لم تتوقف قط طوال صحوه ، أما الجماعة الشاطحة من الفريق الثانى فيؤكدون أنه لم يتبع الذاهبين إلى هناك لأنه استحضر المدينة عنده ولم يمض إليها ، ورغم محدودية القائلين بذلك فإن تفسيرهم هذا اعتبر أخطر ما صدر عن النزلاء أو تم التفكير فيه ، تصدى لهم فى البداية أهل البنيان الأسطوانى فى جملتهم ، ودارت معارك مكتومة أريقت فيها دماء ، لكنهم جميعا حرصوا على كتمان نزاعاتهم وخلافاتهم خشية الإقصاء الإجمالى وهذا أوعر

وأصعب ما يمكن أن يلحق بالمنتظرين هنا ، مهما اشتدت المنازعات التى قد تصل إلى حد التصفية الجسدية ، إلا أن القبول بالنفى إلى الخلاء المضاد كفيلة ببث الرعب فى الأوصال ، عرف هؤلاء بالأسطوانيين ، مع أنهم ليسوا بمفردهم فى المبنى ، يقولون إن الصمت والتأمل وإمعان الرؤية أدى به إلى تركيز الحالة التى توصل إلى استحضار المدينة بكل ما تحويه واحتوائها تماماً وتقليبها كما يشاء المرء وليس كما خطط أهلها ومن وضعوا أساسها ، ومن الأقوال التى نسبوها إليه ، لكل منا مدينته ، وما عليه إلا بذل الجهد لاكتشافها ، إما بالرحيل إليها والولوج فيها ، وإما بتمثلها واستحضارها ، البعض يفنى عمره من أجل دخولها ولا يصل إلى تحقيق ذلك ، وقلة يستدعونها إليهم ويفنون كل ما يشكلها من عناصر وموجودات ، معظم المشرقيين يصغون بدهشة ويحاولون إبطال حجج الاسطوانيين بقولهم إن طويل الصمت لم ينطق ، فمتى قال ما ينسبونه إليه ؟ غير أنهم يردون على الحجة بقولهم إن كل ما يُقال ليس بالضرورة نتيجة اللفظ ، ثمة مقولة بالنظر أو اللمس أو اتخاذ الوجهة ، بل إن للفراغات القائمة معانيها ومدلولاتها .

لا يعرف أحد على وجه الدقة كيف يتم انتقال الأفكار المشرقية أو الأسطوانية عبر الأزمنة المختلفة ، خاصة وأن معظم القادمين لديهم أفكارهم ومعتقداتهم وما يعتقد البعض أنه ثوابت ، لكن بلوغ النُزُل يحدث قلقلة وخلخلة .

الوصول إلى النُزُل يحدث حالة تجعل كل انسان متقبل لأى وافد ، يعرف جيداً أن الإقامة مهما طالت مؤقتة وأن الثبات مستحيل وفى لحظة معينة يصدر الإذن بالعبور تمهيداً للإقامة ، هذا طموح كل من قبل الانتظار فى النُزُل ، إن المجىء إليه نهاية مرحلة طويلة شاقة لا يقدر على قطعها كل من أوغل فيها ، لذلك يعتبر نهاية مرحلة وبداية أخرى متضمنة لكل ما هو مأمول ، من هنا يظن معظم القوم

أن ما يتردد هنا لابد من فهمه تمهيداً للعبور ، وكلما تقبلوا ما يسرى بين النزلاء القدامى كان ذلك أوفق وأفضل ، يبدو الأمر فى البداية كما لو أن ما يصغون إليه شامل ، سار ، متغلغل فى سائر النفوس . نفر منهم لا يمضى الوقت الكافى ليكتشف تنوع الأفكار وتناقضها وتشعبها إلى مالا نهاية بين القوم ، إذ سرعان ما يتلقون الإذن بالرحيل إلى المدينة ، أما من يطول بقاؤهم ، فيدركون هذا التنوع أو يبلغهم ، ويتوزعون بين ما يسرى هنا أو هناك ، تماما كما يتفرقون فى المكان والسكنى المؤقتة، هنا يؤكد بعضهم ، خاصة من القدامى ، أن عدد الفرق فى النُزُل مساوية تماما لعدد أحياء المدينة فى الناحية الأخرى ، لكن اعتبر ذلك نوعاً من المخابلة ، لا أحد يعرف بالضبط شكل المدينة ، وكافة ما يقال إنما مجرد تخمين وتخييل ، ما من أمر مؤكد.

الأشجار والقول فى الفراغات

دائما ينطلق الخلاف من القول بالأسبقية ، وكثيرا مايصاغ ذلك على هيئة تساؤلات ، على سبيل المثال ، من ظهر أولا ؟ الأشجار أو النزلاء ؟

من سرى أولا ؟ الريح أو المطر ؟

ما أول ظل ؟

ما مصدر الرياح ؟ وأين آخر محط ؟

هل تعبر تلك النسمات الضفتين وتمضى إلى المدينة أيضا ؟

أسئلة عديدة بلا حد أو حصر ، لا يوجد تحذير واضح بمنع التساؤلات ، بالعكس ، ثمة من يحض عليها . وهناك جملة متداولة رائجة ، تقول بأفضلية الاستفسار ، لكن السؤال لايستلزم الجواب . كثير من علامات الاستفهام تؤدى إلى مثيلتها ، وأحيانا يطرح أحد الوافدين سؤالا عند قدومه ، ويقيم حولا إثر

حول ، ثم يفارق ملبيا الإذن بالإقامة وهو يردد جوهر السؤال مع اختلاف فقط فى الصياغة

رغم القناعة التى يبدأ رسوخها عند الكافة، أو فلنقل الأغلبية بثمة بداية فى المنطقة ، سواء كان المربع أو الحد المشرقى ، لكن المؤكد أن النُزُل لم يظهر إلى الوجود مرة واحدة ، رغم أنه يبدو من بعيد كتلة متناسقة متناغمة . لكن الاستفسار الذى لم يلق إجابة قاطعة حتى الآن ، أيهما أولا . الإنسان أو الأشجار؟

لكن .. لماذا الإنسان ، ولماذا الأشجار ؟

ربما لأن كلاهما نتيجة لمراتب وعناصر أخرى موجودة بالفعل من قبل ، فلا يمكن القول بوجود كلاهما مع انتفاء الماء والزاد الذى يتغير من عصر إلى عصر .

هذا على سبيل المثال فقط ، ولكن يبدو أن حضور الأشجار ماثل بقوة . ليس فى المكان فقط ، ولكن فى الأذهان أيضا ، يقول القائمون على النُزُل - وهم أيضا من العابرين ولكن لهم ترتيب خاص - ان المكان فى البداية لا يمكن تحديده بدقة. بالتأكيد كان هناك فراغ ، أو بمعنى أدق خلاء . قبل أن تهطل الأمطار بغزارة وينبت عشب . طال بعضه وأصبح أشجارا كثيفة ، فى وقت قديم لم يكن ممكنا التمييز بين موضع النُزُل والمدينة ، يمكن القول إن كلاهما واحد . لم يوجد فى تلك الحقبة النائية ، المجهولة ، إلا أصوات الأشجار إذ تتمايل أو تمرق عبرها النسمات أو الرياح أو تدب أسباب مجهولة تؤدى إلى صدور مايشبه الخشخشة أو الأنين أو الضحك الخافت أو النشوة فى أحوالها المختلفة ، يمكن القول إن هذه الأصوات الصادرة عن الأشجار المتراصة المتجاورة أساس معجم الأصوات البشرية والكونية . من الأقوال المتوارثة فى النُزُل أنه لا يوجد شىء ساكن أبداً، حتى الأحجار الصماء بها ترددات‌ها ومنها تنبعث اللغة والاشارات ، لكن لكل شىء من حى وجماد وساكن وناطق لغته . أما الأشجار فحاوية للكافة ، مايصدر عن

الجذع مغاير لما يسمع من الأغصان ، أما مايتخلل الأوراق فمختلف تماما ، أما ما يسرى عبر التلافيف فعلمه خفى ، غير مدرك حتى الآن . هذا مايمكن قوله حول شجرة بعينها ، لكن الأمر يختلف من نوع إلى آخر ، فما يصدر عن السروة مختلف تماما عن المنبعث من السنديانة أو الجميزة أو البلوطة أو النخلة إلى غير ذلك .

نتيجة تغيرات عديدة لا يمكن تحديد مركزها أو نقطة بدايتها ، ربما هناك حيث قامت المدينة وربما فى أعماق المجرات أو لميل الأرض عن محورها ، وقع تغير فى الأرض وخطت قطرات المياه عبر الإصرار المتواصل مجار وممرات شقت الأرض والصخر ، ويعرف المقيمون فى النُزُل أنه مامن شيء أقوى من الماء، ولهذا يجرى التذكير دائما بهذه الحقيقة ، حتى إذا أجاب أحدهم ذاكرا النار سارع محدثه بتوعيته وتفطينه إلى أن ما يخمد النار قطرات الماء ، وللماء فى الأقوال الذائعة أو الأشعار المتوارثة والحقائق الراسخة مكانة جوهرية ، ومنزلة محورية .

فى زمن بعينه انفصلت الأرض ، أو بمعنى أدق ، شقت ، صار هنا ضفتين ، وبالتالى جرى التمهيد لتأسيس المدينة فى ناحية والنُزُل فى ناحية ، أو بمعنى آخر النُزُل على ضفة والمدينة على ضفة . حتى كتابة هذا التدوين لم تحسم مسألة ، أيهما سبق الآخر ؟

اقترنت الأشجار بالخلاء ، إذ لا يمكن أن تقوم جذوعها نحيلة أو غليظة إلا فى فراغ ، فإذا امتدت وتشعبت واكتمل تكوكبها فإن الفراغ ينتفى ويثبت ،فمن ناحية يتبدد بما شغله ، ومن جهة يبرز الامتلاء ماتبقى بدون شغل ، لذلك كانت كثافة الأشجار وتدانيها من بعضها مبرزة ، موضحة للفراغات المتخللة أو المنبسطة ، وتشبه هذه المعارضة مايقوم بين الانسان والشجرة ، عرضية الأول وثبات الثانية ، إن حضور البشر عابر جدا مهما أقاموا فى النُزُل ، غير أن الأشجار راسخة ،

ثابتة ، متوطدة ، يجيء القوم من الخلاء المؤدى ، ويقطنون الأماكن التى تحدد لهم أو يختارونها إذا كان فى الأمر فرصة ، ويعبرون القنطرة والأشجار باقية . لكن الأمر ليس مفروغا منه بهذه البساطة . يؤكد المشرقيون أن لكل إنسان غصن فى شجرة ، اذا يبس مات ، واذا هوى اضمحل ، واذا مالت به الريح مال ، واذا صلب واستقام اكتسب المرء صفاته . ولكن المقيمين على مقربة من المربع ، المحلقين حول الخلاء الذى يحتويه يؤكدون أن داخل كل مخلوق شجرته الخاصة ، ويدللون على ذلك بالأوردة والشرايين المتفرعة أو المؤدية إلى بذرة القلب ، ويقول أحدهم إن الشريان اذا ضاق أو لحقه عطب يجف ويذبل تماما كغصن الشجرة الذى لا تصله المياه لانسداد الثغرات المؤدية إليه . كذلك أوردة المدينة وشرايينها ، إنها الدروب المؤدية والطرقات والحوارى والعطفات والأزقة ، وتلك تختلف من مخلوق إلى آخر ، كل يتخيلها كما يريد ، لا توجد خريطة دقيقة او مرجعية واضحة يمكن الاستناد إليها ، وذلك ان المدينة بأكملها لم تخرج حتى هذه اللحظة عن الخيال الانسانى رغم مثولها على مقربة . لكن هذا لايعنى أى نقطة لقاء أو تماس مع ترديدات «طويل الصمت» المنسوبة إليه والقائلة بإمكانية التركيز حتى يتم استدعاء المدينة بكاملها . تجيء إلى من يطلبها ، تسعى إليه كاملة بدون أن يطرق بابها أو يعبر القنطرة المؤدية أو يخضع لعمليات الاستجواب المضنية ، بل يقوم هو بالاستفسار منها فتجيبه فى مجملها وتفصيلها من خلال أشجارها وبناياتها وثنايا ذاكرتها . ونقاط ارتكازها ، بل من خلال الحيوات التى اكتملت داخلها .

هذا شيء ، والقول بالتماثل بين الشجر والمخلوقات والمدينة شيء آخر ، هناك اعتقاد قديم ، ينتقل من مقيم إلى آخر ، خاصة أولئك القاطنين غرب النُزُل يقول إن لكل شجرة هنا توأم هناك ، و إن كل الأشجار من مختلف الأنواع لها مقابل هناك . عدا شجيرات معدودات ، ما يوجد منها هنا لا ينبت هناك ، ومايورق

ويثمر فى الضفة الأخرى لا يصلح فى الخلاء المحيط بالنزل . عدد تلك الشجيرات من الأمور الغامضة ، كذلك أوصافها حتى ظن البعض أنها من جملة القضايا السبعة . لكن الثقاة ينفون . يقول نفر بامتداد جذوع تلك الأشجار عبر الأرض وتحت النهر ، تتجاوز مجراه على عمق غير معروف ثم تتجه إلى أعلى لتتحول إلى جذوع سامقة وأغصان وارفة مماثلة .

يعرف المقيمون كثيرا مما يتم تداوله حول الأشجار ، يجيئون بأفكار هائمة ومعان غير محددة ، لكنهم هنا يصغون إلى تفاصيل ، يواجهون بأنواع محددة، وحالات جلية . منها على سبيل المثال الشجرة المرضعة ، إذ يحدث أن يجف اللبن فى ضروع الأمهات ، في البداية كن يستسلمن ليَأس عقيم وهن يرقبن أطفالهن المواليد يجأرون بالصراخ . ولايقدرن على تلبية أو استجابة، إلى أن عرفت إحداهن طريقها إلى الشجرة أنثوية المظهر ، أمومية التكوين لينة البزابيز التى تنتهى بها أغصانها الدانية . يكفى ان يقترب فم الرضيع منها لتدر لبنا أبيضا لا مثيل لمذاقه ، لا يستمر قطره بعد بلوغ الشبع، يتوقف تلقائيا ، لا تظهر القطرات الا لشفتي طفل ، غير أن الأمهات بما فطرن عليه كن يستنشقن عطره الخفيف ، الشفيف ، الثرى ، يلمحن قوامه المتماسك ويرقبن لونه الأبيض الذى يذكرهن بمنى الرجال المخصبين الأشداء ، لكن رائحة المنى لها وجود حقيقى فى أزمنة الإخصاب . عندما تتفتح مسام الأشجار لتلقى البذار ويتأوه بعضها ليلا أو نهارا من لذة الجماع والوصال الذى يتم عبر الخلاء ، يتأجج الفضاء السارى وتوصى الأمهات بناتهن بالحذر وألا يعرضن أنفسهن للنسيمات السارية خشية الحمل من مصادر مجهولة لم يحط بها البشر علما ، إلا أن بعض من لم يتحرك فى أرحامهن نبض الأجنة رغم شربهن الوصفات المؤدية ، وقضائهن الليالى على أطراف النُزُل منفردات فى انتظار الخضة المبشرة أو نفاذ شعاع من النجوم لا يفد إلا فى لحيظات معدودات ، لم يتم تعيينها بعد ، لذلك من الضرورى لمن

تسعى أن تبقى منفرجة الفخذين ، مشرعة بكليتها فى اتجاه السماء لعل وعسى، قلائل منهن كن يخرجن منفردات ، عاريات ، متجردات من كل ثوب ، يمضين متطلعات إلى غصون الاشجار ، مستنشقات الهواء ، دافعات به إلى صدورهن ، آملات ، متطلعات ان يتسرب ماينقله من منى كونى إلى خلاياهن فتعمر أرحامهن قبل النداء عليهن وصدور الإذن ، إن تلاحق أنفاسهن ولهفتهن يصل إلى حالة من الدوار الذى يفقدهن شيئا فشيئا إدراكهن لأجسادهن التى تحاول جاهدة وصال الخلاء ، والأرض والأجرام السابحة ، ما لايرى وما لايدرك بالحواس . ان رائحة المنى تثقل أحيانا لغزارة مايتدفق من الأشجار المذكرة إلى الاناث ، خاصة النخيل الذى لم يكن ينمو الا فى الجهة الجنوبية للنزل ويقسم البعض على وجوده بكثرة فى المدينة ، ثمة نخلة جرى الاعتقاد بحمل من تحضن جذعها ، نساء لاحصر لهن تعاقبن عليها وعلى أشجار أخرى من أنواع متباينة ، وقع الحكاك بينهن واللحاء المحرشف ، تحكى مجربة منهن عن اللذة العظمى التى تسرى عبر العظام وتقشعر سلسال الظهر ، ان متعتهن معروفة ، وبلوغهن الأوج مفروغ منه، وسعى النساء إلى مضاجعة العناصر أمره متداول ، ويصغى النزلاء بدهشة ولكن فى صمت إلى ما يروى مثلا عن الماء الأعظم الذى شاهده بعضهم فى الطريق إلى هنا ، والشواطىء الصخرية الوعرة ونزول بعضهن عاريات معرضات فروجهن لرذاذ المحيط الممتد ، الذى لايبدو شاطىء آخر له ، وأجمل أنواع المضاجعة ما يجرى فى أوان العاصفة ، عندما يغمق الضوء ، أو تختفى النجوم ، وتقترب السماء من الأرض ، يضيق الرتق ويهدر الرعد ، وتتسابق الرياح .

أن الصلات الجنسية بين النساء والأشجار والصخور وقطرات المطر ، وظلال السحب العابرة أمرها معروف ، وكذلك بالنسبة للرجال ، ولكن هذه التفاصيل تتعلق بصلات استثنائية ، على هامش العلاقات الأساسية ، المتعارف عليها فى النُزُل والحديث فى هذا الموضوع يطول ، وربما نعود إليه اذا لزم الأمر واقتضى المطلوب ذلك ، ولكن ما يعنينا الآن تلك الأشجار وذلك الخلاء .

أيهما الأصل ؟

الخلاء أم الأشجار ؟

إنه التساؤل مرة أخرى ، دائما يكون للسؤال صيغ متعددة ومضمون واحد ، أما الجواب فله سبل شتى ومضامين مؤدية ، مايجمع عليه القوم ان الخلاء كان فى البدء ، ثم جاءت الأشجار وسائر الموجودات ، وان قال البعض بضرورة الأشجار لإدراك الخلاء ، فلا يمكن استيعاب أمر إلا بإدراك نقيضه ، بل إنهما يتلازمان ، بحيث لايصبح لهذا غنى عن ذلك . أحد النزلاء لاحظ منذ عدة قرون عدم ورود هذه التساؤلات خلال عبور الخلاء إلى النُزُل ، وعند اجتياز القنطرة بعد صدور الإذن وقيل فى ذلك إن الحركة مانعة ، وإن الاستفسارات لا تبدأ إلا مع السكنى والاعتياد على المكان بكافة مايحويه ، و من أقوى عناصره الأشجار والبنيان ، يقول أحد الذين أطالوا المكث وأبدوا الهمة وبذلوا العناية إن أكثر ما أثاره ملاحظة الملامح عند وفادة أصحابها ، لحظة وصولهم إلى النُزُل واجتيازهم المدخل الشرقى ، كلهم يتطلعون صامتين ، مأخوذين إلى الموجودات كافة ، عادة يلتزمون الصمت ، يستسلمون تماما لكافة ما يطلب منهم ، فإذا قيل لهم تعالوا هنا لبوا ، أو .. اذهبوا هناك أقدموا . ويستمر الوضع مدة هكذا تختلف من شخص إلى آخر ، إلى أن تبدأ التساؤلات ، وعند الإصغاء فى البداية إلى الإجابات يكون امتثالا ورضا ثم يرد على الاسئلة بأخرى ، ويقع الخلاف أو الانشطار ، ويقول أحد الأمثال المتداولة هنا إن النزيل يبدأ إقامته بسؤال وينهيها بسؤال عند صدور الإذن بالإقامة والمضى إلى المدينة ، ويقول مثل آخر إن الانسان فى اللحظة التى يبدأ فيها استيعاب الأشجار والخلاء معا يرحل ، يصدر الإذن له فورا ، وأنهم يعلمون بطرق شتى هناك ، ويكون ذلك أحد العوامل المهمة فى الإسراع بصدور الإذن . هذا مايحقق الفروق بين نزيل وآخر، بين

نزيل لا يطول مكثه إلا أسابيع أو شهورا معدودة ، وآخر ربما يمضى أعواما ، وثالث ربما ينتهى أجله ولا يبلغه أحد بالأذن .

الأشجار تتوزع على الخلاء المحيط ، وتنبثق بين المبانى المتقاربة ، وتفصل بينها ، أنواعها عديدة رغم محدودية المساحة ولم يقع إحصاء دقيق لها ، لكن توجد أوصاف مفصلة للعديد منها فى السجلات المخفاة بعناية والموجودة فى إحدى البنايات العتيقة ، هذه الدفاتر غير مسموح بالاطلاع عليها إلا للقائمين على تدبير الأمور ، ولاختيارهم خطوات معلومة ، لكنها معقدة فى جملتها .

إدراك الأشجار أسهل بكثير من استيعاب قبس مما يخص الخلاء ، أو يتعلق به ، أقدم شجرة هنا يمتد عمرها إلى حد لا يمكن تعيينه ، وثمة من يقول إنها من عمر النزل ، جرى غرسها مع دق أساسات المربع الأول ، أو البنيان المبدئى ، هذه الشجرة مهيبة فعلاً ، تقع تقريبا ناحية الغرب ، ويمكن للواقف عندها أن يرى امتداد الخلاء المؤدى إلى المدينة ، ذلك أن النقطة التى يتم عندها التقدم إلى القنطرة قريبة جداً ، غير مسموح بالاقتراب منها ، ليس نتيجة تعليمات محددة ، فلم يصدر أمر من القائمين إلا وجرى اختراقه أو تحديه بشكل ما ، لكن ثمة ما ينتقل من نزيل إلى آخر ، من عصر إلى عصر ، ومن مكان إلى مكان ، يكون له التأثير الأوفى ويرسخ من الفاعلية الكامنة ، لا يحاول أحد المقيمين لمس تلك الشجرة ، أو تسلق أغصانها أو غرس مسمار فى جذعها كما يحدث مع أشجار أخرى إذ يعقد البعض خيوطا ملونة حول رءوس المسامير تختلف طبقاً للأمانى . يكتفى الجميع بالتلويح للشجرة المعمرة من مسافة لا يتجاوزها أحد ، حوالى أربع أو خمس خطوات لعاقل .

أغرب ما يمكن رؤيته شجرة الخجل ، إنها ليست واحدة ، لكن يوجد عدد منها موزع على الأنحاء ، إذا دنا إنسان ، رجل أو امرأة من مسافة سبع خطوات يبدأ انكماش أغصانها وارتدادها إلى بعضها ، تلملم أوراقها ، وكلما تقدم المرء منها

تزايد تداخلها فى بعضها حتى تصبح غصناً نحيلاً ملتفاً لا يمكن إدراكه ، فإذا مسته يد أنس أو حيوان ارتعش بشدة وسرعة لا يمكن معهما بلوغه معه .

يعتقد البعض أن أنواعاً معينة من الأشجار تصدر أصواتاً ، يتلقاها من رتب الأمر فى المدينة على الضفة الأخرى، وعبر عقود متوالية يؤكد البعض أن كل أشجار النُزُل تتجه عند لحظة معينة ، بعد اكتمال الفجر وبلوغ الضوء الممهد لظهور الشمس درجة من الاحمرار الذى لا يمكن وصفه بالقانى أو الوردى، إلى جهة المدينة ، يصبح لأغصانها وثمارها وجهة واحدة ، وإذا قدر لإنسان النظر إلى تلك اللحظة يصدر له الإذن فوراً بالعبور ولا يكون بوسعه إلا أن يلبى .

لا تنتهى التفاصيل المتعلقة بالأشجار النابتة هنا ، أما تلك اليانعة ، المغروسة هناك فى المدينة فلا يمكن لمخيلة أن تستوعب ما يحكى عنها ، وعبثًا يحاول النزلاء رؤيتها أو رصدها من أى موقع هنا .

أما الخلاء فباعث على الرهبة ، والخشية ، وترقب ما يأتى ، دائما ثمة شىء متوقع منه ، فإذا انتفى ذلك وقع العدم واكتمل . وبالطبع يلوح التساؤل ، أهو خلاء واحد يحوى النُزُل والمدينة معاً أم لكل منهما خلاء وفراغاً ؟، يطول الحديث فى ذلك .

أسباب القدوم

من الأمور المعاينة ، النادرة فى الاتفاق عليها ، أن كل المقيمين لا يعرف أحدهم الآخر إلا فى النُزُل ، بعد قدومهم وبدء مكثهم المؤقت حتى لو امتد أعواما ، يجيئون فرادى ، ويمضون كذلك ، من النادر أن تفد جماعة أو ثلاثة معاً ، يصلون متعبين منهكين ، كل منهم قطع مسافة وحدة تتفاوت من شخص إلى آخر ، وأيا كانت أحوال القادم أو مظهره فلابد أن يقبل على الفور وأن يسمح له بالدخول ، وإيجاد موضع ، لم يحدث قط أن رفض قادم .

كما أن النُزُل به أماكن خالية حتى لو اشتد الزحام نتيجة زيادة الوفادة . أو تأخر صدور الأذون بالعبور . كيف يتم توفير هذه الموضوعات كلها ؟ هذا من الأمور غير المستحب الخوض فيها ، وإن كان التوازن قائما بشكل عام بين القادمين والذاهبين .

ما من أسئلة عند الوصول ، ما من استفسار ، الاستجواب المضنى هناك بعد صدور السماح وعبور القنطرة . لكن بعد مدة قصيرة يبدأ الوافدين فى سؤال بعضهم البعض .

من أين والى أين ؟

ورغم بساطة السؤال فإنه مؤد إلى الحيرة وأحيانا نشوب جدل ربما يؤدى إلى خلاف ، الكل يجمع على أنه يسعى إلى فرصة أفضل ، إلى حياة أكثر دعة ، وصيت المدينة وما تحويه وما تضمه وما يتبعها تجاوز تلك الآفاق المرئية ، والبحار التى لا تبدو شطآنها الأخرى . لكل قادم - ذكر أو أنثى - أسبابه . لكنه عادة يخفيها ، لا ينطقها ، وإذا استفسر منه أجاب بمراوغة ، أو بعبارات مبهمة . لكن مامن واحد إلا ودافعه الحياة الأفضل ، بعض منهم يحكى عن ظروف حسنة ، مواتية ، كان يتمتع بها ، لكنه هجر كل شئ وأقدم على خوض المسافات الفاصلة سعياً إلى الأ تم ، بعضهم يظن أن النزل هو الغاية ، منتهى القصد ، لذلك يحل بهؤلاء غم ومسغبة لتواضع ما يطالعهم بالقياس إلى ما سمعوا عنه أو دفع بهم إلى خوض الفيافى ، ولا يكتشف هؤلاء موقوتية وضعهم إلا بعد مضى مدد تتفاوت من شخص إلى آخر ، عندئذ يبدأ تغير أحوالهم ويشتد بهم الترقب وتقوى عندهم المخيلات .

الحقيقة أنه ما من نزيل أدلى بتفاصيل واضحة عن الجهة التى جاء منها ، ومن تتوافر لديه القدرة على ذكر الأسباب الدافعة المحركة، فور وصوله ، فإنه يبدل ما قاله بعد فترة ، ومع انقضاء المدد تتنوع الأسباب ، حتى

ما من أمر مؤكد حول ذلك . لكن هذا يؤجج الحكايات المتداولة رغم التحذيرات بتجنب تفاصيلها وقلة الخوض فيها ، أمر هذه الدروب لم يعرفه أحد ، ولكن ثمة حكايات عن أولئك الذين أقدموا وانتهى بهم الأمر إلى هلاك مبين . هكذا تنتهى كل الأخبار .

هل التقى إنسان بأحد هؤلاء الأدلة ؟

لا .. على الأقل من المقيمين فى النُزُل .

عند وصولهم يوجد بعض النافرين من الإقامة فى البنايات رغم تعيين أماكن لهم ، وهؤلاء يهيمون على وجوههم باستمرار لكن فى الدروب والطرقات والميادين الصغيرة هنا، لا يتبعون نزلاء المشرق ولا أهالى المربع ، أو ناس الغرب ، أو من يترصدون حفيف الأشجار وينتظرون صدور الإشارات من تمايل الأغصان أو تفتح شقائق النعمان ليقدموا على تنفيذ ما عقدوا العزم عليه أو أضمرته نواياهم .

هؤلاء الشاردين لا يلتزمون مكاناً بعينه ، لا يهتمون بمظهرهم ، لا يحلقون لحاهم ، وبعضهم ينظر دائماً إلى فوق ، صوب مواضع معينة لنجوم ، حتى ليقال إن الإذن صدر لهم بالعبور لكنهم تخلفوا ، ومثل هؤلاء لا يعترضهم أحد ، بل يحنو عليهم القوم ، رغم أن كل إنسان صغير أو كبير يعرف تماما استحالة سعى أى كائن صدر له الإذن بالدخول إلى المدينة ، حتى المرضى أو الذاهلين عن أنفسهم أو من أقعدتهم العلة ، يتولى القائمون دفعهم أو مساعدتهم برفق وحنو حتى حدود النُزُل الغربية ، يضعونهم على أول الدرب الحجرى الممهد ، المؤدى إلى القنطرة ، ومن أماكن بلوغهم يتم التقاطهم ، أو مساعدتهم بسبل شتى على العبور وبلوغ مراكز الفحص

يتسابق الشاردون على تقديم خدماتهم للقادمين الجدد ، إن معظمهم يلزم أماكن قريبة من المدخل الشرقى ، يصحبون الرجال أو النساء إلى الأماكن المعينة ، وخلال تلك المسافات الداخلية يتبادلون الإشارات الموضحة ، المفسرة ، يشرحون من خلالها بعض الأمور الأولية . ويظن عدد من النزلاء أن هؤلاء الغرباء ، ومنهم الصم والبكم والذاهلين عما حولهم يعملون بتنسيق وإشراف من القائمين على الأمور ، وأن نفارهم مجرد غطاء ، ولزومهم الطرق مدبر ، لكن ما يقال كثير ، ولا يوجد ما يثبت أو ينفى ، غير أن المجمع عليه بين القدماء والمحدثين الرضا عما يقومون به ولطف ما يقدمونه إلى القادمين الذين يكون بعضهم ذاهلين عن أنفسهم ، مروعين بما عاينوه من مشاق الطريق وكدورات الرحيل . إن الوصول هنا رغم أنه عتبة فقط إلى المدينة يعد نعيماً لمن كابد أهوال العبور من نقطة إلى أخرى ومن بيداء موحشة إلى أخرى أفدح . هذا حال غالب على معظمهم ومن خالف فاستثناء ، إن كل منهم يجئ بلسان مغاير ، بل يمكن القول إنه يتنفس بطريقة مختلفة ، فالأنفاس تتبع المناخ وسائر الترتيب ، لكن بمجرد عبور المدخل الشرقى يصبح كل لفظ بمثابة لغز ، وكل حرف مجرد صوت لا يدل على شئ ، لابد من البدء فى تعلم اللغات السائدة فى النُزُل ، بمعنى أدق إحداها حتى لا تقع المبالغة: الأصل هنا لغة واحدة لكن عوامل عديدة منها اللسان الأصلى للنزيل والقوم الذين سيخالطهم عند بدء القدوم ، والموضع المحدد للإقامة ، يؤدى هذا كله إلى متغيرات فى النطق ، تبدأ طفيفة ثم تتعمق بالممارسة حتى لتبدو بعض اللهجات كأنها لغات مغايرة تماما مع أنها تمت كلها إلى أصل واحد . إن الألفاظ التى يحتاج إليها القادم الجديد يسيرة ، محدودة . الأمر يتعقد شيئا فشيئا عندما يبدأ التعرف على المكان والاستفسار عما جرى أو ماذا يكمن وراء هذا الحجر أو تلك النخلة ؟

المؤكد أن هذه اللغات أو تلك اللهجات لا تصلح ولا تنفع متقنيها عند صدور الإذن ، يتم النطق بها خلال مراكز الفحص والاستجواب حيث تجرى أيضا المطابقات ولكن بمجرد سلوك الطرق المؤدية إلى المدينة ذاتها يصبح من الضرورى النطق بألفاظ مغايرة وإشارات جديدة تماما ، هكذا يمكن القول إن الانسان الذى يستقر به الحال هناك يمر بثلاث مراحل لغوية على الأقل ، لغة المنشأ وتلك تخصه ، لغه النُزُل وهذه لابد من إتقانها لفهم ما يجرى حوله وما يتم التعامل به ، لغة المدينة المغايرة تماماً ، لا يعرف منها أى إنسان حرفاً واحداً ، كل ما يروى عنها من قبيل التخمين وينتمى إلى الرؤى المتخيلة والتى تتغير من شخص إلى آخر ، بل من مرحلة عمرية إلى أخرى ، ومن سنة إلى سنة ، لكن ما يجمع عليه كثيرون وجود هذه اللغة الخاصة ، المغايرة ، والتى يتخاطب فيها القوم بالنظر ، أما الأصوات فلا حاجة لإنسان إليها ، ذلك أن الفراغات هناك على درجة من النقاء والشفافية حتى ليبدو كل ما يجرى وكأنه مصاغ من أصداء الضوء . هناك لا يترك إنسان لنفسه ، إنما تتعهده الجهات القائمة برعايتها وعنايتها فلا يعول هماً ولا يكابد مشقة ، لا يبذل إلا ما يتطلبه الاستيعاب ، ولا ينفق إلا بقدر الحاجة . ثمة مراحل مجهولة ولا تشملها الرؤى المتخيلة يتم خلالها الإعداد لولوج المدينة ، لكنها لا تتصل بقريب أو بعيد بمراحل النُزُل ، هنا انتظار يعقبه انتظار ، لكن هناك كل خطوة بقدر ، لها توقيتها الذى لا يمكن تجاوزه ، مراحل التجهيز يتم الاطلا عليها مسبقاً بدءا من حلاقة الشعر كله وحتى إتقان اللغة الجديدة المستمدة ه النظرات وتقلباتها .

كل مقيم هنا يأمل فى مهنة مغايرة هناك ، أو ظروف أفضل لممارسة مهن التى تعلمها فى منشئه الأصلى ، حتى وإن استوعب تماما انقلاب الأوضا واختلاف الشروط ، إن ما يتردد عن درجات اللون الأخضر هناك فقط يدي

الأخيلة ويؤجج طاقات الأحلام ، أما البيوت الدانية ، القصية عن كل ما يجاورها فلها تفاصيل شتى . بالتأكيد كل مقيم هنا لدية أحلامه الخاصة ومشروعاته التى يخطط لها .

غير مسموح باصطحاب أى رأس مال عند صدور الإذن وعبور القنطرة، قبل المفارقة يتم تجزيد المرء من كل ما لديه ، لا يمكن أن يحمل معه حتى ثمرة من النخيل الكثيف ، خاصة فى المناطق الغربية المؤدية ، البداية هناك لابد أن تكون نقية لا تشوبها شائبة ، من الصفر تماما ، بل يقال إن مراحل التجهيز والتى تتم خلالها عمليات الاستجواب الكبرى والتركيز على من يرغبون تبديل معتقداتهم بأخرى جديدة ، أو الانتظار للاستيعاب ، هذه المراحل الهدف منها التأكد تماما أن من يدخل المدينة لا يحتوى على مجرد فكرة يمكن أن تحدث قلقلة أو تشيع أمراً غريباً على المستقرين هناك ، هنا ربما يلوح استفسار ، وهل من الممكن ذلك ؟ بدون فحص أو استرشاد يمكن القول بنعم ، وعلى امتداد وجود النُزُل جرى مثل ذلك عدة مرات ، وأبرز مثال مخفف ودال أيضا ما يتداوله القوم حتى الآن عن الباب .

جلوة الأسماء

فى البدء لم يكن ثمة أسماء خاصة بالنزلاء، كان القادمون مشغولين بأمر واحد لا يعرفون غيره، بلوغ المدينة، ولم يجر ذلك الحوار المعتاد عند المدخل الشرقى، عندما يسأل أحد القائمين عليه :

«ما أسمك؟».

«من اين جئت؟».

«هل تقصد المدينة؟».

ثلاثة اسئلة موجزة، سريعة، لا يعقبها أى جدال مع الإجابات.

بل يحدث احيانا ان يبدو القادم ذاهلا عن نفسه، غير قادر على الرد، فلا يقع اصرار ولا تصدر مضايقة.

بل يتردد انه فى البدء، لم يكن هناك مدخل شرقى او غربى، لم يكن هناك تساؤلات أو اجوبة، لم يكن هناك مربع ولا مكعب ، لا مستطيل، ولا دائرة، لم يكن ثمة فوق او تحت.. ما من شجر او تلال. ما من مرتفع او منخفض، لم يكن هناك نُزُل، ولا مدينة.

كان الخلاء مثل الامتلاء، وأى شىء كأى شىء.. ذلك أنه لم تكن اسماء بعد، هذا ما يتردد حتى الآن بين نفر ممن يقطنون وسط النُزُل، إذ يؤكدون أنه لم يكن ممكنا تحديد اى شىء قبل ظهور الاسماء، ليس بالنسبة للبشر فقط، انما بالنسبة لسائر الموجودات بما فيها النُزُل ذاته والمدينة المرجوة، كانت المخلوقات كلها متشابهة، الانسان صدى للانسان، وهذا الجنس من الحيوان عنوان لسائر الاجناس الى ان قدم من اقصى الشرق ذلك الرجل المعروف فى سجلات النُزُل المخفاة فى مكان سرى، يتردد انه هناك فى المدينة. هذا الرجل يطلق عليه لفظ مندثر قريب من معنى، « رائى الحقيقة » أو «مشاهد المعنى» يؤكد البعض ان اوصافه محفوظة من خلال رسوم خطها هو على حجر وردى اللون، الاطلاع عليه غير متاح إلا لمن يقدر على حل القضايا السبع، وهذا نادر جدا، إن «مشاهد المعنى» هو الوصف الاكثر شيوعا لذلك سنطلقه عليه، تجمع المصادر كلها والروايات المتناقلة، أنه جاء الى المنطقة بأمرين، الاسماء، والباب، لكن ثمة من يقول إن من أدخل الباب الى النُزُل شخص آخر ينتمى الى نفس الجماعة التى جاء منها «مشاهد المعنى» ، وحتى لا يقع اضطراب. فالخلاف سمة كل شىء هنا، سنأخذ برأى الجماعة المقيمة حول الفراغ المربع، وهم الالصق والادنى بالقائمين، المدبرين للأمور، وهؤلاء يؤكدون أنه شخص واحد، وأنه ينتمى إلى

موضع من الارض يجرى فيه نهر مقدس، تحيطه زراعات عميقة الخضرة، وتقوم فيه أبنية مضى على بعضها آلاف السنين، كلها من الحجر، وأعظمها هرمى الشكل، لهذا المكان اسم لكن اختلف عليه ايضا، فثمة من يقول انه الدافىء، وآخرون يؤكدون انه الأسمر لغموض تربته وطيبتها ونعومتها، وقلة تزعم إنه «كمى» ولا يعرف اصل هذه الكلمة، كما لا يمكن لمخلوق ان يفسر السبب الذى دعا بمشاهد الحقيقة إلى مغادرة موطنه هذا الحافل بكل ماهو جميل وقطع البرية المجدبة، الموحشة، والسعى الى النزل التماسا لعبور القنطرة، كل ماتحدث به عن موطنه لايضيف كثيرا الى الرؤى المتخيلة للمدينة، لكن يبدو ان اضطرابا عظيما وقع هناك، وأن مشاكل قصوى أدت الى فراره، وقطعه المسافات هكذا وصل إلى هنا، على أى حال، ورغم كل شىء هو أول من حدد الأشياء، للقوم بأسمائها، وهو من أطلق على الموضع «نُزُل» وعلى هناك «مدينة» هكذا وقع التحديد واستقر الفتق، هو من أرسى ظهور الوجود بالاسم، فالشجرة ماثلة من قديم، لكنها مجرد كيان غامض فإذا ما أطلق عليه الاسم صارت موجودة بغير وجود، لايقتضى الأمر إلا ذكرها، فتمثل على الفور بأغصانها، وثمارها وجذعها وجذورها وسائر علاماتها، فإذا ما أضيف اسم الصنف صار الحضور أوفى والتمثيل أوقع، فهذه نخلة وتلك صفصافة والثالثة جميزة والرابعة سروة، والخامسة صنوبرية والسادسة للأرز، والسابعة راتنجية والثامنة من السرخس والتاسعة فاتحة لأنواع الصبار والعاشرة مدخل للنخيل.

وهكذا.

ومما أرساه وقوى دعائمه القول ببقاء الانسان أو الحيوان أو النبات ما بقى الاسم، وحدث عن قومه وحرصهم على نقش اسمائهم على الأوراق المتخذة من النبات وعلى الجدران بحروف غائرة حتى لا يمحوها الزنادقة والجوعى، وعن

أشخاص ينفقون ما كدوا لجمعه حتى يذكر اهل السبيل اسماءهم لا غير، وعن ملوك أنصاف من الآلهة شيدوا عجائب البنيان، فقط للذكر، وترديد الاسم.

مادام الاسم يتردد فهذا يعنى بقاء صاحبه حتى بعد هموده وتوقف أنفاسه وكفه عن الرؤيا.

لا يستقيم الوجود إلا من خلال اسم .

هذا نُزُل.

هذا شرق، هذا غرب، هذا شمال، هذا جنوب، هذا فوق، هذا تحت، هذا خلاء، هذا بناء، هذه نسمات، هذه رياح، هذا صبى، هذا شاب، هذه فتاة، هذا شيخ، هذا مقيم، هذا قادم، هذا عابر.. إلى غير ذلك.

قال إن اسم الانسان يحدد صفاته ويؤطر ملامحه، منه وبه يمكن إلحاق الأذى أو اهداء النفع والتليين والتطويع، حكى عن العبارات المؤثرة التى يحرص القوم فى بلاده على كتابتها للأحياء العابرين بمقابرهم وأماكن رقادهم الابدية، فهذا يتوسل لذكره عند الاله وذاك لا يريد اكثر من تلاوة التعاويذ، وثالث يطلب من المارة التوقف وقراءة عبارة اوصى بكتابتها، ان الغرض الحقيقى من هذا كله ذكر الاسم بشكل ما، وما دام الاسم يتردد فصاحبه حى بشكل ما، موجود بطريقة ما.

كثيرون مروا بالنُزُل، أقاموا فيه مددا متفاوته واحدثوا من الامور مايجرى ذكره بانتظام، وما أدى الى تأثيرات عميقة غيرت وسهلت حياة القوم، ارتبط بعضهم بلحظات حاسمة، أو اكتشافات مبهرة، أو التعبير عن معتقد ساد أو مازال ينتشر، لكن كل هؤلاء فى جانب و «مشاهد المعنى».. فى جانب. بتسميته الاشياء هنا تفرقت عن بعضها وتحددت، وتلك علامة فارقة، ونقطة لا مثيل لها، بل يعتبرها الكثيرون بداية وجود النُزُل، والمدينة ايضا، فكلاهما مترابط، وينسى

هؤلاء أن الرجل الذى سعى من بعيد لم يأت من فراغ ولم يصل إلى هباء ، وإلا فعلى اى الموجودات أطلق أسماءه أو ألفاظه؟ ..

وهذا موضوع يطول الحديث فيه، خاصة انه لم يطلق الاسماء على الأمور الظاهرة إنما الخفية أيضا، تلك التى يصعب تحصيلها، وبقدر خفائها وصعوبة ادراكها بقدر وعورة الاهتداء الى سماتها الدالة، ومن الوافدين نفر انفقوا كل ما قضوه هنا من نهارات وليال فى محاولة المعرفة وفهم اسم او اسمين، لكنهم فشلوا وتعثروا.

الأمر صعب!

لكن الأصعب المثير للجدل ذلك الباب المؤدى الى كل مايمكن ادراكه عندما اجتاز المدخل الشرقى واستقر قرب المربع الخالى، القديم، بدأ فى تشييد المبنى الذى ارتفع لأول مرة على الحد العلوى للمربع، وشيد داخله اول درج يمكن القوم من الصعود بلا كلل.. ولكن أخطر ما أقدم عليه الباب، بالطبع ليس الباب المؤدى الى داخل المبنى، من المفروغ منه أن كل باب هو وصلة، همزة تمس عالمين حتى عند الاغلاق، ولكن.. ما تفسير الباب الذى لايؤدى إلى شىء؟

هذا ما أقدم عليه «مشاهد المعنى» عندما راح ينحت فى الجدار باباً مماثلا لكل الابواب.. محدد، مؤطر بلونين، أحمر قان وازرق فيروزى ، ويقسمه خط أصفر كهرمانى، القادم يكاد يفوت عبره، أو يجذب احدى ضلفيته، لكنه لا يفاجأ إلا بصد ورد.

يقول مشاهد المعنى إن عتاة الكهنة، سدنة المعانى كلها والجواهر المتبقية بعد جهد جهيد ومكابدة استغرقت مائة وخمسين قمراً مكتملا توصلوا الى أجل ما أنجزوه، ما تفوق دلالته كل المعابد العظمى والمقابر المنحوتة فى الصخور الصوانية، والاهرام المكسوة بالأسرار المشعة للكون، بعد أن أضناهم ماجرى من

انهيار وفوضى أتت على أجل المقدسات بعد شيوع الخلط، توصلوا الى مايصون ويحمى، إلى أهم ما اسفرت عنه موروثات كل من عاش وشرب من ماء النهر العذب.

الباب الذى لا يؤدى الى شيء ويفضى الى كل شيء.

الباب الوهمى.

هذا الباب أحدث من الرجة والاضطراب هنا ما لم ينتج عنه فى منشئه، فى الديار التى ظهر فيها لاول مرة، ذلك انه هناك مستند إلى معارف جمة، وأسرار لا حصر لها، وحروف، وطقوس، ونبوءات، وقدرات مختلفة لتفسير الاحلام، ولحظات الشجى، وانبثاقات النشوة.

والقدرة على فهم ما تبوح به الرسوم او المنحوتات التى تبدو صامتة، ماثلة أبدا، لكن القوم هنا أمرهم مغاير، معظمهم لا يقدر على الاستيعاب ولذلك اتخذ الباب الوهمى هنا أبعاداً لو اطلع عليها من قدحوا فكرهم للوصول اليه لضحك فريق منهم ولبكى فريق آخر، وليس فى ذلك أدنى مبالغة.

عندما نما إلى علم القائمين على النُزُل اعتبروه سرا يخصهم وتمكنوا من اخفائه مقدار ثلاثة اجيال كان «مشاهد المعنى» نفسه قد أصبح مجرد ذكرى واهية، هم الذين ظنوا أنه مؤد الى المدينة مباشرة، وقالوا فى ذلك اشياء، منها ان المكث امامه اربعين مطلع شمس يكفي لعبوره مباشرة، وفى قول آخر إنه مع شمس اليوم الحادى والاربعين يسمع منه صوت يأذن بالدخول، فيعبر المرء ومع كل خطوة تشع الحقيقة إثر الاخرى حتى يصل إلى حد لا يمكنه التحمل لمحدودية قدرته البشرية، عندئذ يشف ويخف، يتحول إلى ضوء مكين، نافذ يمكنه عبور الموانع.. ويتردد ما بين هنا وهناك بدون أن يلحظه أحد أو يقدر على رده مخلوق أو ترتيب، أيا كان، وفى قول ثالث إن من يقدر على الصبر المكين ويشخص

سبع ليال إلى الباب الوهمى بدون أن يغمض له جفن، فإنه يرى كل ما تحتويه المدينة، فيبلغها بدون عبور، ويتمتع بأجوائها بدون صدور إذن.

وهذا الاعتقاد لا صلة له بما يقول به المشرقيون سكان البناء الأسطواني المستمد من «طويل الصمت» الذى قال بإمكانية استحضار المدينة بدون الذهاب اليها او عبور القنطرة.

هذا قول وذاك قول، لكن ما سببه ذلك المرتبط بالباب الوهمى أفدح وأوعر، ولكم أدى الاعتقاد به إلى هيام نفر غير قليل، أو وقوع خلافات راح فيها كثيرون.. على أية حال لا يمكن منع مايقال. وما يبدأ همسا يتحول إلى ضجيج فيما يلى منشأه وبدايته، وكما قال البعض إن الاصل للجميع بما فيهم الجنس الانسانى تلك الاشجار.

قال آخرون، إنه طويل الصمت الذى علم اتباعه الاطلاع على عز المدينة فى ثباتهم، حتى أن بعضهم يقلبها كما يرغب.. وقال آخرون إن النزل والمدينة ماهما إلا نتاج اسمين نطق بهما «مشاهد المعنى» ذلك القادم من بعيد، تماما كالأنثى الضاوية.

أنس الوجود

قبل وصول «مشاهد المعنى» أو «الرائى الأعظم» كما أطلقوا عليه بعد مضى ثلاثة قرون على غيابه، لم يكن الرجال يعرفون النساء، ولم تكن النساء يدركن أن هؤلاء رجال . لم تكن هناك أسماء للاجناس، وبالتالى للاعضاء، كان النزوع هو الغالب لضغط الحاجة، فإذا بلغت الذروة وفاض الامر جرت المضاجعة، فى الاغلب الاعم بين الرجال والنساء، ولكن كان بعضهم يتجه إلى معانقة الاشجار، او مضاجعة الأرض والإيلاج فى الفراغات المؤدية. أو ملاحقة الحيوان . تتسم تلك

المرحلة بغموض بليغ، حتى يقال إن الذين جاءوا إلى هنا قادتهم الضرورة، وعندما نودى على معظمهم لم يلبوا وظلوا لاهين إلى أن اضطر القائمون على التدبير من الناحية الاخرى إرسال من تنكر في هيئتهم ليرشدهم ويدلهم، هذا ما يؤكده المشرقيون من قاطنى المبنى الاسطوانى، ويوقن كل منهم ان الصلات قائمة بين هنا وهناك، وأن الحرس المكلفين لاينقطعون عن عبور القنطرة فى الاتجاه المقابل لكن فى مواقيت معلومة وبعضهم يتجاوز النُزُل الى الخلاء ساعيا بالرسائل غير المنطوقة الى أركان الدنيا، ونواحيها المعمورة، لكن مثل هؤلاء لا يمكن معرفتهم أو التحقق من هوياتهم، ذلك أنهم يتقنون التمويه والتفوه بكل لسان أمروا بإتقانه، وهذه الأنثى التى علمت الرجال والنساء لذة النكاح قدمت من المدينة، ولم تأت من الخلاء كما تشير بعض المتون.

أوصافها شائعة ، لايرد ذكرها بالنطق، أو استدعاؤها عبر الذاكرة إلا وتسرى أنغام خفية، عتيقة، تحض على النزوع فى سائر الجهات، وتستنفر الكوامن، لكن إذا حاول أحدهم استعادتها استعصى عليه ذلك . لايعرف أحد موعد وفادتها إلى الكون، ويزعم المشارقة الاسطوانيون أنها ولدت عدة مرات، وأنها جاءت على مراحل لشدة خصبها وثرائها وتنوع عناصرها . عيناها دانيتان، مقتحمتان ، فسيحتان، طاقتان مؤديتان وحاضنتان فى الوقت عينه، مانعتان، لا يجرؤ الجسور على الاقتراب منهما، أو التطلع اليهما إلا إذا شاءت ورغبت، كل مايتعلق بها مرهون بما تراه حتى لو واجهها العتاة، الجبابرة.

قوامها مرجع، وقياس للجمال الانثوى رغم توالى العصور، وانقضاء الحقب، لها صفات كل ماينبثق من الأرض ويعلو عليها ويسرى، وبسوق النخيل وفراهة الجذوع ومتانة الرسوخ لكنها إذا مادت فهى اللين عينه.. والنعومة ومصدر كل يسر.. استداراتها رموز لتقبب السماء وكروية الأرض. وشروع نهديها يستلهمه النحاتون حتى الآن، والبنائين الذين صمموا الشرفات

والبروزات والكوات المشرفة، أما خصرها فعلامة للنسيان والانزواء مع الحضور والرهافة المؤدية، لأردافها الكمال، وما من ذكر توسدهما أو إحاطهما بيديه إلا وأدركه ذلك التمام، أما فخذيها وتقوس مابينهما فمنهما اكتمال العناصر، لذلك عُدت قدماها أساس البنيان. سماتها لاتزال تذكر في بعض أنحاء النُزُل، خاصة عند المشارقة وأيضا المغاربة، وكذلك ما افتننته أو أبدته للقوم الذين كانوا يقعون على بعضهم في فوضى لا تعرفها الحيوانات.

كان احتواؤها اطلاقا وتنزيها.. وامتثالها زهوا وتيها على ماعداها، وآهاتها خصباً، منظومة وسائل. لم تكن انثى، بل عقيدة وشعائر، لم تنته بفناء حضورها المادى، بل انتقلت من حول الى حول ومن رصيد إلى رصيد، وما تهمس به الامهات الى بناتهن المقبلات حتى الآن إنما ينبع من فيضها ويرجع الى كوثرها.

أصلحت الشئون، وقومت الاوضاع، وتسيدت عندما دلت الخلق على مسارب المتعة والأوتار غير المرئية، وأفصحت عن قوانين مستقرة من يستوعبها يعرف الاتحاد الفعلى، والاندماج الكلى، يقال إن «مشاهد المعنى» كان يردد بفخر تفاصيل التوصل الى الباب الوهمى ومايعنيه لكنه كثيرا ما ردد استفسارات حائرة لم تلق جواباً حتى الآن، منها المتعلق بمصادر الرياح . عند أى نقطة فى الكون يبدأ سعيها وماكنه القوة الدافعة ؟..

وأيضا قسمات هذه الانثى التى تؤكد كل النصوص المتوارثة انها كانت تتغير من لحظة إلى اخرى، من أى نبع استمدت ملامحها التى لا تنفذ، من أى مصدر؟

قبل مجيئه لم يكن هناك أسماء ولم يكن تدوين، بدأ ذلك كله بعده، والمتفق عليه تقريبا أنه شغل بها وتقصى أخبارها بشكل ما، إذ لم يكن بين المقيمين من يتقن الالفاظ الدالة عليها. ويبدو أنها زاحمت وجوده فسعى إليها بالمخيلة وحاول استحضارها بالتصور، لذلك يوجد فى النُزُل من لم يقرب امرأة قط، أو من لم يقتحمها ذكر، هؤلاء جماعة يتوارثون مايعتقدونه ، ودائما هم هناك حتى وإن قل

عددهم، يقولون بسمو الاستمناء واكتمال مشروعيته . من خلاله قال «مشاهد المعنى» مايتمناه منها، وامتزج بها.. هؤلاء يقولون بروعة بلوغ المفرد مايريد، بإمكانه استدعاء من يشاء، فى أى مكان او زمان، بقوة المخيلة، وتحقيق أقصى حرية موجودة او مأمولة ، بل ان بعضهم أمكنه من الاوصاف المتخيلة عن إناث المدينة صياغة ملامحهن واستحضار بعضهن ومضاجعتهن، يحدث أن يلتقى أحدهم بأنثى لها طلع ورغبة وكينونة، يقدم على ممارسة الحب، لكنه يغمض عينيه ويستدعى من يهوى او من يتمنى، فيندمج فى حضور، ويكتمل فى لا حضور آخر، وهذا غريب لكنه معروف مجرب..

كل سيرة الى انقضاء وإلى اندثار، عدا ما يخصها وما يتعلق بها، المسألة بالنسبة للآخرين مسألة وقت فقط، حتى لو طال الامد وتعاقبت الحقب فكل ذكر إلى زوال وكل اسم الى محو ، بمعنى الاسم الذى يشير الى شخص بعينه امضى زمنا وملأ حيزاً فى المكان، هذا ما لم يحسمه «مشاهد المعنى» وإن كان يشير صامتاً الى الباب الوهمى، فاعتبر المنتظرون ، التائقون المتوقعون صدور الاذون بين لحظة واخرى ، ذلك بمثابة إشارة الى المدينة، كل أمر صعب حله وكل ما يفتقدونه موعدهم معه هناك، حتى لحيظات الحنين والشجى المحفز.

بعد أن أتى «مشاهد المعنى» بالأسماء، وأسس لما يستجد منها بعد أن جاء بالباب الوهمى وخلف مايتعلق به ، بعضه مفسر وكثيره مغلق .

أمضى ماتبقى له فى تقصى آثار الانثى التى علمت الاناث مالم يحطن به علما من قبل، وساعدت الرجال ليس على اكتشاف حواف اجسادهم ومكنوناتها إنما سائر مايتعلق بأحوالهم، حتى أن نصا قديما يتحسر على أولئك الذين لم يدركوا زمانها، وراح عليهم كل ما أبدته وبثته من تعاليم وحركات وأهداف لا حصر لها.

قبلها كان كل شيء كأى شيء.. القبيحة مثل الجميلة، والطويلة كالقصيرة، والفلجاء كالمستوية، ولم يكن بين القادمين من يأتي بأنثى، أو تصحب ذكرا يخصها، وفقا للطقوس الاصلية لايسمح إلا بدخول الافراد حتى لو جاء بعضهم في جماعات، هذا نادر جدا، يجيء القوم واحدا اثر الآخر، تماما كما يخرجون فرادى لعبور القنطرة الى المدينة، كثيرون كانوا يصحبون أمتعة معهم أو بعض حاجاتهم، لكنهم يفارقونها عند المدخل.

تماما كما يخرج النزيل بدون تمرة، يدخل أيضا، لذلك اكتفى بعض المشرقيين بالاقامة في الخلاء، وقضاء حاجتهم في العراء، والاعتماد على ثمار الاشجار في اشباع جوعهم، وبشكل عام فإن متطلباتهم هينة. يقولون إذا كان غير مسموح ولو باصطحاب نواة بلحة عند العبور الى المدينة، فلماذا الانشغال بالبنيان، وتحسين الواجهات وإضافة الطوابق ونحت الاشكال وصك المعادن وطول التطلع الى النجوم؟

حتى الآن وبعد استقرار النظم - رغم اختلافها المرتبة لعلاقات الجنسين يعلنون عدم التزامهم بكل ما يتبعه الفرقاء، سواء أقاربهم المشرقيين او المغربيين، أو أهل الوسط المنتظمين حول المربع الخاوى، ونزلاء المبانى المتداخلة أو المنفصلة، أنهم الاقرب الى الفطرة الأولى، والحالة التى كان عليها المقيمون قبل وفادة أنس الوجود او مطمئنة القوم كما تعرف فى النصوص العتيقة، والاسم الأول أطلقه عليها مشاهد المعنى، ومما يثير الدهشة ان اسمه هو نفسه غير معروف، غير محدد.

قبلها كان الكل للكل، لا فرق، لكنها هى التى دلت كل منهم على الاختصاص وبينت لهم الأصول والفروع.. قبل مجيئها كان الوقت يمر بطيئا ، ثقيلا، جالبا للملل والمشاكل، ويحكى أن بعض القائمين على النُزُل لجأوا فى فترات قديمة إلى اختلاق انشطة لإلهاء المقيمين ، المنتظرين، مثل تقليم الأشجار، وعد فروعها،

وتهذيب أوراقها، أو نقل رمال الغرب إلى الشرق ورمال الشرق إلى الغرب وهذا عجيب، غير أن هذا انتهى بعد ظهورها، إذ بثت بينهم من فنون الملاعبة ما يستنزف أعمارا وكشفت عن وسائل تقرب ومناغشة يحتاج المرء أنثى أو ذكر إلى سنوات متتالية لاستيعابها.

أكثر من ألف ألف طلة قمر مكتمل انقضت على مجيئها وأمرها بعد سارٍ متصل، وبالطبع لايمكن القطع بكل مايروى الآن، فالوقت قصى، ومباعد، وتفاصيل عديدة اضيفت، مثل القول إن تأوهاتها كانت تبث النشوة فى سائر الموجودات، حتى الاشجار تسعى إلى بعضها، وتفارق حبوب اللقاح مراقدها فى غير مواسمها، وتميل السماء على الأرض حتى ليسمع للنجوم شخير، ويتردد لمياه النهر نخر وترهز الأرض حتى ليخشى منها وهذا أصل الزلزلة! ولايبقى مخلوق بمفرده، كان لديها القدرة على بث الطاقة واستنفاد الكوامن بالصوت، ولم يكن صوتها واحدا، إنما كان درجات وأجناس يصعب توصيفها الآن..

أما أريجها فيحتوى اقساما كاملة من النُزُل ويفتش البعض عن مواضع رقادها حتى الآن بدعوى ان عطرها مازال متشبثا باليابسة رغم فوات الرياح وتعاقب الامطار وشدة التآكل.

نسلها لايوجد هنا، إنما هناك، معروف فى المدينة، باد لكل ذى بصر وصاحب نظر، والسعيد، السعيد من يستدل على إحداهن فيلزمها حتى تقبل به، وإن كان الترتيب هناك مغاير تماما لما تقوم عليه الأمور هنا.

لا يعنى سريان فنونها، وبقاء نصائحها، وانتقال خبراتها أن الجميع يلتزمون أفعالا متقاربة أو وسائل متقاربة، شتان مابين أنثى الجهة الغربية التى تعتبر جسدها عالما لا يمس إلا بعد إتقان وطول دربة واقتناع أتم بمن يسعى. وأنثى الجنوب التى تفور دائما بالرغبة حتى لتسمح بإتيانها عبر كل المداخل المؤدية اليها مادام ذلك محقق لراحتها اقتداء بعبارة وردت على لسانها، قالت فيها:

تلك بوابات جسدى فليعبرها من يقدر، أما إناث المشرقيين الاسطوانيين خاصة فتبقى الواحدة منهن عذراء لا يجرؤ ذكر على مسها إلا بإذن من القائم على البناء، وأحيانا لا يصدر، أو تحدث ظروف معوقة، فتنقضى الفترة وهن لايعرفن ما آتاهن الوجود من مصادر متعة، ومثل هؤلاء يجرى افتضاضهن في مراكز خاصة بعد عبور القنطرة، صحيح.. يتردد الكثير حول ابكار المدينة، وما ينفردن به، لكنهن مختلفات تماما عن أبكار النزل، هناك البكارة متجددة، إذ ترتد كل منهن عذراء بعد افتضاضها، ولهذا يمضى الذكر ما قدر له العيش فى حالة افتضاض دائم، كما أن الأنثى هناك تتشكل بالهيئة التى يرغبها عليها الذكر، وكذلك الرجال، إن افتضاض العذارى فى مناطق الفحص ليس إلا اجراء من عشرات الخطى التى يتم خلالها تخليص القادم من كل ما تعلق به ، عبر رحلة قدومه أو اثناء اقامته، وهذه الاقامة تختلف مدتها من شخص الى آخر، ولذلك كانت دعوة أنس الوجود إلى التعرف على الملذات الكامنة، واللطائف السارية، صحيح أن ما تحتويه المدينة لا يمكن للمخيلة البشرية استيعابه، ولكن رغم قصورها فإنها تجتهد لتخيل ما ينتظر كل من النزلاء بعد تمام العبور. هذا ما يندرج تحت المعطيات المعروفة بالرؤى المتخيلة وتوجد عدة نصوص مهمة، منها الرؤى النهارية، ومشاهدات الليل، ورصد الهمس، وإدراك الأفق، وكتاب الأمل، وزبور الألم، وإطار القنطرة . وعمارة البوابات .

إيراد هذا كله صعب، كما أن الإحاطة به عسرة ، لذلك نورد ما قدرنا على فهمه، وما يمكن استيعابه .

سلافة المتخيل

كل امرىء هنا ، أيا كانت الجهة القادم منها، أيا كانت مكوناته أو ما يتعلق به، كل من يتنفس هواء النُزُل يعرف أن إقامته محددة مهما طالت. حتى وإن استغرق

فى مشاغله وانهمك ، لابد أن ينتبه على خاطرة مباغتة من داخله، أو إشارة من خارجه فيدرك فى ذروة انغماسه أنه فى مقام مؤقت، وعند لحظة لا يلم بها وليس له تأثير فى تقريبها أو إقصائها سيغادر كل ما يحيط به، ما يستند إليه أو ما يستظل به ويتجه إلى القنطرة مجردا من كل شىء .

القائمون على النُزُل، وهؤلاء يجرى اختيارهم من بين النزلاء طبقاً لأصول قديمة وخطوات عتيقة، يقدمون على تصرفات محددة بين الحين والآخر الهدف منها تنبيه القوم إلى موقوتية الوضع، خاصة بالنسبة لمن طال عليهم الأمد . والوسائل إلى ذلك عديدة متنوعة .

يحدث أحيانا سريان همس بقرب صدور إذن يعقبه عدد كبير بالعبور والإقامة، ربما عشرين أو ثلاثين ويقترن ذلك بشروط منها انقضاء وقت، أو أداء طقوس ، أو توافر علامات ذات شأن.

منذ خمسة آلاف ألف قمر مكتمل سرى ما يؤكد صدور إذن بعبور عدة آلاف من النزلاء لمناسبة نادرة تتمثل فى مرور المذنب اللامع ، لا يظهر فى سماء النُزُل إلا مرة كل أربعين ألف قمر .

جرى اضطراب عظيم. وتأهب أقصى ، وبالفعل صدر التصريح وأعلنت الأسماء بأصوات مرتفعة مجهولة المصدر، عد ذلك من اللحظات النادرة التى جرى ترديد ما حوته لحقب تالية . خاصة تدفق القوم عبر الدروب الصغيرة، الفاصلة ، والأزقة المفضية ، غير أنهم عند اقترابهم من القنطرة انفردوا . سادهم هدوء أجل، الطفل فى بداية وعيه يدرك أن ذهابه لن يكون إلا بمفرده ، ما البال بالكبار المجربين، لم يتخلف إلا من احتوته غفلة ، وبعض المشرقيين الذين رفضوا الانصياع ولم يلبوا ، قالوا إنهم لا يعرفون ما ينتظرهم مهما ازدهرت الوعود، من الأفضل البقاء مع المألوف لهم ، ما اعتادوا عليه ، أغلقوا الباب وأحكموا الرتاج،

هكذا وجدهم القائمون ، متلاصقين، متأزرين بالصمت الأبدى وانقطاع الانفاس منهم .

يعرف ذلك بالتصريح الأكبر، وكثير من القوم ينتظرون آملين الإعلان عن مثيل له أو يقترب منه، يحدث ذلك أحيانا . بعد ذهاب الجمع مكث عدد قليل لا يعرف أحد سبب بقائهم وعدم لحاق أى أضرار بهم مما يؤكد فكرة غامضة بوجود مندوبين للقائمين على شئون المدينة ثمة تمثيل لهم هنا متصل ، مستمر ، غير معلن عن أفراده. بقيت المبانى شبه خالية، رجل بمفرده ينام فى بيت من عدة طوابق، الثمار تنضج وتتساقط حول الاشجار فلا تجد من يتناولها، دام الحال عشرة أقمار مكتملة ، إلى أن توافد عدد لا بأس به من الشرق، إن توقع صدور إذن جماعى قائم باستمرار ، حتى بدون ظواهر طبيعية نادرة، ويعد ذلك إحدى النقاط المقضة ، الباثة للأمل .

يمر بعض القائمين على مبان بعينها، بأيدهم أوزاق ولفائف عتيقة يسألون النزلاء ، يدونون المعلومات ، يطلقون دخاناً عطراً فى الزوايا والأركان ، يستقصون من كل مقيم عن اسمه ومدته والعلامات البادية. مثل هذه الاجراءات تثير الأمل عند القوم، خاصة استدعائهم ، وتوجيه استفسارات عديدة اليهم او تجريدهم من ملابسهم وفحص أبدانهم ورسم بعض العلامات الغامضة عليها بمواد خاصة لا تزول مع الاستحمام او الحك، إن ذلك يؤجج التوقع، ولكن سواء اشتد الانتظار أو ركدت أحوال البعض فإن المدينة تظل ماثلة باستمرار ، تحوم حولها التهيؤات وتحاول اقتناص ملامحها الأذهان .

لم يرجع أحد ليخبر بما شاهده بعد عبوره القنطرة ، لا توجد علامات محددة أو نصوص دالة ، أو نماذج مجسمة أو لوحات، لكن هناك تصورات غير مكتملة بعضها متضارب.

يمكن القول إن المدينة ماثلة في ذهن كل من يسعى ، ومن يدرى.. ربما عند الحيوان والطير وكل ما يزحف أو يتسلق أو يسبح ؟!

الأمهات يحدثن أطفالهن عن المباهج المنتظرة ، والملاعب الممتدة ، والهواء الشفاف والخير الوفير. الرجال يخططون لنيل المباهج وإدراك المتع التى حالت قيود النُزُل وظروف نشأتهم دون إدراكها ، كذلك النساء التائقات الراغبات .

ما من نزيل إلا ويتطلع ليلا أو نهاراً جهتها، وإن أغمض يحاول استحضار ما سمعه، الأبصار لا تدرك منها أى هسيس أو ضوء منبعث من مبانيها وضفاف بحيراتها وقمم تلالها ومن داخل بيوتها هناك العناصر مختلفة تماما ولا بد من عبور القنطرة ثم ولوج مجالاتها لاستيعاب موجوداتها بالحواس .

لم يرها أحد إلا عبر الخيال ، ومن الأمور الثابتة، المفروغ منها تميز الانسان على سائر المخلوقات بالخيال والأمل ، أو هذا ما يبدو حتى الآن، المدينة تختلف عند النزلاء عن العوالم المرئية، أو الخفية تلك التى لا يتم السعى إليها بالأحلام والرؤى المؤاتية ، المفاجئة ، مابين اليقظة والنوم . من أجل تلك العوالم شيدت الأهرام، وجرى تدبير خبيئة العلوم كلها والمعارف المتوارثة والمحتملة كذلك نقش الحروف على الأحجار أو حفرها، وحفر الأبواب المصمتة .

المدينة ليست احتمالا أو فرضية، إنها ماثلة قائمة عند الضفة الأخرى حتى وإن لم يلمح مخلوق قبسا منها ، أو لم يرجع نفر ممن ذهبوا ليصفوا وليخبروا ، يومياً.. يرون المتجه الى عبور القنطرة بعد صدور الإذن، بعضهم يجد من الوقت ليلتفت ويلوح مودعاً قبل غيابه . قبل مثوله أمام لجان الفحص ، ثم قطع الممرات المؤدية، لا يستغرق الأمر وقتا طويلا، إن موضعها محدد، وثمة تصور سائد لأوصافها ، ربما تختلف بعض التفاصيل من زمن إلى آخر ، لكنها فى مجملها متشابهة .

إنها هناك ، على الطرف الآخر فيما يلي القنطرة مباشرة، النهر العميق الذى يسمع تدفق موجه ولايراه أحد فاصل جلى، فارق حاد بين ضفتين وحالتين ، بل .. عالمين متمايزين، متغايرين ، متباعدين بقدر تقاربهما . تتبع مراكز الفحص النهائى المدينة ، بعد الانتهاء يسلك الساعى خفيفاً وثاباً حتى لو كان واهناً متقدماً فى العمر، يتبع طريقاً عرضه متر واحد، ممتد ، أملس كريستالى اللمعة، منبعث منه ضوء له خصوبة الفيروز والأماكن العميقة فى البحر . فى حالة حركة دائمة. فى اتجاه واحد لا غير إلى المدينة لو توقف الانسان سيفاجأ بتقدمه . لكن هذا نادر ، فالموضع غريب ، غير مألوف، ودرجة الضوء المتزنة، الخالية تماما من الظلال لا تبث أى اطمئنان رغم الهدوء السارى، والصمت المهيمن. والآفاق المسدلة. ينشغل اللب عما عداه، لهذا يكون التوق حافزاً على التقدم بغية الوصول و معرفة المأوى .

بعض الغلاة المشرقيون يقولون إن هذا الممر الكريستالى متصل بأفكار بعض البشر الذين بلغوا درجة من شفافية الرؤية والقدرة على الاحاطة . بحيث يمكن لبعضهم القدوم مباشرة إليه بدون الانتظار فى النُزُل أو عبور القنطرة أو التعرض لتلك الأسئلة الغريبة فى مراكز الفحص ، كيف ؟

ما من تفاصيل دالة .

من سعى وعبر مباشرة ؟

كلهم يلزمون الصمت ولكنهم يعودون إلى ترديد ذلك بثقة . بقدر نعومة وسلاسة هذا الممر الزلق النّاعم، المصاغ من الضوء تقريبا أسطوانى البنية مع التقدم فيه ، بقدر خشونة ما يحفه ، إنه يتخلل صخر صلد يميل إلى احمرار مغطى بنباتات عميقة الخضرة تنبت منه زهور عجيبة التكوين. تتخللها فسحات وفراغات كأنها غرف كونية ، تتصل بالسماء أحياناً وتارة تنفصل ، يسمع خرير

لكن لا يرى السارى ماء، وتتردد طقطقات حصى ، أو تصادم أحجار لكن لا يعرف أحد أين ؟

فجأة ، بدون تمهيد ، يبدو البناء الوردى .

درجة من اللون مبهرة ، مهبلية ، ضاجة بالحيوية ، ربيعية زهزاهة، ملساء ، لا يعرف الغرض من هذا التكوين ، المحفور، الأشم، لكنه فى الواقع مجرد واجهة، إنه باب وهمى ضخم لكنه متقن التمويه، ثلاث درجات مؤدية الى ما يشبه صالة قائمة على أربعة أعمدة متصلة الاستدارات ، ملساء يعلو كل منها ما يشبه سعف نخيل، لكنه غير مسدل ، إنما قائم إلى أعلى، مضموم، قرب النهاية تبدأ قاعدة عمود أنحل لكن أطول ، ينتهى الارتفاع بأقواس ذات شرفات مزخرفة ، أشكال بنفس اللون، تكوين محفور فى الصخرة الضخمة المواجهة لفتحة المضيق ، لا .. ليس صخرة ، إنه تل متصل بتلال أخرى ، على ارتفاعات متساوية يمكن مشاهدة أبواب ونوافذ وفتحات مربعة أو مستطيلة أو دائرية ، كلها مصمته ، لا تؤدى إلى شيء، يحفها كتابة غامضة حروفها غريبة. الصخور الحافة مجمع لألوان الطيف. تتنوع درجات الألوان الى مالا نهاية، تتوالد من بعضها بحيث يستحيل احصائها. هذه التلال الصخرية تبدو من أعلى لعينى الطائر كذرى أهرامات مدببة، المتطلع من أسفل يكتشف أنها مرشوقة بالأبواب .

أبواب مستطيلة مجردة من كل زخرف ، بعضها من ضلفة واحدة والآخر من اثنتين ، أبواب اخرى شبه مربعة أعلاها مقوس، على هيئة نصف دائرة، أبواب مقسمة إلى مربعات متساوية، مربع من خشب وآخر من خزف وثالث من زجاج ورابع من معدن رقيق، أبواب دائرية مغطاة بنحاس منقوش ، أبواب ضخمة مهيبة، صادة، مقابضها على هيئة رءوس حيوانات تفغر أفواهها مبرزة أنيابها ، ولضخامتها وصعوبة فتحها وإغلاقها ، يتخللها باب أصغر ، يتسع لفرد واحد

لاغير ، أبواب مكسوة بنباتات خضراء، تترقرق حولها خيوط ماء مجهولة المنبع، منعشة لمن يقترب .

أبواب ذكورية المطلع ، أخرى أنثوية موحية بلذة ما ، أبواب داعية أبواب منفرة، أبواب حاضنة، صادة ، مانعة، أبواب رئاسية ، قابعة، متوارية، أبواب يمكن الإلمام بها ، استيعابها من نظرة، أبواب ثرية التفاصيل ، يصعب الإحاطة بها، أبواب متفائلة ، أبواب تنبيء وتحذر .

أبواب متوالية. لكنها جميعا لا يمكن اجتيازها لأنها لا تؤدى الى شيء، مجرد ايماءات الى أمور لا يمكن رصدها بالنظر، ومع ذلك يتعلق كل مار أو راءٍ أو متطلع بباب معين يظل عالقا به مستعيدا له، مهما قطع من مسافات أو تباعدت الأزمنة، يقال إنه بعد المرور بالأبواب يصبح الإنسان ذا صفات مغايرة، تنصع ذاكرته، وتصفو فكأنه قادم من جديد، أما ما كان عليه قبل عبوره القنطرة فيلوح نائياً، كأنه يخص شخصا آخر . يبدو النُزُل بعيداً قصيا كما كانت تلوح المدينة للمقيمين فيه .

الفارق أن من ينتظر يمكنه تخيل المدينة ورسم حدودها وإقامة مبانيها بعينى عقله. أما الواصل هناك فلا يقدر على ذلك ، كل ما يحيطه يستغرقه.

المؤكد فاعلية تلك الأبواب وتأثيراتها . إن مصير السالك وخياراته تتحدد وفقاً للباب الذى يراه اول مرة او يتعلق به بصره. غير أن ثمة رؤى مستقرة ، مجمع عليها منذ أزمنة بعيدة ترسم واقعا متخيلاً، مغايراً ، تلك الرؤى تضع أبعاداً دقيقة لكل ما يوجد على الضفة الأخرى ، فالمسافة الفاصلة بين القنطرة ونقاط الفحص قدرها سبعون خطوة، وتلك الواقعة بين المراكز الأمامية وبداية الممر الكريستالى طولها مائة وأربعين ، أما امتداد الممر نفسه فيختلف من شخص إلى آخر، وهنا أمر شديد الغموض يصعب الخوض فيه .

المدينة يقطعها الماشى على قدميه إذا بدأ ولم يتوقف ولم يغمض له جفن فى أربعة أعوام قمرية، عرضها مثل طولها، تحيطها تلال صخرية يصعب النفاذ منها، ثمة منفذ واحد فقط مؤد لا يرجع منه احد ، الخروج من أبواب اخرى يحاط الواصل بها علماً بعد بدء اقامته. ثمة رؤية اخرى راسخة تقول إنها ليست مدينة واحدة ، لكنها عدة مدن متصلة بطرق وثيرة، لا يشعر معها المسافر أنه انتقل من موضع الى آخر . المسافات فى مجملها تحتاج إلى أربعين سنة قمرية لقطعها مع المشى المتواصل ، واختلف آخرون فقالوا بانعزال المناطق عن بعضها وصعوبة الفيافى المؤدية، وغرابة بعضها حيث تلوح للساعين أحيانا ثلاث شموس. الفراغ هناك رهيف الشفافية ، المشى كأنه سباحة فى الضوء، لا يحتاج الإنسان الى النطق لذلك يجرى التخاطب بالنظر .

هل يوجد أدلاء ؟

يقطع المشرقيون بعدم وجودهم ، ويقولون إن المعارف تفد مباشرة إلى الأفئدة فيعرف كل ساع طريقه بغير دليل ، إن الأصل فى الهجرة الى المدينة الاكتفاء وإشباع الحاجات بغير تذلل أو قهر أيا كان مصدره، والجهل بالقصد يعنى الحاجة لأنه يستلزم السؤال ، كيف يستقيم ذلك فى المدينة ؟

غير أن الرؤى الشائعة تؤكد وجود حراس وأدلاء ، يبدون جبابرة، غير أنهم لطاف خفاف، يثيرون الأمل ويبثون الطمأنينة ، هذا أهم ما يحتاج اليه الوافد ، الغريب . إنهم يتقدمونه إلى خيمة رسم على جوانبها بروج السماء كلها . وطبقات الارض التحتية . يتوسطها نموذج فريد، بالغ الدقة للمدينة كلها، بحيث يمكن بالنظر تحديد الموضع الذى سيقيم به. ما من أحد لديه فكرة مسبقة، لكن الطرق تمضى بهم الى حيث المأوى .

الليلة الأولى ذات أهمية ، ومهما بلغ الإعجاب بالمقر الجديد وما يحوى من فراش وثير وألوان تتفق مع هوى الواصل الساعى، فإن البداية أيا كانت النعمة

المنتظرة باعثة على القبض نتيجة المقارنة وافتقاد ما كان والبعد عن المألوفات . مهما بلغ الانبهار فإن ألما يعكمه ، من هنا جرى تلقين الذاهبين بعبارات مطمئنة ، جالبة للأمن والرضا بالحال الجديدة ، يجرى الهمس بها عند آخر حدود النُزُل . إنها كلمات قليلة مضمرة ، لكنها واقية، المشرقيون يرفضون الإصغاء اليها يعبرون ولا ينتظرون ، يقولون إن أمتع الليالى تلك التى يخشاها الجميع، الأولى، غير صحيح أن الواصل يقضيها بمفرده، إذا كان ذكراً يفاجأ بأنثى تلبى كل ما يحتاج إليه، كأنها خرجت من مخيلته أو صيغت كما يهوى، الأمر عينه بالنسبة للأناث . ما من قادم جديد يمضى أول ليلة بمفرده يمكنه تجديد ما يراه بمجرد النظر، لذلك يقول غلاة المشارقة إن المدينة ذات صور وهيئات متغيرة باستمرار ، ليس صحيحاً أن مساحتها محددة، وأن قطعها يمكن أن يتم بالخطى أو طبقاً لما يعهده الخلق من قياسات شتى، ليس صحيحاً أن مساحتها محددة إنما توجد أينما اتجه البصر وتمثلت المخيلة، هنا لابد من توضيح، إذ لا يعنى قولهم هذا أى تماس مع اجتهادات طويل الصمت، إذ قال بامكانية استحضار المدينة على قدر المجاهدة ، بدون حاجة الى عبور قنطرة أو الامتثال لشروط الإقامة بالنُزُل، فى أقوال الغلاة ما يؤكد إمكانية استحضار المدينة بمجرد ورود الخاطرة وتردد الشهيق او الزفير. يعنى ذلك أن المدن بعدد انفاس البشر، فيمكن للانسان أن يرى بالمخيلة ما يريد من نواح أو بنايات أو حدائق أو بيوت، بل إنه يأوى إلى منزل من طابقين تحيطه أشجار وأحواض زهور، مطل على بحيرة رقراقة، أثناء تقلبه أو إغماضه يتخيل وضعاً مختلفا ، منظراً مغايراً . تلالا متعاقبة بدلا من المياه الهادئة ، يتحقق له ذلك ، إذا كان مطلاً على بحر وخطرت له الصحراء فإن بصره يسرح فوق امتداداتها على الفور، يتبدل كل شيء كما يهوى، ويشاء .

كذلك النســاء ، يردن على الرجال طبقاً للصورة الماثلة فى الاذهان . من هنا لا يجد انسان ما يمكن أن ينفره من الآخر، ذكراً أو أنثى، كل لما يهوى، أما تلك

القواعد السارية على أهل النزل فلا موضع لها هنا ، كذلك تلك الأوضاع الغبية التى يتحدث عنها الوافدين والمستقرة فى أوطانهم السابقة، هناك يجرى قمع الرغبات وتدثير الشهوات وهذا مضاد للبنية الحيوية ، ومعاكس لندرة الحياة، وقصر مدتها المتاحة للنوع البشرى.

هنا يطرح بعض المشارقة تساؤلا: ماذا يدفع إنسان ما إلى مفارقة المصدر والمنشأ؟ ماذا يحض على المغادرة والسعى فى البيداء او قطع مسافات الى مناطق مجهولة ؟

الاجابة ميسورة ، سريعة، أنها تتلخص فى السعى الى الأفضل هنا يختلف القوم، أحياناً يصغى نفر من المقيمين الى تفاصيل يدلى بها القادمون لتوهم يجدون فيها آمالاً مرجوة وأسباباً محفزة مع أنها عين الأسباب التى حضت الآخرين على المفارقة .

الأمر نسبى ، الأمر نسبى .

هنا تجزم الرؤى السائدة وتجمع على نسبية الأمور كلها عدا المدينة، باستثناء ما يتعلق بها ، ليزعم الغلاة ، ليشطح المشارقة ، ليضل من يرغب ، لكن الحقائق الأزلية لا تتبدل ، أهمها ، فى مطلعها ، هل كل المعضلات هناك. على الضفة الأخرى فرص أفضل متاحة لكل ساع لن تتيح تعويض ما فات أو إصلاح ما تلف، بل البدء من جديد فى ظروف مغايرة تماماً، ربما تختلف الرؤى ، أو التفاصيل لكن ثمة اتفاق بل إجماع على الفرص المنتظرة ، لهذا يأمل الجميع ويبذلون الجهد ويصبرون للعبور الى الضفة الأخرى، بالطبع لا يصل إلى النُزُل كل من يشرع أو يقطع معظم الطريق، بعضهم يضل ويذوى ، أيا كان الحال فإن الفرصة المتاحة لكل إنسان مغرية بالمحاولة إذا التزم وسعى، غير أن هذا يؤدى الى الامتثال بدرجات متفاوتة وما أقصر عمر الانسان . سواء سعى هناك أو على الدروب

المؤدية أو أمضى عمره منتظراً فى النُزُل ينقل رمال الشرق إلى الغرب أو يعد الأحجار أو يجدول نجوم المجرة اللماعة .

الدورات محدودة . سواء كانت شمسية أو قمرية . أو نجمية ، فرصة وجود الإنسان محدودة ، كذا سائر المخلوقات من حيوان ونبات ، بعضها لا يبقى إلا مقدار ساعة أو اثنتين المسافة جد موجزة مدغمة فلماذا اهدارها .؟

يقول المغاربة وهم الاقرب الى القنطرة إن المحبطات اكثر، تفسد الطاقات وتحيد بالوجهات عن غاياتها ، كثيرون بلا حصر تتم وفادتهم الى الكون المألوف ويغيبون الى أبد أبيد فكأنهم لم يصلوا ولم يقيموا لصعوبة إدراكهم الأولويات من قوت ضرورى وحب لازم ورقدة هانئة ، لذلك كان السعى لإدراك المدينة .

ثمة أمل كامن فى الصدور ، يتفاوت من شاب إلى كهل ، إن المسموح لهم بالعبور وبدء الإقامة هناك يعدون أفضل حظا إذا كانوا من الشباب ، الفرصة أمامهم افضل لترتيب احوالهم وشئونهم باستثناء المفاجأت وبغتات المجهول ، إذ لا يمكن لامرىء مهما أوتى من قدرة وطاقة سواء كان من النزلاء أو القائمين على تدبير الاوضاع أن يتنبأ بموضع قدمه عند الخطوة التالية، أو توالى دقات القلب أو تردد الانفاس ، يقول الغلاة إن مثل ذلك غير معهود هناك ، إذ يعرف الوالدين عدد النبضات ومرات الشهيق والزفير عند مجىء مولودهما ، كل أمر يدون فإذا شاء أن يعرف أحيط علماً مع بلوغ مداركه الحد الذى يسمح ، وإذا فضل البقاء جاهلاً حجبوا عنه ، ويحدث ذلك كثيرا . الطريف أن سؤالا فى مراكز الفحص يوجه إلى العابرين مضمونه، هل يرغب الساعى فى الاطلاع على المدة المتبقية على رواج المشيئة ونفاد الطاقة. معظمهم يفضلون الجهل عن العلم، ربما يرجع ذلك الى المباغتة أيضا، إذ يعود معظمهم الى الاستفسار بغية الإلمام، ويجدون الجواب، أو المبادىء التى تحكم المدينة اتاحة الفرصة باستمرار ، خاصة الجواب بقدر تهيؤ المستفسر لتمثل الحقائق .

تجمع الرؤى العامة، الموسومة بالاعتدال ، أن المدينة تتكون من أحياء ، مناطق لكل منها اكتفاء، متصلة بطرق ثابتة ومتحركة ويمكن للساعى أن يقيم حيثما رغب، لا يمكن القول إن هذا البيت ملك لذاك الشخص، لا يتبع المكان الانسان إلا مقدار إقامته فإذا رحل عنه لا يحتاج الى نقل متاع أو تغيير لوازم ، حيثما يحل يجد ما يرغب ولذلك تبدو الأبواب كلها مؤدية الى اللاشىء . أما الفراغات فيتم العبور اليها بدون اجتياز حواجز أو طبقات .

الصلة مرهونة . موقوتة بما هو قائم . عند الانتقال من موضع الى آخر لا يحتاج أحد الى غرارة أو مخلاة أو حقيبة ، إلى سائر تلك الأمور المعروفة فى النُزُل، لا معنى لهذا كله فى المدينة ، كل مايحتاج إليه الانسان ميسور، الطعام وفير ، لا فائدة من تخزينه لأنه متاح أينما توجه البصر، فى كل الاشكال التى يتمناها المرء أيا كان منشؤه . هذا يعنى أن الاصناف موازية لما يوجد فى النزل ، لكن المؤكد أن ثمة أطباقاً خاصة مذاقها مرتبط بالهواء هناك، بالفراغات بالضوء بالنباتات التى لا يعرف مثلها والطيور الصداحة، لكن كل انسان يصحب معه ما اعتاد عليه ، وما ارتبط به فى طفولته عامة وصباه خاصة ، للمدينة خصائصها فاللحوم تنبت كالفاكهة والخضراوات، لا يذبح أى كائن ليقتات به آخر لا يسفك دم أبدا ، كل شىء ينبت ، ثمار لها طعم الغزلان ، وأشجار تطرح ما يشبه السمك ، كما يشاء المرء يجد ، وكما تهوى النفس تلقى ، صنابير اللبن والشاى والقهوة والقرفة والنعناع والحلبة والأعشاب الملطفة والليمون القابض والليمون الحامض والزهور المجففة تصب بلا انقطاع فى قنوات صغيرة يفرشها حصى يكتنز الوانه الخاصة فلا يراها إلا المتمعن ، المجتهد ، أما أنواع النبيذ فجميعها معتقة مطهرة، تفوق القدرة على الحصر، يختلف مذاقها من محلة الى أخرى ومن ساعة الى ساعة .

عند الوصول ينهم الجميع، ينكبون ويهرعون ويعبون عباً ، بينما يتطلع المعتقون، القدامى اليهم بهدوء باسمين، حتى إذا عاينوا الوفرة هدأت أحوالهم . وسرت الطمأنينة اليهم ، لا يشغل الإنسان هناك نفسه بأمر طعامه أو ما يتعلق بحواسه أو حاجاته ، تلك بديهيات مفروغ منها، تماما كالهواء فى النُزُل وشفافية الضوء فى النهارات الصحوة، لا يقع كل امرىء إلا على ما يفيد ويلبى، لكن للغلاة تفسير آخر ، إذ يقولون بانتفاء الاشياء المعاينة إنما يكتفى بحضورها . هناك التدبير مغاير ، شرحه صعب ، لا يعرف أحد تفسير له ، مثلا.. إذا اشتهى أحدهم لحماً مشوياً لقى مذاقه ونعم برائحته . واكتفى منه بدون قضم أو مضغ أو بلع .

يكتفى استدعاء المسلوق او المشموم أو المقلى بالمخيلة ، كذلك البيوت، فإذا اقتصرت الرغبة على حجرة واحدة ظهرت. وإذا خطر للقاطن شرفة مطلة على بحر، امتدت وتلاطم الموج فى الحال وإذا شاء سقفا بدون عمد لقيه ونام تحته آمناً، إذا رغب فى درج من رخام أو فضة أو من ضوء ناعم، هامس، انتصب وامتد على الفور ، يلقى كل واصل ما يتمناه طبقا لقوة مخيلته وقدرتها وما من حد ، يجول فى بيته فيتسع بقدر ما يريد ، ويرى ما يرغب .

يقول الغلاة المشرقيون إنها مدن متداخلة ، متوازية . يمتد بعضها فى بعض وليست مدينة واحدة تتكون من مناطق متصلة او متوازية، وما من ملامح أو معالم، إنما هى صور شتى بعدد الانفاس والخطرات والرؤى والالتفاتات والهمسات .

الوجود هناك مغاير لما اعتاده الخلق وجبلوا عليه ، هناك يتجدد التحقق كل لحظة ، مع كل خطوة، مع التوق ، مع الشوق، مع السعى، المهم .. لا ينقضى وقت مخلوق إلا وعنده رضا ، وجواه مهدهد . طبعا مع مواصلة السعى وإبداء الهمة .

هناك يدرك الجميع حماقات الإقامة فى النُزُل والتضييق على البعض، ومنعهم من اتيان هذا الفعل أو ذاك وتكديس البعض للمأكول والمعدن النفيس والمصنوع المجهز مع انتفاء الحاجة اليه وتجريد الكافة من أدق أغراضهم عند القنطرة .

على الضفة الأخرى غاية ومنتهى وروح ريحان ، حسن استقبال وسرعة توافق مع تدبير سبل التروى والمعاش حتى تحين لحظة الاستدعاء والعبور الى المنظومة المرجوة والإطار الضام .

غير أن النزلاء المقيمين بجوار المربع لا يقولون بنهاية المطاف عند الضفة الأخرى، ليست المدينة إلا جسرا مؤديا الى مدن أخرى منها المعلق فى الفراغات العلا. يبدو مماثلا للهودج الذى شيده ملك قديم لحبيبته ليكسب رضاها ولم يفلح . مدن أخرى فى الأكوان الموازية ، لا يكون العبور من هنا الى هناك أو من هناك الى هناك إلا من خلال أحد الأبواب الوهمية الصحيحة المستدل عليها ، إذا عرف الإنسان بابه فيمكنه الولوج والانتقال من كون الى كون ، المدينة مجرد علامة على طريق مؤدية ، نقطة على درب طويل مفض.

يقول هؤلاء لو أن المدينة نهاية مطاف لتبدلت أحوال المقيمين فيها والساعين اليها ، لكن الأمر مراحل ، إن فى الحضور المتحقق المعاين أو عند الافق غير المدرك ، إنما الانفاس خطوات على مدرج ينتهى بالغاية الكبرى.

ما هى الغاية العظمى ؟ ماذا تعنى الغاية الكبرى ؟

ما من جواب، إنما يكتفون باشارة مبهمة .

معظم النزلاء لديهم رؤى مدونة متداولة يصف بعضها الزهور التى تنبت من الهمسات . والعطور المنبعثة من النظرات ، ودرجة الضوء الواحدة. الثابتة كريستالية الاشعاع والطلة ، لازوردية اللون، ثمة نصائح يلقنها الآباء للأبناء ويوصى بها الإخوة بعضهم بعضاً لالتزامها عند عبور تلك اللحيظات الواقعة ما بين الشهادة والغيب، ما بين النوم والإفاقة ، الاغفاءة واليقظة المشروطة ، يشير البعض الى عبارات مدونة ، منقوشة على الأبواب الوهمية يكفى المرء أن يستعيد رسومها ليس مهماً إدراك معناها . لو فض مغاليقها يمكنه عندئذ الاجتياز، إلى المدينة ؟

لا جواب .

إلى المدن المتداخلة ؟

ما من إيضاح .

غير أن فريقا من المغاربة يزعمون أنه فى لحظة معينة تحل مرة كل دورة قمرية وتستغرق دقائق معدودات ، يمكن للصابر ، المنتظر المدقق، المتطلع الى الضفة الأخرى أن يرى معلماً أو اثنين من هناك . يؤكد بعضهم أنه شاهد وألم بمساحات الخضرة الكثيفة، ثمة بنايات مفردة ، تقوم فى الخلاءات المفضية، لكل منها باب لا يؤدى إلى شيء. أبواب يؤدى كل منها الى بعضها ، هنا يتفق المشارقة مع الفرق الأخرى فى كمون جوهر الأمر كله عبر تلك الأبواب أينما وجدت ، فى المصادر البعيدة ، فى النزل هناك لقد بشر بها مشاهد المعنى ، نشرها هنا وعبر الآفاق وفارق بدون تفسير مطمئن أو إيضاح دال .

يزعم البعض أن القوائم محفوظة فى مبنى الرياح ، رآه عدد منهم خلال تلك اللحيظات النادرة يضم منطلقات الهبوب كافة ، شرقية وغربية ، شمالية وجنوبية . صبا ودبور ، خماسين أو موسمية ، رياح شمسية أو قمرية . من تلك العمارة تبدأ النسمات والأعاصير.

المبنى كما تخيله الفرعون المتسائل ، لكن ما أتيح لعصره من إمكانيات لم يساعده فى بلوغه وتشييده، لكم ردد مُشاهد المعنى هذا الاستفسار المضنى. إلى أين تمضى الرياح ؟ ما نقطه البداية وأين النهاية ؟ متى تستنفد طاقتها على الاندفاع وتركن، هذه الطاقة أصلية أم مضافة ؟

ما من إجابات قاطعة قط .

مبنى آخر يبدو واضحا، يعكس سطحه تلألؤات معدنية . أو هكذا تلوح من بعدها القصى، يقول المغاربة إنه سكن الحروف، داخله تسعى سائر الأبجديات ، لها حيواتها ومعاشاتها وتحُولاتها وما تحتوى عليه من معان . تتزاوج وتتناكح

فيما بينها وتتوالد بنظم وترتيب ، تأوى إليه الألفاظ مفككة ، مبعثرة وتخرج حاوية للمعانى .

على ذات الاتجاه صوب الغرب ، الحقيقة أن المدينة لا تحوى إلا اتجاها واحدا إنه الغرب ، يحوى سائر الجهات أصلية وفرعية ، فأينما ولى الانسان وجهه هناك ليس ثمة وجهة أخرى، غرب دائم تبدو هذه البناية التى توصف بأنها مجمع الأصوات. إنها معلقة ، وصعب الاستدلال على أساساتها الممتدة أو عروقها الحافظة، إليها يمضى كل صوت ، وكل صدى ، حديث أو همسة أو نداء أو خطبة أو نغم سارٍ أو غواث مستنجد ، لذلك يقول النزلاء المغاربة إن كل انسان بوسعه الإصغاء إلى كل صوت عزيز ، مفتقد، بل يمكن استعادة بوح الاجداد القدامى، كل ما صدر ، لفظ أو شهقات أو همسات .

أما عمارة الألوان فتشى بوجودها ولا تصرح ، إنها غير مجسمة لا يمكن القول إنها تقوم هنا أو هناك . لأن تضام الجهات فى جهة واحدة يلغى المواضع كلها ويذريها فى الوقت عينه . ربما يبدو ذلك صعباً فى البداية لكن بطول المداومة يمكن الاستيعاب .

لكل لون من الألوان الأساسية طابق مفرد. داخله تتنوع الدرجات الى ما لا يمكن حصره ، الأحمر، الازرق، الأصفر، أما الأبيض والأسود فكلاهما مجمع ومفترق . من هذا التكوين تنبع ألوان الطيف كافة ، وظلال الحالات من ضيق وفرح وبسط وغضب وألوان دالة على كل البرابى المخفية، المموهة ، القائم عليها حروف خاصة، من يعرفها يفوت الى دوربها ومتاهاتها ويدرك كنوزها .

ثمة بنايات أخرى يمكن مع التدقيق إدراكها ، كل منها حضور مفرد، عمارة الريح التى تساءل عنها الفرعون العتيق وتوارث الأحفاد محاولة الوصول اليها ، ليست هى فقط، إنما عمارة للحنين وأخرى للشجن وثالثة للفرح ورابعة لما يصعب استيعابه .

ثمة بناء يظهر فى عدة مواضع متزامنة ، لا ينسب إليه شىء، ولا يمكن تعيين وظيفة محددة له ، يذكر بعض القادمين من هناك بقصر البارون، والبرج المائل، والأهرام القائمة على حدود الصحارى، والقباب المعلقة، والجسور المستسلمة، الواصلة، والدرجات الصاعدة النازلة، والواجهات الدالة، المموهة ، والأبواب غير المؤدية . المقيمون قرب المربع الفارغ يقولون إن ما يردده المغاربة أو المشارقة مجرد خيالات و رؤى المقصود منها إخفاء الحقائق ، والتغلب على ما يسببه الانتظار من ملل واستفسارات لا أجوبة لها ، كل ما يتردد إنما وسائل شتى لترطيب التوق، لا يعرف أحد من يبث هذا كله؟ ما مصدره ؟

من النُزُل أم من هناك ؟

ما بين هذا وذاك تتردد إشاعات عن قوائم ستعلن قريباً تسمح بعبور نزلاء كثر ولكن واحدا بعد الآخر كالمتبع من قديم . أو ضبط عدد ممن حاولوا التسلل بعيدا عن القنطرة ، مثل هؤلاء لا يمكن الاستدلال عليهم، أحيانا يظهر أحدهم ، رجل أو أنثى ، يزعق زعقات، يلوح بإشارات ، يندفع تجاه أحد الأبواب المصمتة المترقبة الحاضة ، الصادة ، الجلية، الخفية .

مصطلح

كتابة

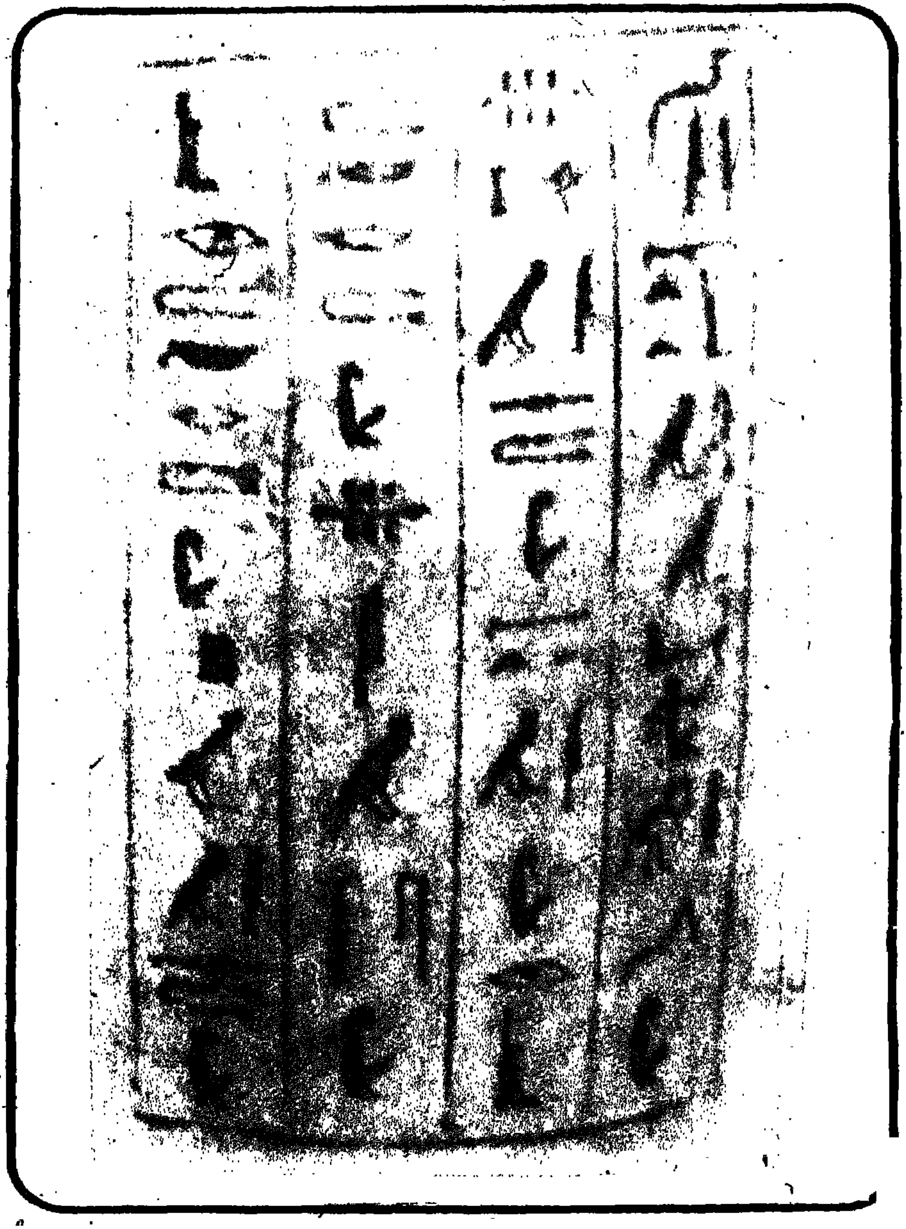

رغم ما يبدو،الأمر عليه الآن من يسر وبساطة، فلن تقدر مخيلة انسانية على استعادة أو تصور ما تطلبه ذلك، إذا نظرنا إلى الزمن فلا يمكن قياسه إلا بالقرون التى نعرفها الآن، والقياسات التى نجهلها لبعد العهد بها وانقضاء أوانها، أما إذا اخذنا الجهد بالاعتبار فبالتأكيد استغرق أجيالا وآماداً لا يمكن حصرها، ولايوجد تدوين يلمح من قريب أو بعيد، إذ .. كيف نجد المعاناة فى البحث عن التدوين ذاته فى تدوين ؟ .

الامر دقيق، يشبه إلى حد كبير المراحل السابقة وتلك اللاحقة على التوصل إلى الباب الوهمى، كيف جرى البحث؟ كيف تم التوصل إلى الجوهر ؟ كيف جرى إخراجه إلى حيز المحسوس ؟ باب محفور فى حجر. على مواد مختلفة، تم فى الفراغات المفتوحة.. ثم حيث لا يمكن الرؤية او التعيين. نعنى بذلك ونشير الى كتاب البوابات الذى يعرّف الموتى الراحلين والقاطعين المسافات اللانهائية فى العالم الآخر بالساعات هناك، حيث يفصل كل منها عن الاخرى بوابة، لا يمكن اجتيازها إلا بما يتعلق بها، وهذا لا يتم إلا بعد شرح وتلقين فصلناه فى مخطط نأمل فى إخراجه يوما إلى حيز الوجود بنفس العنوان.. «كتاب البوابات»، لعل وعسى.

الأمر هنا أدق وأعسر، أدق لصعوبته، وأصعب لاختفائه وانتهاء مثوله، إذ تحول من قضية او مشكلة الى حقيقة يومية يتعامل بها ومعها كل عاقل.. مدرك.. قادر على تفسير الحرف من الحرف..

بدأ قبل الاسرات بعصور شتى.. بعد تبلور الإشارات الموضحة وإتقان الانسان على تبادلها مع نوعه.. واختزال الموجودات فى كل منها بدءا من النيل السارى إلى الصخور المشرفة والزهور النابتة، والنجوم الماثلة، ، الهادية، حتى الرياح الهبوب واتجاهاتها وامكانية الغرس والحصاد.

لا يمكن تحديد شخص معين، فلم يكن للبشر أسماء بعد، لكن الأمر بدأ عندما تطلع بعض من القوم الى الاماكن الحاوية، بدءا من الافق المائل عن مركز السماء البادية، حتى الكهوف الطبيعية أو المنحوتة فى الجبال الشرقية النائية عن أخطار الفيضان ويمكن رؤية بقاياها فى المرتفعات المشرفة على النهر بدءا من إقليم اسيوط وحتى اسوان جنوبا، انها هناك ماتزال..

بدأ الأمر هكذا..

إذا كانت السماء مأوى النجوم الثابتة، والفضاءات مأوى الرياح العابرة، القادمة من نقطة إلى نقطة. وكذلك للانسان وللحيوان وللاسماك ايضا فى قاع النهر.

كل ظاهر، وكل خفى له مأواه، والمثوى أو المقر يعنى عمارة، حتى وإن تعلق الأمر بجسم الانسان، فالرحم الانثوى قبو بيضاوى الشكل ملخص للكون الظاهر، إذ اثبت القوم فى الحقب التالية هيئة الكون البيضاوية وليست الدائرية.

كل مأوى عمارة، ولكل عنصر بناء، إذن.. لماذا لايتجه الجهد لإيجاد العمارة التى يمكن ان تسكن فيها المعانى والاشارات؟

هكذا جرى التوصل الى الحروف.

كل حرف بناء.. يمكن إدراك مافيه إذا استقل بنفسه عن غيره، ولكنه ادراك محدود.. إنما تكتمل اعتباريته إذ يتصل بغيره، من جنسه، تماما كأجزاء البناء.. ماقيمة الشرفة إذا وجدت بمفردها. منفصلة عما يلزم لها وتلزم له؟ وكيف يقوم السقف إذا لم تحمله الجدران؟

هكذا الحرف، إذ يتصل هذا بذاك يسفر المعنى عن بعض مكنونه. الإشارات متضمنة، والمستويات الخفية ماثلة لكنها فى حاجة الى إتقان ودربة وسهولة عند التداول.

فى البدء كان المطلوب اقامة عمارة للمعانى التى جرى تحديدها فى مبان محدودة، تؤطر ولا تحصر.. من هنا جاء التدوين.

بدأ الأمر بالحفر. وأيضا.. بخط الأصابع لأشكال مهدت لظهور الحروف، على الرمال، على التراب، لكن الرياح المنفلتة، الماضية من أين إلى أين لا تبقى على شيء . وكل المحاولات المتوارثة عجزت عن أسرها أو توجيه مساراتها، ومايقال عن أسرة تعيش فى اخميم كثير، نذر أفرادها انفسهم لتحقيق الاجابة على الفرعون المتسائل، ولهم من يرجعون اليه، وعندهم تدوين، ويشقون من تحقق مايسعون اليه منذ آلاف السنين، وما توصلوا اليه مودع فى الحروف، أما مايقال عن وجود عمارة للرياح فى الاخرى بعد النُزُل فلا يثق به احد لسبب بسيط، وهو عدم عودة اى عابر ليدلى بشهادة عيان عما رأى وخبر..

اتقاء للتبديد والتذرية، ودرءاً لعوامل المحو إلى حين جرى الحفر على العظام المجففة، والجلود المقددة، وكان النقش على الجدران، خاصة على، أو حول، البوابات الوهمية، لايكتمل حضورها إلا بكتابة، وذلك لعبور المعانى خلالها من وقت إلى وقت ومن دهر الى دهر، لذلك جرى التفكير خلال حقبة لا يمكن تعيينها بدقة فى تشييد عمارة متنقلة يمكن تسكين المعانى بها، وحملها من مكان الى آخر، هذا أمر قديم، عتيق، كان من نتاجه صياغة الشكل الأمثل للعمارة التى يمكن للألفاظ أن تسكنها كذلك المعانى، والانتقال بها من موضع الى موضع، وحملها بطرق شتى.. على جناح الطير لو اقتضى الأمر، من هنا جاء الحرف، وأوراق البردى، الشكل المؤسس.. الاكثر شيوعا للتشييد الضام، المؤدى الى الرقائق المعدنية.

الحروف توالج، تماما مثل العمارة، الحرف فى الحرف ليلد المعنى، الحرف ظاهر والمعنى غائب والدلالة حافظة ، لذلك كان الظهور ملازما للغياب وإلا استحالت الكينونة.

حاولنا فى هذا التدوين بالتلميح والتصريح أحيانا. فيما أوردناه من ذكر لحكايات متناثرة، أو شرح لبعض مصطلحات المعمار. وبث لرسائل خفية يصعب التصريح بمضامينها لصعوبة العوامل المدبرة للوقت، لعلها تصل.

أما إذا تغير الحال، وتوالت الأنفاس بمساعدة القلب الواهن فسنشرح ما لم نعرض له فى هذا التدوين ومنه الكثير.

ذلك أن الوضع كله مرهون بالخفقة إثر الخفقة، وما امتن الصلة بين النبضة والحرف، كلاهما مؤد، وكلاهما دفعة، أى حركة، أى حياة، أى عمارة، فكل بناء حياة حتى وإن «هُجر» أو بدا ساكنا للناظر المتعجل.

بعض المصطلحات تجاوزنا عنه إذ يقتضى غوصا أعمق، وتفصيلات أشمل، وبعض الحكايات حجبناها خشية عوامل وحرصا على عناصر، هكذا يقترن فى محاولتنا تلك الحضور والغياب، لعلنا نتم مابدأناه يوما نتمنى بلوغه ورؤية طلوع شمسه، وندرك عنده الأسباب.

جمال الغيطانى

تاسع مايو ١٩٩٥

عاشر يوليو ١٩٩٧

القاهرة

الفهرس

سفر البنيان

		ص
١ - باب	مصطلح	٧
٢ - خبيئة	حكاية	١٣
٣ - رياح	حكاية	٢١
٤ - حامل ومحمول	مصطلح	٢٥
٥ - عاقبة	حكاية	٣١
٦ - بستان الخضر	حكاية	٤١
٧ - فناء	مصطلح	٥٩
٨ - غمامة	حكاية	٦٧
٩ - هودج	حكاية	٧٣
١٠ - أساس	مصطلح	٩١
١١ - جهات	حكاية	٩٥
١٢ - ممرات	حكاية	١١٣
١٣ - قبو	مصطلح	١٢٣
١٤ - قصر	حكاية	١٣٣
١٥ - درج	مصطلح	١٤٥
١٦ - بربا	حكاية	١٥١
١٧ - موقد	مصطلح	١٦٩
١٨ - نُزُل		١٧٥
١٩ - كتابة	مصطلح	٢٤١

كتاب الهلال يقدم :

٦ أكتوبر
فى الاستراتيجية العالمية

بقلم

د. جمال حمدان

يصدر فى : ٥ أكتوبر ١٩٩٧

روايات الهلال تقدم:

وصل القطار في موعده

بقلم

هاينريش بول

ترجمة

أحمد عمر شاهين

تصدر في: ١٥ أكتوبر ١٩٩٧

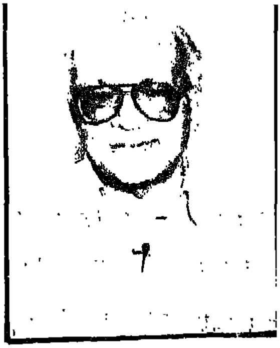

جمال الغيطاني

هـــذه الروايـــة

أعمال جمال الغيطاني الكبيرة تشكل تماما، كما تشكل أعمال الكاتب المكسيكي كارلوس فوينتس في اللغة الأسبانية، عمارة جميلة المعمار، وشكلها يمكن الإحساس به عبر مسافة طويلة: كل رواية تشكل جزءا من هذه العمارة، وتسد فراغا، وتشكل قبابا فريدة تثير الإعجاب، وتشكل جزءا أو وحدة من وحدة أكبر، أشمل وأكثر رقيا، تتنامى وتتداخل من خلال مكانتها في شكل أكثر اكتمالا، ولاتبدو للعيان لأول وهلة. وماهو مرئي منها يغني بقوته عن ماهو خفي. القاعدة الاجتماعية ونقده المستمر يعتمدان على روحانية التجربة الشخصية، التي تبدو فيها الظاهرة غلافا وكاشفا للباطن.

ـ ويستكمل الروائي والمستشرق الأسباني خوان جويتسولو حديثه: إن الغيطاني يتحرر من الخطاب المكرر لأشكال الكتابة المعتادة التي تدغدغ حواس القارئ المعتاد على الكتابات سريعة الانتشار، مما يجعله يواجه دائما صعوبات جمة، ليفتح طريقه باتجاه التعرف على العمل.

قليلون جدا الكتاب الذين يتجاوزون الأشكال العادية والمعروفة مسبقا، و [illegible]الاندفاع في [illegible] ابداع خاص، وبالنسبة لكاتب من قامة جمال الغيطاني يعد من طليعة المجددين».

رقم الإيداع: ١٩٩٧/٩٠٧١
I. S. B. N
977-07-054-

عائلة روايات الهلال

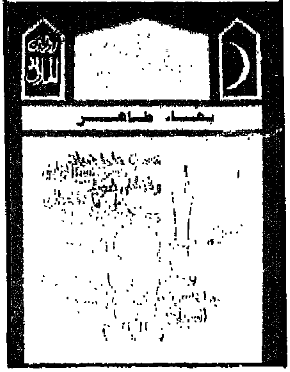

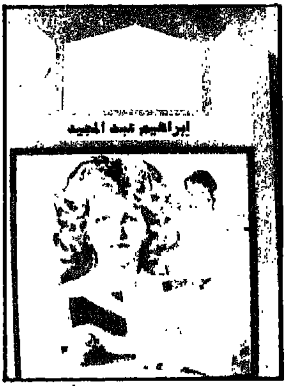

● اذا كنت من هـواة قـــراءة الابداع الراقى عربيا وعالميا ، فشارك معنا عائلتنا الابداعية: «عائلة روايات الهلال».

● احرص على اقتناء نسختك الشهرية ، أو احرص على الاشتراك فيها تصلك بالبريد المضمون إلى عنوانك .

● ٤٧ عاما من الابداع المثالى .

● تم اختـيـار أعـمـالنا لتكون أفـضل الاصدارات للسنوات الأخيرة بصفة متتالية.

● تحـصل رواياتنا على اهم الجـوائز الأدبية. وتتم ترجمتها إلى لغات العالم.

● مـرة أخـرى .. إذا كنت من قـراء الابداع الجيد .. فانضم الى «عائلة روايات الهلال» .

نبع الآداب والثقافة المعاصرة

من : أدب ، وقصة ، ودراسة ، وسير ، وبحوث ، وفكر ، ونقد ، وشعر ، وبلاغة ، وعلوم ، وتراث ، ولغات ، وقضايا ، وتاريخ ، واجتماع ، وعلم نفس ، ورحلات ، وسياسة ... إلخ .

- الإنسان الباهت .	طيبة أحمد الإبراهيم
- الحياة مرة أخرى .	نوال مصطفى
- التنويم المغناطيسى .	يوسف ميخائيل أسعد
- نوم العازب .	محمد حسن الألفى
- من شرفات التاريخ جـ ١ .	د . محمد رجب البيومى
- أم كلثوم .	مجدى سلامة
- المرأة العاملة .	سوزان عبد الحميد أغا
- قادة الفكر الفلسفى .	يوسف ميخائيل أسعد
- الملامح الخفية (جبران ومى) .	لوسى يعقوب
- عبد الحليم حافظ .	مجدى سلامة
- انقراض رجل .	طيبة أحمد الإبراهيم
- الشخصية المتطورة .	يوسف ميخائيل أسعد
- محمد عبد الوهاب .	مجدى سلامة
- الشخصية السوية .	يوسف ميخائيل أسعد
- الشخصية القيادية .	يوسف ميخائيل أسعد
- الإنسان المتعدد .	طيبة أحمد الإبراهيم
- الشخصية المبدعة .	يوسف ميخائيل أسعد
- فكر وفن وذكريات .	لوسى يعقوب
- ساعة الحظ .	محمد حسن الألفى
- سيكولوجية الهدوء النفسى .	يوسف ميخائيل أسعد
- الإعلام والمخدرات .	د . نوال محمد عمر
- من شرفات التاريخ جـ ٢ .	د . محمد رجب البيومى
- الشخصية المنتجة .	يوسف ميخائيل أسعد
- الأسرة مشكلات وحلول .	مجدى سلامة
- ظلال الحقيقة .	طيبة أحمد الإبراهيم
- شعرة معاوية ـ وملك بنى أمية .	عرفات القصبى قرون
- مذكرات خادم .	طيبة أحمد الإبراهيم

Bibliotheca Alexandrina
0449664

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ـ المطابع ٨ ، ١٠ ، ١٣ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية ـ المكتبات ١٠ ، ١١ شارع كامل صدقى بالفجالة ـ ١ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى ـ روكسى
الجديدة ـ القاهرة ت : ٢٨٣٥٥٨٤ ـ ٩٠٨٤٥٥ ـ ٢٨٦١١٩٧ ج . م . ع / فاكس ـ 2596650